تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الاسلامية
http://islamicfiles.net

مع الداعية الإسلامي

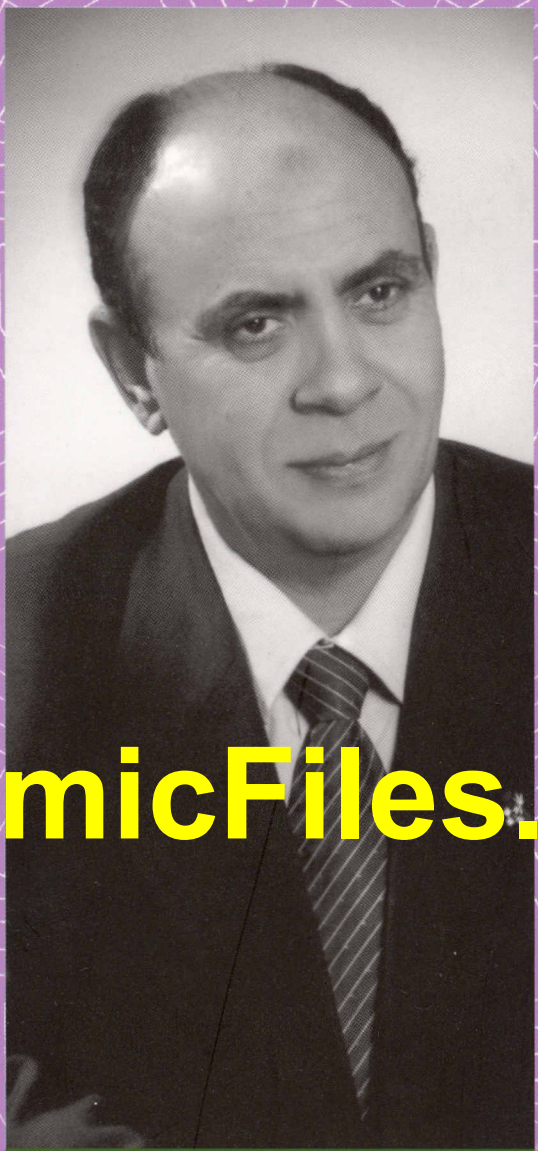

islamicFiles.NeT

الأسرة

بين واقع الدين والحياة

أ.د. مبروك عطية

الدار المصرية اللبنانية

25 عاما مع الكتاب والقراء

المحتـويات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة	9
الباب الأول : السبيل إلى أسرة سعيدة	13
الفصل الأول : آية الزواج	15
من أنفسكم أزواجا	18
لتسكنوا إليها	21
مكانة الزوج	23
وليسعك بيتك	26
1- الوسع المعنوي	26
2- الوسع المادي	29
القرب الحقيقي	32
الضعف من مقتضيات المعرفة	35
الفصل الثاني : آية السكن	39
الاحتواء	39
إدخال من لا يحب	42
لا مكان لي في بيتي	44
عندما يصبح الليل نهارًا	46
والمرأة كذلك تحتاج إلى سكن	48
رفاق السوء	51
أثاث أكل عليه الدهر وشرب	53
عادات سيئة	56

الموضـــــــوع	الصفحة
الفصل الثالث : آية المودة	59
طريق المودة مشترك	59
المودة آية الولاية	61
ومن النساء كذلك	64
مراعاة العادة الطيبة	67
تغيير بسبب الظروف	70
أشياء كبيرة تبدو صغيرة	72
إن ربي رحيم ودود	75
الفصل الرابع : آية الرحمة	79
الزواج من أسباب الرحمة	79
ومن تق السيئات يومئذٍ فقد رحمته	82
رعاية كرامة المرأة من الرحمة	85
هل الزواج قطيعة؟	88
التعاون على الرحمة	91
مع العابدين	93
المبالغة في العتاب	96
الرحمة بالصغير	99
مراعاة السن	102

الموضـــــــوع	الصفحة
الباب الثاني : السبيل إلى ذرية طيبة	107
الفصل الأول : سبيلنا إلى ذرية طيبة	109
ذرية طيبة	109
الحجر على الطاقة	120
التطلع إلى المثل الأعلى	124
أثر الأم في تربية الأطفال	126
الفصل الثاني :مآسي الأطفال	133
النبل عند الخصومة	137
العدل بين الأبناء	146
تحزين الأطفال	151
الأذى المادي	155
الأذى المعنوي	159
الأبناء وسفر الآباء	161
اليتيم حكمًا	166
الفصل الثالث : الأسرة في زمان الشدة	169
معاناة الأسرة	169
كلمات نافعة .. وضارة	172
الظن عند الشدة المعنوية	174
لسان الحال ولسان المقال	177
بلاغة لسان الحال	180
المرأة في حال الشدة	182
الفصل الرابع : حسن معاشرة الأهل	189
حديث أم زرع بين الأصل والواقع	189
حديث أم زرع والصمت بين الزوجين	191
حديث أم زرع بين المدح والذم	195
اللحم الغث	197

الموضـــــــوع	الصفحة
الإمساك عن الشر خوف الفراق	200
شكاية بليغة	203
خير الأمور الوسط	207
داخل البيت وخارجه	210
الأكول الجافي	213
التناهي في سوء العشرة	216
زوج مغلوب	220
زوج كريم	223
آثار الملكية	226
المرأة والحلي	229
تعظيم المرأة	232
بين الأهل والزوج	235
مظاهر سعادة الزوجة	238
امرأة مخدومة	241
امرأة ريانة	244
أم الزوج	247
وما زال الكلام في الحماة	250
حماة هي والأم سواء	253
الريق الحلو	256
امرأة ابن ظالمة	257
من أسرار البغض بين المرأتين	259
أهم سوأة عند الرجل في نظر المرأة	262

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي منَّ على رسله بأن جعل لهم أزواجًا وذريَّة ، والصلاة والسلام على خير البريَّة ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الفصل في كل قضيَّة.

وبعد ..

فإن الحديث عن الأسرة جناحيها الزوج والزوجة ، وريشها الأطفال ، حديث لا يمل ؛ لأنه حديث عن واقع في الحياة يتجدد كل يوم ، ولا شك أن استقرار الأسرة وسعادتها يعود بالخير على الأمة كلها ؛ لأن الأسرة أمة صغيرة في ذاتها ، والأمة الصغيرة لبنة في صرح الأمةِ الأُمِّ التي نِيطَ بها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ونحن في حاجة دائمة إلى إصلاح تلك الأسرة ، وكما يكون إصلاحها بالبناء والسكن والاستقرار المادي يكون كذلك بالعلم ، وإيقاظ الفطن ، والاستقرار النفسي .

ولدينا – مما لا شك فيه – جراح بلا حصر ، أصابت الأمة في عزيز لديها ؛ في وجدان أُسَرِهَا ، والجراح التي تصيب الوجدان تمتد إلى كل ركن من الأركان؛ فليس يسعى إلى المعاني من كان وجدانه ممزقًا ، وعواطفه شاحبة ، اصطبغت بلون الغروب في زمان الشروق ، وشابت وهي لم تزل في المهد صبية .

عزيز على الدين فضلًا عن كونه مخالفة صريحة لجميل دعوته ونبيل سنته ، وأصيل شريعته ، وسماحة أحكامه ، أن نرى شبابًا في عمر الزهور فاشلين في إقامة حياة زوجية

سعيدة ، وقد كانوا قبل أن يتزوجوا عنوانًا للسعادة ، فهل كانوا حقًّا سعداء قبل الزواج أم أنه الوهم الذي يعترينا حاملًا أسماء مشرقة تحتها معان ميتة ؟!

وهل صاروا بالفعل تعساء بعد الزواج ؟ إنهم يُضيِّعون السعادة من أيديهم بالوهم نفسه ، وما أتعس ذلك الإنسان الذي يظن نفسه سعيدًا وهو من السعادة الحقيقية بعيد ، وأتعس منه ذلك الذي يرى نفسه تعسًا والسعادة بين يديه ، ولله دَرُّ القائل :

وَمِـنَ العَجائـبِ وَالعَجائـبُ جَمَّـةٌ ... قُـربُ الحبيـبِ وَمَـا إِلَيـه وُصـولُ

كَـالعِيسِ في الصَّـحراءِ يَقْتلُهـا الظَّـما ... وَالمـاءُ فَـوقَ ظُهورِهـا مَحْمـولُ

من أجل ذلك كان من صلب هذا الدين التدبر ، وإعمال العقل .

كما أن تربية الأطفال رسالة نبيلة ، وغاية شريفة ، وجاءت ملتبسة بالدعاء في قول الله - تعالى - : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: الآية - 24].

ومن الناس من وفقه الله - تعالى - إلى الصواب ، وهداه إلى الرشد فأحسن تربية ولده ؛ رحمه صغيرًا ، وعلمه صبيًّا ، وابتلاه غلاما، وآخاه كبيرًا ، غير غافل عن تحقيق المعادلة فيه ، فهو يقول له: أحسنت إذا أحسن ، ويقول له : أسأت إذا أساء ، وأثابه عند إحسانه ، ووقف معه عند إساءته ؛ إذ ليس من الضرورة أن يعاقبه ، ورُبَّ نظرة غضب من الوالدين عن الإساءة تكون أوقع على قلب الأبناء من وقع السياط على أبدانهم .

ومن الناس من وجد نفسه أبا أو أما ، وهو لا يدري شيئًا عن مقتضى الأبوة ؛ فهو يحسن إلى ولده إذا كانت العلاقة بينه وبين أمه طيبة ، وهو يسيء إليه إذا كان الأمر بالعكس. وهذا ظلم بيِّن ، وهناك قضايا كثيرة تتعلق بالأسرة أزواجًا وذرية .

وقد رأيت أن أقدم هذا العمل في بابين ، تحت كل باب فصول متعددة ؛

الباب الأول: (السبيل إلى أسرة سعيدة) ، ويتضمن أربعة فصول :

الأول : آية الزواج .

الثاني : آية السكن .

الثالث : آية المودة .

الرابع : آية الرحمة .

الباب الثاني : (السبيل إلى ذرية طيبة) ، ويتضمن فصولًا أربعة كذلك :

الأول : سبيلنا إلى الذرية الطيبة .

الثاني : مآسي الأطفال .

الثالث : الأسرة في زمان الشدة .

الرابع : حسن معاشرة الأهل .

هذا ، وإني لأسأل الله سعادة لكل أسرة ، وبركة في كل ذرية تتطلع إليها الأمة ، أملًا في مستقبلها، ورخاء لأراضيها ، ونموًّا لثرواتها ، وراية خفاقة في سمائها.. ترسل النور وتبعث الأمل في كل طريق. والله الهادي إلى سبيل الرشاد ، وهو ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على خير من صلى وصام وعاش الحياة ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

المؤلف

أ.د. مبروك عطية

الباب الأول
السبيل إلى أسرة سعيدة

الفصل الأول : آية الزواج.

الفصل الثاني : آية السكن.

الفصل الثالث : آية المودة.

الفصل الرابع : آية الرحمة.

الفصل الأول

آية الزواج

لا يطلق لفظ « آية » إلّا على الشيء العظيم ، وما أشبه الآية بالمعجزة ، ألا ترى إلى قول الله – عز وجل –: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾[الإسراء :101]

ويطلق لفظ آية على الجملة من القرآن الكريم ، والقرآن الكريم كلام الله الذي تحدى به الإنس والجن ، فقال – عز مِن قائل–:﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : 88].

وقد قال الشاعر من قديم :

وَفي كُلِّ شيء لَهُ آيةٌ تَدُلُّ علَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

أي علامة عظيمة في كل شيء تراه ، تدل على وحدانية الله – عز وجل– وعظيم قدرته وجليل حكمته ، ومن الآيات التي دعانا ربنا – عز وجل – إلى التفكير فيها آية الزواج ، قال ربنا –عز من قائل– : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم :21].

فكيف يتسنى لنا التفكر في آية الزواج ، وما الذي يترتب على هذا التفكر من علاقة سوية بين الأزواج ومن عيشة هنيَّة ، وصحبة مَرْضِيَّة ، لا شك أن أول ما يدعو إلى التفكر أن الزواج يتم بكلمة ، وهي قول ولي المرأة لخاطبها « زَوَّجْتكَ فُلانةَ » وإجابة ذلك الخاطب بقوله « قبلت» وهذا التعبير عن الإيجاب والقبول مع وجود شاهدي عدل من الرجال المسلمين والولي ينبني عليها أن يصير كل منهما زوجًا للآخر ، وقد كانا قُبَيلَ هذا العقد أجنبيين ، فسبحان الله العلي العظيم الذي قرب البعيد بكلمة ، وأدنى النائي بعبارة ، تلك الكلمة كما كانت بداية عقد وحياة تكون عند الضرورة نهاية عقد وفرقة إذا قال لها «أنتِ طالق» صريحة هكذا ، ومن هنا يجب أن يتعلم الناس معنى الكلمة وأثرها ، وأن يعي الشباب خصوصًا ، خطورةَ تلك الكلمة التي يتلاعبون بها هزلًا وفصلًا ، نقول للرجل : كما تزوجت بكلمة اعلم أنك تفارق بكلمة ؛ فاحفظ عليك لسانك ، واشكر الله - تعالى- أن علمك حدوده فلا تتعد حدوده ، ولا تتخذ آيات ربك هزوًا ؛ ففي سياق الطلاق يقول ربنا - تعالى -: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 231].

وإني أحاول أن أستثمر هذا المعنى في تربية الشباب على حياة زوجية ناجحة فأقول :

إن الكلمة التي كانت سببًا لاجتماعكما هي أيضًا سبب لاستقامة حياتكما ؛ فالكلمة الطيبة التي تسري بينكما كما يسري النسيم بين الغصون ، يرطب منها ما قست عليه الشمس ، ويلطف من حرارتها، هي التي تكون حبل وصال بينكما ، فلا يضيق صدرك منها ولا يضيق صدرها منك ، وإذا كانت الكلمة الطيبة في الإسلام صدقة ، فما المانع الذي يجعلك لا تتصدق على أهلك ، وما المانع الذي يجعلكِ لا تتصدقين على زوجك ؟! وقد روى البخاري في صحيحه عن النبي - ﷺ - أن «**اللقمةَ يَضَعُها الزَّوجُ في فَمِ زَوجَتِهِ صَدقةٌ**» ، وفي البخاري كذلك يقول النبي - ﷺ - : «**خَيرُكُمْ خَيرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيرُكُمْ لأَهْلي**» .

وبنظرة في بعض مصادرنا نجد حوارًا بين رجل وامرأة ، هما حُمْرانُ بن الأقرع الجعدي، وصدوف؛ وهو اسم المرأة ، كانت صدوف هذه امرأة غنية خطبها رجال كثيرون ، وكانت ذات مال كثير ، فما أعجبها غير حُمْرَان ، وقد جاء في قصتها أن حُمْرَان حين أناخ ببابها ناقتَه ودخل ظل واقفًا ، وكان الذين سبقوه إذا دخل الواحد منهم جلس ، فلما جاءت ورأته واقفًا سألته :

- ما يمنعك من الجلوس ؟

فقال :

- حتى يُؤْذَن لي.

قالت:

- وهل عليك أمير ؟

قال :

- رب البيت أحق بِفِنَائه ، ورب الماء أحق بسقائه ، كلٌّ له ما في وعائه .

فقالت له : اجلس ، فجلس.

ثم قالت له : ماذا أردت ؟

فقال : حاجة ، ولم آتك لحاجة.

فقالت : تسرها أم تعلنها ؟

فقال : تُسَرُّ وتُعْلَنُ .

قالت : فما حاجتك ؟

فقال : قضاؤها هيِّن ، وأمرها بيِّن ، وأنتِ بها أخبر ، وبنجحها (نجاحها) أبصر .

قالت : فأبصرني بها ، فقال : قد عرّضْتُ [1] وإن شئت بَيَّنْتُ، وسألته عن ماله فقال : ورثت بعضه واكتسبت أكثره، فتزوجته،[2] وفي ذلك جمع بين حسن المقال وحسن الحال ، فتأمل كيف يقع الكلام على النفس موقع الندى على وجه الزهر !

مِنْ أَنفُسِكُم أزواجًا :

الوقوف على معطيات النصوص كالوقوف على أسرار التجارب العلمية ؛ يكون له أثر عظيم في الإفادة والانتفاع ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : 21] . فما مقتضى التعبير بقوله ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؟

إن مقتضى التعبير بقول ربنا : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أن يعلم الناس أن سعادة الإنسان لا يجدها في غريب عنه ، إنما يجدها في مخلوق من جلدته ، أعضاؤه هي أعضاؤه ، ومشاعره هي مشاعره لا اختلاف في شيء إلّا شيئًا يزيده سعادة والتحاما وأنسًا واقترابًا ، لقد خلق - عز وجل - جنًّا وإنسًا ، خلق الإنسان من طين ، وخلق الجن من نار ، فإذا قال ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ دل على أن الزوجة لا تكون من غير الجنس ؛ أي لا تكون من الجن ، وما يدعيه بعض الناس من زواجهم من الجن ، وسعادتهم مع الجنية ، وما ينسجون من قصص مَرَدُّه إلى التخيل والمعاناة النفسية ، وليس المجال هنا يتسع للاستطراد في هذا الادعاء الذي نُبتلى بسماعه بين الحين والحين .

(1) أي عرضتها على سبيل التعريض وإن أردت قلتها صراحة .
(2) فرائد اللآل في مجمع الأمثال للطرابلسي 2/ 118 ، 119 .

فمن كبرى النعم - والله -عز وجل - وليُّ النعم - أن تكون الزوجة من نفس الزوج ، كما أن من نعم الله العلي الكبير أن بعث فينا من أنفسنا أطهر وأنفَس من فينا محمدًا - ﷺ - قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : 164].

لقد أكل النبي - ﷺ - مع الناس ، وأكل الناس معه ، وسافر معهم وأقام بينهم ، وعرفوا آية الرضا والغضب في وجهه الشريف ، وتزوج النساء ، ووضع الطِّيبَ ، وابتسم حتى بدت نواجذه ، واغرورقت عيناه ، وتواضع مع سُمُوِّ مكانته ورفعة درجته ، وعظيم منزلته ، وفهم ذلك يؤدي إلى فهم الحياة الزوجية ؛ فالزوجة يرضيها ما يرضي الزوج ، ويغضبها ما يغضبه ، وما يُرضي معروف غير مجهول فهي بشر مثله ، تتلقى ما يتلقاه ، ويرضيها العيش الكريم كما يرضيه ، وتغضبها الخسارة كما تغضبه ، وهي تنعم في أيام الرخاء كما ينعم ، وتشقى في أيام الشدة كما يشقى ، فهو يعرف ما يرضيها وما يغضبها ؛ لأنه يعرف ما يرضيه وما يغضبه ، والمعرفة أساس النجاح وأول خطواته ؛ فالمسافر الذي يعرف طريقه ؛ مسافتَه وطبيعتَه ،يستعد له وفق هذه المعرفة ؛ فهو يعد للسفر الطويل متاعه، ويحسب له حسابه ، ويأخذ للسفر القصير ما يلزمه من قليل نافع ولو كان قاصدًا بيت أمه وأبيه .

أما إذا جهل الطريق ، وانطلق على جهل به ، تعب ، ولا يصح أن يطلق عليه اسم «مسافر» وإنما يطلق عليه شيء آخر ، إنه ليس مسافرًا وإنما هائم على وجهه ، ومن هام على وجهه كان إلى الجنون أقرب منه إلى العقل ، وإلى الضلالة أقرب منه إلى الرشاد ، ولن يصل إلى غاية ، وإن وصل .

وكذلك الزواج ، يحقق ثمرته وهدفه بناء على تلك المعرفة ، وما هي بعزيزة ، وهناك معرفة ضارة غير نافعة وتحدث لكلا الزوجين ؛ فالزوج الذي يعرف أن المرأة مخلوق غريب ، لا يرضيها شيء ، وأنها ناقصة ، وأن رأيها تافه ، وعقلها في قلبها يضحك عليها بكلمة ، ويسلب منها بسببها كل شيء ، يغره بذلك قول ماجن ، لا يتقي الله - تعالى - في شيء ، إنما يسعى إلى تعذيب نفسه وزوجه بتلك المعرفة الضارة وإنما كانت ضارة لأنها مبنية على كذب .

ومن الرجال من يشبه المرأة بأسوأ صور التشبيه وهي معروفة ، فيستخف بذلك بنفسه ؛ لأنها من نفسه وكذلك تعرف بعض النساء الرجل على أنه فاسد ، ذو عين زائغة ، لا تكفيه امرأة واحدة ولا تقنعه، وفي التراث القديم طُرَفٌ من ذلك ؛ فقد رُوي أن رجلًا قال لامرأة : لقد أخذتِ بمجامع قلبي ، فلستُ أستحسنُ سِواكِ ؛ فقالت : إنّ لي أختًا هي أحسن مني ، وها هي خلفي ؛ فالتفت الرجل فقالت : يا كذاب ، تدعي هوانا ، وفيك فضل لسوانا [1] .

وحدث يحيى بن أكثم المأمون أن «كُثَير» اجتمع مع «عزة» فتنكرت له متنقبة ، وقالت : مَنْ أنت ؟ قال : كُثَيِّر ؛ فقالت : وهل تركت عزة فيك نصيبًا لغيرها ؟

فقال : لو أن عزة كانت أمة لجعلتها لك ؛ فكشفت البرقع وقالت : أهذا أيضًا كذب؟ فاستحى ، فقال المأمون : لقد استحييت له وأنا على سريري [2] .

وأظن أن مثل هذه الروايات منسوجة مخترعة من أجل محاباة وإضحاك زعماء ، وسوق نوادر ، وكم للقصاصين من وضع واختلاق ، ومثل هذه القصص متسامح فيها حتى في الروايات الضعيفة من الأحاديث؛ كما قال ابن عبد البر أبو عمر - رحمه الله - إنما الدقة في الروايات الخاصة بالأحكام ؛ فالحيطة فيها واجبة ، والصحة فيها لازمة ، وبناء على ذلك نقول : إن مثل هذه الروايات أشبه بقول من زعمت أن من أمنت الرجال كانت كمن أمنت على الماء في الغربال ، وهو مَثَلٌ شائع يبين أنه لا أمان لرجل ، ويقابل ذلك قول

(1) محاضرات الأدباء ص 168 للراغب الأصفهاني ط دار الجيل بيروت سنة 1986 .

(2) المصدر السابق ص 269 ، 270 .

القائل : لا أمان لامرأة وإن طالت عشرتها . وخلاصة القول في ذلك أن للنفسية اعتبارًا في تصحيح المفاهيم فمن سلب الأمان من زوجته فقد سلب الأمان من نفسه ، ومن سلبت الأمان من زوجها فقد سلبته من نفسها ، ومن سلب شيئًا من نفسه فلن يعطيه أحد .

لتسكنوا إليها

والله - عز وجل - يقول: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم : 21] ، ولدينا تعبير آخر لا يختلف عن هذا التعبير إلا في حرف التعدية وهو « لتسكنوا معها» فما الفرق بين التعبيرين؟

إنك ربما تسكن مع شخص آخر ، وليس بينكما شيء من المودة ، ولا العطف ، فأنتما متجاوران ، كأنكما رجلان نزلا بحجرة واحدة في فندق ، لمدة ليلة واحدة أو ليال متعددة لكن لا يعرف أحدكما صاحبه ، ولا يطلب منه رأيا ولا مشورة ، قد تتحدثان ، ولكنه حديث من قبيل إزاحة الصمت الذي يجلب الوهم والخوف ، حديث مسامرة قد يمتد إلى الحديث عن النفس بصدق أو كذب ، لكنه في الغالب في شئون الحياة العامة والمواقف النادرة ، وطبيعة الفندق ، وبمجرد أن تنتهي المدة تفترقان وربما ينسى كل منكما أن يسجل رقم هاتف رفيقه ، وقد ينسى كل منكما اسم صاحبه ورسمه مع مرور الأيام ، إنك في تلك الغرفة كنت تسكن معه، ولم تكن تسكن إليه .

فسكنك إلى شخص معناه أنك تلجأ إليه وتلوذ به يعود الرجل من عمله إلى بيته ليسكن إلى زوجته ؛ فهي دوحته المثمرة ، وفيها راحته ، كما أن فيه راحتها ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أتم تعبير ، وذلك في قول الله - عز وجل - : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء : 20 ، 21] .

فالزوج يفضي إلى زوجته وتفضي إليه ، وأنت في الفندق لم تفض إلى من سكن معك ولم يفض إليك ، وإن كنت تزعم أنك ذات مرة فضفضت إليه وفضفض إليك وأذعت له من سرك ما لم تذعه لأخيك ، وقال لك ما لم يقله لأخيه ، فهناك فرق بين الإفضاء والفضفضة. ففي أحكام القرآن يقول ابن عربي : أفضى : أفعل من الإفضاء ، وهو كل موضع خالٍ ، فقال : وكيف تأخذونه وقد كانت الخلوة بينكم وبينهن ، وهذا دليل على وجوب المهر بالخلوة [1] .

غاية ما يقال في ذلك أن هناك خصوصية بين المرأة وزوجها لا تكون عند غيرهما ، وتلك منزلة أنزلهما الله – عز وجل – إياها ، وصونها واجب ، والعجيب أن يقتصر فهم المسألة على المباشرة الزوجية دون سواها ، والله –عز وجل– يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء : 19] وفيها يقول صاحب الأحكام : « وحقيقة » (ع ش ر) : في العربية الكمال والتمام ، ومنه العشيرة ، فإنه بذلك كمل أمرهم وصح استبدادهم عن غيرهم ، وعشرة تمام العقد في العدد ، ويعشَّرُ المال لكماله نصابًا ، فأمر الله – سبحانه – الأزواج إذا عقدوا على النساء أن تكونَ أُدْمَةُ ما بينهم وصحبتهم على التمام والكمال ؛ فإنه أهدأ للنفس، وأقر للعين ، وأهنأ للعيش ، وهذا واجب على الزوج [2] .

وهذا الذي ذكره العلامة – رحمه الله – معناه شمول المعروف كلَّ مناحي الحياة بين الزوجين ، ، فليست الحميمية – تلك اللفظة الشائعة اليوم على معنى الجماع وحده – ليست خاصة بهذا اللقاء دون سواه ؛ بحيث إذا أفضى كل منهما لصاحبه انفضت الحميمية ، وذهبت المودة . تحكي امرأة أن زوجها قبيل تلك المعاشرة الخاصة يتودد إليها ، ويقبل يديها، وبعيد انتهائه منها يأمرها بأن تقوم من جواره بطريقة فظيعة (على حد

(1) أحكام القرآن 1/ 462 .

(2) المصدر السابق 1/ 456 .

تعبيرها) يقول لها : قومي (فزِّي) بصوت بغيض ، ثم ينفخ ، قالت : فوالله لو كنت بغيًا كانت في حضنه لما عاملني تلك المعاملة السيئة .

وهي تحكي ذلك شاكية سائلة ، ولا تود فضح أمره وإذاعة سره ، وسؤالها : هل عليها من حرج إذا امتنعت عنه حين يطلبها قالت : وهذه عادته منذ تزوجته ، ولولا أن لها أولادًا منه ما عاشت معه هذا الزمن الطويل .

والجواب عن سؤالها : أنها لا يجوز لها الامتناع عنه ؛ لأنها حلاله ومن حقه أن يطلبها فتستجيب ، ولكن عليها أن تنصح له بالمعروف وأن تبين له أن هذا السلوك لا يُقبل منه ، فهي التي أسعدته وليس جزاء الإحسان إساءةً من بعده ، وقد يكون مريضًا مرضًا نفسيًّا ، بدليل وجود أمثاله الذين يقولون لنا إنهم يشعرون بعد المعاشرة بأنهم كانوا يزنون ، والحق أنهم كانوا في حلال مشروع ولم يكونوا يزنون كما يتوهمون ، وليس كل من تصدر منه إساءة يكون علاجه الترك والإهمال فضلًا عن المفارقة وهي بغيضة .

وبعض الأزواج لا يفعل ذلك ، وإنما يكون محسنًا قبل اللقاء وبعده ، لكن إذا عامل زوجته عاملها معاملة سيئة ، فهو لا يتودد إليها ، ولا يدنو منها ، ولا يحسن إليها إلّا في تلك اللحظات ، تقول المرأة : إنه يتحدث إلى غيرها بأحاديث لا تعرف عنها شيئًا ، ويقول لأمه وأخته ما لا يقوله لها ، وهي لا تعرف له سرًّا ، وإذا خرج من بيته لا يقول لها إلى أين ، وإذا عاد لا يسألها عن شيء ، يدخل غرفته ويغلق عليه بابها ، وله مكتب فيه من الأوراق ما يحبسها ويكتمها عنها ، وهي حائرة ، يقول لها : ما لكِ عندي من حق سوى أن تطلبي من المال ما تريدين ، فأنا لا أبخل عليك ، ولكن شئوني الخاصة لا مصلحة لكِ فيها ، ولا دخل لكِ بها وليس من حقك أن تسأليني عن شيء ، فهل في ذلك شيء من الكمال والتمام الذي ذكره ابن عربي في أحكام القرآن وغيره؟!

مكانة الزوج

ومن آيات الزواج التي يشهد بها الواقع أن نجد للزوج مكانة عند زوجته ، أبلغ ما جاء فيها ما ذكره السهيلي في الروض الأُنف في تناوله غزوة أحد التي أُصيب فيها المسلمون

بالقرح ، واستُشهد فيها من الصحب الأخيار ، والرجال الأبرار حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله - ﷺ - وأخوه في الرضاعة ، وهو سيد الشهداء ، ومصعب بن عمير القارئ ، الذي كان أشبه الناس برسول الله - ﷺ - وعبد الله بن جحش (المجدَّع في الله) ، رضي الله عنهم أجمعين ، وعن سائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان هؤلاء الثلاثة ذوي صلة بامرأة هي حَمنةُ بنتُ جحش ؛ فحمزة - رضي الله عنه - كان خالها ، وعبد الله بن جحش - رضي الله عنه - كان أخاها ، وأما مصعب بن عمير - رضي الله عنه - فكان زوجها ، قال ابن إسحق كما جاء في الروض[1] : ثم انصرف رسول الله - ﷺ - راجعًا إلى المدينة ، فلقيته حَمنةُ بنت جحش ، فلما لقيت الناس نُعي إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نُعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب ؛ فاستغفرت له ، ثم نُعي لها زوجها مصعب بن عمير ؛ فصاحت وولولت ؛ فقال رسول الله - ﷺ - « إن زوج المرأة منها لبمكان » لما رأى منها من تثبت عند أخيها وخالها، وصياح على زوجها .

ومعنى ذلك أنه عندما قيل لها :

مات أخوك عبد الله بن جحش قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم اغفر له .

ولما قيل لها :

مات خالك حمزة بن عبد المطلب ، قالت :

- إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اغفر له .

فلما قيل لها :

- مات زوجك مصعب بن عمير صاحت وولولت ، ومن ثَمَّ عُرفت مكانته عندها.

ولا شك أن الأخ غال ، وأنّ الخال غال ؛ فالخال والد كما قال النبي - ﷺ - لكن الزوج أغلى .

(1) الروض الأنف 3/ 172 .

وفي هذا السياق ينبغي أن نقف مليًّا عند الزوج ذي المكانة ، فهو مصعب بن عمير ، الذي قال فيه النبي - ﷺ - : « **ما رَأيتُ رَجُلًا بِمَكةَ أَحسَنَ لمةً وَلا أَرقَّ حُلَّةً ، وَلا أَنْعَمَ نِعْمةً مِنْ مُصْعبِ بنِ عُمَير**»[1] .

فهذا رجل من أوائل المسلمين ، ولنا أن نقف عند وصف النبي - ﷺ - إياه ، فقد كان رجلًا جميل الشَّعْر والهيئة ، وكان ذا نعمة ناعمة ، وهاجر - رضي الله عنه - إلى الحبشة ، وكان يسمى بالمدينة المقرئ ، وهو أول من جمع الجمعة بالمدينة ، وأسلم على يديه أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ.. وكفى بذلك فخرًا وأثرًا في الإسلام[2] .

أقول ذلك وما زال في أذني قول شاكية: إن زوجي لا يغتسل حتى من الجنابة ، ولا يستبرئ من بوله ، ولا يضع طيبًا إلّا إذا خرج للقاء امرأة في الحرام ، فكيف تكون له مكانة عند زوجته؟!

إن الأصل الأصيل أن يكون للزوج مكانة عند زوجته ، وتلك المكانة آية من آيات الله ، والآية من الآيات يجب صونها ؛ ألا ترى الرجل الذي لا يحسن تلاوة القرآن يخطئ في ضبط الآية فضلًا عن التحريف ؛ فالخطأ والتحريف من القارئ ، ولا خطأ ولا تحريف في الآية .

وكما يجب إصلاح اللسان حتى لا يُحدِثَ لحنًا في القرآن يجب كذلك إصلاح ذات البين خصوصًا بين الأزواج؛ لأن الزواج آية من آيات الله ، وإصلاح الحال بين الزوجين يجعلنا جميعًا نتفيأ ظلال تلك الحياة ؛ فالخير ينطلق من الأسرة إلى الدنيا جميعًا ، وفرق كبير بين أن ترى الرجل أو المرأة ينطلق في الحياة على سعادة وراحة بال ، وأن ترى أحدهما أو كليهما منطلقًا وفي حلقه غُصَّة ، وفي قلبه أسى .

(1) الاستيعاب 4/ 37 .

(2) أسد الغابة 5/ 165 .

نعم علينا أن نستثمر المواقف الطيبة التي وردت فيها العبارات الأصيلة لنستفيد منها ، وكما قلت إن مصعب بن عمير كان رجلًا جميلًا ، ولا شك أنه كان زوجًا أجمل ، ومن ثم صاحت امرأته حمنة بنت جحش عندما نُعي لها ، وعرفت أنه قد مات .

وقد ثبت أن أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها - حين بلغتها كلمات تقال عند المصيبة ، وهي: « اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا » قالت في نفسها : ومَنْ خير مِنْ أبي سلمة ؟ فلما قالتها وهي على يقين سبق ظنها ، وغلب على احتمالها كان لها من هو خير من أبي سلمة والرجال جميعًا ، فقد تزوجت رسول الله - ﷺ -

لكني أقف عند قولها « **وَمَنْ خَيرٌ مِنْ أَبي سلمةَ ؟**» وقد هاجرت معه إلى الحبشة ، وهاجرت وراءه إلى المدينة ، ورُبَّ كلمة واحدة هي خير من كتاب ، وتلكم الكلمة هي «خير» فإذا تحققت الخيرية في زوج كانت له عند زوجته مكانة وكذلك الزوجة.

وليسعك بيتك

1- الوسع المعنوي

الحديث عن وسع البيت يشمل ناحيتين ؛ الأولى : أن يشعر صاحب البيت أن بيته أوسع له من الدنيا برغم اتساعها وأن كل ما فيه أجمل مما هو خارجه ، وإن كان ما خارجه يـأخذ بالنَّظَر ، ويسبي الفِكْرَ ، كالوطن الذي قال فيه الأُوَل :

بِلادٌ بِها نِيطتْ عَلَيَّ تَمائِمي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلدي تُرابُها

روى السهيلي[1] في الروض أن عائشة - رضي الله عنها - سـألت أُصـيلًا الغفـاري وهم بالمدينة إثر هجرته إليها ، فقالت له :

كيف تركت مكة يا أُصيلُ ؟

(1) الروض الأنف 3/ 15.

فأخذ يصفها حين ودعها فاغرورقت عينا رسول الله - ﷺ - وقال له : دعِ القلوبَ تَقِر .

وقد قال - عليه الصلاة والسلام - مخاطبًا مكة المكرمة قبيل خروجه منها: «**إِنَّكِ لأَحَبُّ بِلادِ الله إِلى الله وَأَحبُّ بِلادِ الله إِلَيَّ ، وَلَولا أَنَّ قَومَكِ أَخْرجُوني مِنْكِ ما خَرجتُ**» .

والحديث عن الوطن حديث طويل ، وقد أصيب وطن أسامة بن منقذ الأمير الأديب وهو خارجه؛ فجمع سِفرًا طويلًا سماه « المنازل والديار » وهو مطبوع معروف ، جمع فيه ما بلغه من ذكر المنازل والديار وما يرد عنهما من الكتاب والسنة والشعر والنثر .

والوطن الأم للإنسان بيته الذي يؤويه وسكنه الذي يحتويه ، ومقصودنا هنا الذي نود أن نبينه أن هذا الوطن الصغير ينبغي أن يتسع للرجال ، وللنساء كذلك؛ إذْ إن لدينا بيوتًا مهجورة من أصحابها ، يهجر الرجل بيته فلا تكاد تجده فيه إن طلبته ، فإما أن يكون في ناديه ، أو على المقهى أو في بيت صديق له ، أو في غير ذلك.

ولطالما قالت زوجة لسائل عن زوجها في الهاتف :

- أنت تعرف أنه لا يقعد.

أي لا يقعد في البيت ، فأين يقعد إذًا ؟

وكذلك نجد امرأة خارج بيتها ، ولا أعني أنها في العمل ؛ فالعمل قضية أخرى ، وإنما أعني أنها إما أن تكون عند أمها ، وإما أن تكون عند أختها ، أو عند صاحبتها ، أو في مكان آخر .

وظاهرة الخروج من البيت ظاهرة خطيرة ، مرض انتشرت عدواه بين الأطفال ؛ فالطفل يود الخروج والانطلاق ، وبعض الأطفال يبكي حين يدرك أنه

أمام البيت وقد انتهت الرحلة ، يود أن يكون خارج البيت معظم الوقت ، وقد يكون للصغير عذره ؛ أنه يود أن يشاهد ما لا يشاهده داخل البيت يريد أن يتطلع إلى كل جديد غير مألوف ، وعلينا أن نضبط له المعادلة ، وأن نغرس حب الوطن الصغير في قلبه النابض حتى يتعمق هذا المعنى فيه .

وقول النبي - ﷺ - : « **وَلْيَسعْكَ بَيْتُكَ** »[1] معناه كما ذكرت أن يكون بيتك واسعًا في ناظريك تقيم فيه ؛ لأنه يسعك ؛ فالإنسان يترك ما لا يسعه كالثوب الضيق لا يرتديه ؛ لأنه لا يَسَعُهُ ، وإنما يرتدي الإنسان الثوب الذي يتسع له ، كذلك البيت .

والسؤال هنا : هل معنى اتساع البيت مجرد وجود الإنسان فيه ، على صمت ونوم وملل ، أم يعني وجوده فيه أن يكون على مقتضى الوجود من القيام بإصلاح الولد وتربيته ، وتَفَقُّدِ الأهل والعناية بهم ومؤانستهم .

إنَّ بعض النساء - على الرغم مما نحن فيه من الدعوة إلى تواجد الرجل في البيت - يتمنين أن يخرج الرجل .

ومرجع هذا التمني إلى أمرين :

الأول : أن يكون وجوده من قبيل العطلة والبطالة ؛ فهو يقيم بالبيت ، لا يخرج للكسب ، ومثل هذه الإقامة بغيض ، لا يحبه الله - تعالى - الذي أمر بالعمل ، ولا رسوله - ﷺ - القائل « **لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا عَلَى عَاتِقِهِ وَيَحْتَطِبَ خَيرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ** »[2] وقد شاع من قديم قول الناس « فلان يقعد في البيت كالمرأة » لما كانت المرأة قعيدة بيتها ، لا تعمل ، فهو تشبيه منفر للرجل الذي آثر الراحة ، واعتكف في بيته ، ولا يريد أن يشقى ويعود

(1) رواه الترمذي.

(2) رواه البخاري.

بثمرة هذا الشقاء خيرًا يجلبه لأهله ويطعمهم ، وكم من ذكر يقعد بالبيت وامرأته هي التي تخرج للعمل والكسب ، يرغمها على ذلك أن لها أولادًا منه ، وهي من البيئة المعجونة بالصبر ، والمطحونة بالجهاد ، وهي تعتبر أن ذلك قدرها وهذا حظها ونصيبها ، فماذ تفعل ؟

وإذا أجابها عالم وقال لها : إن النفقة واجبة عليه إما طوعًا وإما كرهًا أجابته : ومن لي بمصروفات القضاء ؟ وماذا أحصل عليه منه وهو لا يملك شيئًا؟ إلى آخر المآسي المعروفة .

والثاني : أن يكون وجوده وجود أذى ، فهو يعترض على كل شيء ويعلق على كل شيء ، ولا يعجبه أيُّ شيء ، أو هو كما تقول المرأة الجريئة في التعبير « كابس على نفسنا » فمثل هذا إذا خرج من البيت كان خروجه بالنسبة إليهم من الله فرجًا؛ كي يتنفسوا الهواء ، ويشعروا بلذة الحياة .

ولذة الحياة يجب أن يشعر بها جميع أفراد الأسرة داخل البيت ، ولن يتحقق لهم ذلك إلّا إذا كانوا متعاونين على البر والتقوى ، عندئذٍ يتسع البيت لهم ، ويود مَنْ هو خارجه أن يعود إليه سريعًا ؛ لأنه عائد إلى مستودع لذته ووطن سعادته .

2- الوسع المادي

ما زلت أذكر هذا البيت من الشعر :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بِأَهْلِهَا ... وَلَكِنَّ أَخْلاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

ومعناه حق ، فإن الوسع الحقيقي ينبعث من النفس الواسعة فإن ضاقت النفس ضاق الفضاء على الرغم من اتساعه ، والدليل على ذلك قول الله -تعالى -:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ

عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : 118].

فهؤلاء الثلاثة ، ومنهم كعب بن مالك وحديثه يبين لنا كيف ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ؛ فقد اعتزلهم الناس بأمر رسول الله - ﷺ - وكان كعب يدخل المسجد على النبي - ﷺ - فيلقي السلام فلا يدري أردّ -عليه السلام - أم لا ، إنها الشدة المعنوية التي لا ينجلي منها نور ، ولا يبرق من ظلماتها أمل ، حتى نزلت توبة الله - تعالى - عليهم فإذا بالضيق اتساع وإذا في الحياة نور ، وفي النفس إحساس بمعنى الحياة .

وفي سورة التوبة نفسها يقول الله -عز وجل- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة : 25].

نعم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ حيث هجم الأعداء عليهم من خنادق ومغارات لم يحسبوا لها حسابًا ، فتفرَّق الجمع ، ووهَنَتِ القوى ، وكان الفرار إلّا من رسول الله - ﷺ - والأخيار الذين لم يتركوه ، وأخذ ينادي فيهم قائلًا « أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبد المطَّلِبْ »[1] فلما أنزل الله سكينته وجنوده اتسع ما ضاق ، وتجمع ما تفرق قال - تعالى - في السورة نفسها:﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: 26] .

والوسع المعنوي الذي سبق أن تناولناه يحققه الشعور بالسكن والإحساس بالمودة ، والتنعم بآيات الرحمة ، فإن ضاق البيت مساحة فوسع النفوس يقلل الشعور بهذا الضيق .

(1) متفق عليه.

ولكن هل يتعارض ذلك والسعي إلى توسيع الضيق واستبدال الواسع ؟

والجواب أن الدين لا يدعو إلى الضيق ، فقد جاء في الحديث الشريف أن الشؤم في المرأة والدابة والدار ، امرأة سليطة اللسان سيئة الخلق ، ودابة غير راحلة، لا تحملك إلّا على عناء ، ودار قال العلماء في مظاهر شؤمها :

إما أن تكون ضيقة ، وإما أن يكون جيرانها جيران سوء . فالضيق لا يأتي بخير ، وأما قول الشاعر فمحمول عندي على الضرورة ، يعني إذا لم نجد بُدًّا من الضيق حيث لا بديل ، كان علينا أن نوسع من أنفسنا لتتسع لنا بيوتنا .

وأنا ألحظ مقارنة عجيبة يغيب عنها اختيار ثالث ؛ فتلك المقارنة تكون بين واسع من البيوت مع فساد علاقة ، وبين ضيق من البيوت مع حسن معاشرة .

وأنت إذا عرضت هذه المقارنة على الناس وجدتهم يختارون الثاني ، وأنا أقول : فأين وسع البيوت مع حسن المعاشرة ؟

إنَّ هذا الاختيار الثالث هو ما يستقيم ودين الله ؛ لأن الله - عز وجل - وصف الأرض بالوسع ، فقال - سبحانه- : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر: 10].

ووصف الجنة بالوسع ، فقال - عز وجل -: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133].

فالوسع في الدنيا والآخرة لمن وفقه الله - عز وجل - فلا دعوة إلى الضيق ؛ لأن الضيق عذاب ، والدليل على ذلك قول الله - سبحانه -: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان : 11- 14].

فانظر كيف عبر عن لون من ألوان التعذيب بالضيق ، أعاذنا الله منه في الدنيا والآخرة، ووسع علينا في الدارين .

إنَّ سعينا إلى اتساع بيوتنا يجب أن يكون في معادلة مع اتساع أخلاقنا وأنفسنا ؛ فمن الرجال مَنْ تراه يتمنى أن يكون بيته واسعًا ولكن كما قال شوقي :

وَمَا نَيلُ الـمطَالِبِ بِالتَّمَنِّي

وما نود أن نلقي عليه الضوء هو أن بعض هؤلاء همه على بطنه وملذاته ، يقول : أنا لا أحرم أولادي شيئًا ، وهات يا نفقات في المال والمشرب والملبس والمصيف والمشتى ولو اعتدل في ذلك لتوفر له ما يشتري به بيتًا واسعًا ، لكنه أخلد إلى الملذات ، ونسي أمر التفريق بين الأولاد والبنات وأن صغيره الذي ينام في حضن أمه إلى جواره سوف يكبر وينأى عن هذا الحضن مضجعًا ؛ حيث لم يعد يصلح أن يلتصق بها وهو شاب كبير ، فماذا فعل أبوه؟ وعلى الدولة كذلك مسئولية في البناء والتعمير ، وتشجيع الناس على ترك الضيق مع توفر أسباب الترك من عمل ومدرسة وغيرهما ، فإن الدعوة دعوة السماء حتى لا تنفجر القطعة الضيقة من المعمورة عن سكانها ؛ كالمسمار الذي قال له لوح الخشب : لمَ خرقتني؟ فقال : من شدة الدق على رأسي !

القرب الحقيقي

المقاربة منهج الإسلام ، وهي ضد المباعدة ، وفي الحديث الصحيح: « فَسَدِّدوا وَقَارِبوا » ومعنى « قاربوا » كما يقول العلماء: حاولوا الوصول إلى الحق إن لم تستطيعوا الكمال في بلوغه ، وفي الحديث أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وفي التنزيل : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة : 186].

يقول الله - عز وجل - : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود : 61].

فالقرب مرتبط به الإجابة ، فما عسى أن ينفع القرب مع الجفاء ، أن تنادي فلا يجيبك من تراه منك قريبًا ، وأن تطلب إليه ما في وسعه أن يحققه لك فلا يقدم لك شيئًا. إنه إن أردت إنصافًا أبعد ما يكون عنك ، قال أبو نواس :

وَمَا أَنَا مَسْرورٌ بِقُرْبِ الأَقَارِبِ ... إِذا كَانَ لي مِنْهُمْ قُلوبُ الأَباعِدِ

أي إذا كانت القلوب بعيدة ، فلا نفع في قرب الأجساد !

وقد رأينا أزواجًا يسكنون بيتًا واحدًا ، ولكنهم كالغرباء ، هم متواجدون في البيوت، لكن أرواحهم هربت من تلك البيوت ، وهذا معنى من معاني العدم الذي قد يظنه بعض الناس وجودًا وما هو بوجود !

وإذا كنا نريد الربط بين ذلك وبين المعين الصافي الذي ذكرته في آيتي البقرة وهود استطعنا ذلك بشيء من التفكر والتدبر ، فالله - عز وجل - قريب مجيب. إنه -عز وجل- قريب بلا شك ، لا يغيب ، قال - تعالى-: ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : 117] وهو - سبحانه وتعالى - مجيب ، ولكن مَنْ يجيب ؟

إنه يجيب الداعي إذا دعاه مخلصًا له الدين ، ملتزمًا بشرعه ، مجتهدًا في طاعته ، أمّا الفاسق المنافق فيدعو ولا يستجاب له .

ألا يجوز لنا أن نستثمر هذا المعنى في بيان القرب الحقيقي بين الزوجين اللذين كانا بعيدين قبل الزواج ، فقرَّب الزواج بينهما ؟

لقد جرت عادة الناس أن يدعوا عالمًا من العلماء لعقد زواج أولادهم ، وقد شرفت بمثل ذلك ورأيت ما يراه جميع الحضور من وجود العروس ملتصقة إلى جوار زوجها حتى إن بعض الناس الذين ورثوا ثقافة قديمة شعبية ينهض لإخراج طفل حشر نفسه بينهما ، يقولون : لا تفرق بينهما يا ولد ، تعالَ تعالَ ، ومنهم من يعد ذلك سوءًا ويتشاءم بسببه ، إنهم يريدونهما قريبين متقاربين متصلين بلا فواصل ، حتى لو كان هذا الفاصل طفلًا صغيرًا لا يدرك ذلك ، إنما استراح لكي يكون حشوًا بين شخصين جميلين متعطرين متجملين ، حولهما الورود ، ومنهما يضوع المكان عطرًا ، والوجوه تحملق فيهما وكأنها لم تشاهدهما إلّا في تلك الساعة ، وكأن العروس لم تكن بالأمس فتاة عادية مألوفة ، وكأنها هبطت من السماء أو جاءت من أرض أخرى غير الأرض التي نسكنها .

فكيف يدوم هذا القرب ؟ وكيف يؤتي ثماره ؟ وكيف يحقق الغاية المرجوة منه ؟ والجواب عن ذلك كله يتمثل في حرص كل منهما على أداء ما كلفه الله - تعالى - به من حق منوط به لتحقيق سعادته وبلوغ غايته وأداء رسالته. أما الذي فرق بينهما من غير تدخل طفل ولا غيره فهو التفريط في أداء ذلك الحق ، والتقصير في إيصال كل واحد منهما الواجب الذي عليه لصاحبه وعوامل أخرى سوف يأتي بيانها في موضع آخر .

والعجيب الذي ألفه الناس أن يكون كل واحد من الزوجين نافعًا للبعيد غير نافع لصاحبه وهو أقرب الناس إليه ، قال ابن الأحوص :

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْشَى الأَبَاعِدَ نَفْعُه ... وَيَشْقَى بِه حَتَّى المَمَاتِ أَقَارِبُهْ

وفي هذا المعنى يقول آخر :

وَتَــراهُ يُكْــرِمُ مَــنْ نَــأَى ... عَنْــهُ وَيُــؤْذي مَــنْ حَضَــرْ

كَالشَّــمْسِ تَــنْحَسُ مَــنْ دَنَــا ... مِنْهَــا وَتُسْــعِدُ مِــنْ نَظَــرْ

ولعلنا نجد السر في هذا الأمر العجيب في قول أبي يعقوب الجريمي :

كَــانوا بَنِــي أُمٍّ فَفــرَّقَ شَــمْلَهُم ... عَــدَمُ العُقُــولِ وَخِفَّــةُ الأَحْــلامِ

أي لو أن الإنسان استعاد عقله واستثمر فكره لكان نفعه لأقاربه من باب أولى ؛ فالأولى بالخدمة والرعاية ومقتضيات القرب لأقاربه من باب أولى ؛ فالأولى بالخدمة والرعاية ومقتضيات القرب أقاربنا ، والزوج أقرب ما يكون لزوجته ، وكذا الزوجة أقرب ما تكون لزوجها ، فكلاهما أولى بالمعروف والخير لكي يكون قربهما قربًا حقيقيًّا ، فإذا غاب العقل أو غُيِّب وجدت الزوجة تهتم بأهل زوجها ورفاقه أكثر من اهتمامها بزوجها الذي لولاه لما عرفت أهله ولا أقاربه ، وكذلك الزوج الذي تراه رقيق الحاشية مع أخت زوجته وربما صارحها فقال لها : كأنك لست أختها حسنًا وخلقًا ثم يتبع ذلك بقوله: « سبحان الله»، فيغيظ بذلك زوجته ؛ مثلما يغيظها بمدِّ فروع عطائه إلى الأباعد. أما زوجته فلها الحرمان !

الضعف من مقتضيات المعرفة

من مقتضيات المعرفة بأن الزوجة من نفس الزوج ، أن يدرك ما عليه زوجته من ضعف ؛ لأنه ضعيف مثلها ، والله - عز وجل - يقول : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : 28] .

والربط بين صدر الآية وعجزها (آخرها) من وسائل الوصول إلى بلاغة النظم الجليل ، فصدر الآية قوله - عز وجل - : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾ وآخرها ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ والعلاقة بينهما أن آخر الآية علة لأولها ؛ فعلة التخفيف ضعف الإنسان.

ولسنا في حاجة إلى الحديث عن مظاهر ضعف البشر ؛ فهي معروفة ، وقد بيَّن لنا ربنا - عز وجل - أنه خلقنا من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة قال - تعالى - : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : 54] . وهي في السورة نفسها التي وردت فيها قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم : 21] .

وبعض الرجال يظن أن المرأة مخلوق قادر على أن يعمل الأعاجيب ، تعمل ، وفي الوقت نفسه تعود إلى البيت فتقوم بمهامه ، تغسل وتطبخ وتربي الأولاد ، وبالليل تكون عروسًا من الحسن مجلوَّة ، كأنها كانت طوال يومها نائمة مستريحة ، ولم يصدر منها عمل ، ولم يخرج منها جهد وهذا تعسف ظاهر ، وظلم بيِّن ، فإنه يعود من عمله متهالكًا ، لا يقوى على شيء ، يطرح نفسه فوق الفراش ، ويأخذ حظه من الراحة والاستجمام ، ثم يفيق فإن وجدها نائمة ضرب كفا بكف ، وقال : لا حول ولا قوة إلّا بالله. إنه يذكر الله - عز وجل - بقوله: « لا حول ولا قوة إلّا بالله » لكنه ذكر الغافل ، فإن الله - تعالى - لم يقل إنها امرأة من حديد وإنما قال : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فكيف ارتضى لنفسه أن ينام ولم يُرضِه أن يراها نائمة ؟ أليست عائدة مما عاد منه ؟ ونيط بها من المسئولية ما نيط به ؟ ومرت بالشارع الذي مر به ؟ وضايقها ما ضايقه من ازدحام الشوارع وتعطل الحركة ؟ وقد يكون عائدًا في سيارته وتكون هي عائدة في المواصلات العامة وما أدراك ما هي ؟!

لقد ثبت في الحديث من رسول الله - ﷺ - أنه قال : « مَنْ لا يَرْحَم لَا يُرْحَم »[1] ، وقال : « ارْحَمُوا تُرْحَمُوا »[2]. ومن الرحمة أن يشفق عليها مثلما يشفق على نفسه وأن يدرك

(1) متفق عليه.

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد.

أنها ضعيفة مثله ، وأنه يعتريها ما يعتريه من ضيق نفس وكآبة قلب ، وسوء معاينة لمشاهدة الحياة الكئيبة وبؤس الأسباب ، وأن لها طاقة محدودة كما أن له طاقة محدودة، وحين يقول ربنا - تعالى - : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: 185] .

لا يخاطب بذلك الرجال دون النساء ، وإنما يخاطبهما معًا ؛ فالرجل يفطر في رمضان إذا كان مريضًا أو على سفر ، والمرأة كذلك ، وهكذا في خطاب ربنا - عز وجل - في القرآن الكريم ، وإن كان الخطاب موجهًا للذكور فذلك على سبيل التغليب كما يعرف العلماء ؛ أي أن الخطاب للذكور وهو يشمل الإناث بلا شك ، بل إنّ المرأة يعتريها من الضعف ما لا يعتري الرجل من حمل وولادة ورضاعة ألا ترى قول الله - عز وجل - : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان :14] .

وقوله - عز من قائل - : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : 15] . وجرت عادة بعض الرجال أن يقولوا للمرأة التي تتوجع أو تعتذر عن تقصير بسبب حملها :

- لست الوحيدة في الدنيا التي حملت ، إن أمي كانت تحمل وتلد وتقوم بكل شيء ، وتلبي نداء أبي في أي وقت ، وفلانة وفلانة.. وهذا قياس ظالم ، وقول فاسد ، وإن صح ما قال فإنه لم ينظر إلى اختلاف الظروف والأحوال ، نعم كانت أمه هكذا كما قال، وكان أبوه

بها رحيمًا ، ولكنه ليس رحيمًا كأبيه ، أو أن أمه كانت تشكو بثها وحزنها إلى الله ، فلم تُسمعه شكوى ، ولم تُسمع أباه ، فكيف تصور أنها كانت من حديد وهي ليست من حديد؟! والقول السديد ما ذكره ربنا - عز وجل - في كتابه ، ومن أصدق من الله قيلًا ؟!

ثم إن الهدي النبوي الكريم يدل على تلك المفارقة التي نعانيها جميعًا في فهم ديننا ، فنحن نحفظ أن النبي - ﷺ - كان في خدمة أهله ، كان يحلب شاته ويصنع المعروف في أهله ؛ رحمةً بهم ، كما جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها - نحفظ ذلك ونحن مؤمنون بأنَّ سيدنا النبي - ﷺ - سيدُ الرجال ، فلا ينتقص من قدر الرجولة أن يرحم الرجل امرأته ، فيعينها لإقامة البيت ، والمحافظة على دفئه واستقراره ، وألا يكلف امرأته فوق طاقتها ، كي يتسنى له الاستمتاع بها ، وحتى يكون رجلًا في كيانها يزداد حبه في قلبها ، فإن وجدته وجدت الدنيا وإن لم تجده افتقدته وما أقل الذين يفتقدون :

وَفِي اللَّيلةِ الظَّلماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

الفصل الثاني

آية السكن

الاحتواء

السكن ظرف ، يحتوي مظروفه ، ومظروف السكن هو الساكن بلا تعقيد ولا مبالغة ، وهو إذا كان متسعًا مريحًا كان نُزُلًا طيبًا ومستراحًا جميلًا والله - عز وجل - يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم : 45] .

ويقول ربنا - تعالى - : ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم : 45] ويقول - عز من قائل - : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل : 80] .

من جميع ذلك نفهم أن السكن نعمة ، وأنه ظرف ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم :45] فالإنسان يسكن في البيت ، ويسكن إلى زوجته فيه ، والله - عز وجل - جعل نسبة البيوت إلى النساء ، فقال

- عز وجل - : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق : 1] . ، وقال ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف:23] فقال في ﴿بَيْتِهَا﴾ مع أنها همت بخطيئة وَهمَّ هو بفرار ، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت به .

وموضوعنا هنا : كيف يكون البيت سكنًا للزوج ؟ وكذلك كيف يكون سكنًا للزوجة؟ ، فإذا وضعنا نصب أعيننا تلك النسبة التي كرم الله - تعالى - بها المرأة ؛ إذ نسب إليها البيت قلنا كيف يكون البيت مسكنًا للرجل باعتبار أن المرأة تسكنه دون مشقة، وترتاح فيه ؛ لأنها في بيتها ، والمرء إن لم يكن ساكنًا في بيته فأين يسكن ، مع مراعاة ما جَدَّ على الناس من (طفشان) بعض النساء من بيوتهن ، ورغبة أخريات في ذلك الخروج الدائم ، وما أشيع بينهن من أن البيت سجن ، أما الخروج منه فهو الحياة والانطلاق .

ولكي يكون البيت متسعًا ومراحًا يجب أن تنتبه المرأة إلى أمور مهمة ، منها ما يتصل بالبيت ، ومنها ما يتصل بذاتها ، ومنها ما يتصل بمزاج زوجها الراغب في الخروج الدائم الانطلاق إلى أصدقائه بداع وبغير داع ، الذي يأتي كما تقول النساء على النوم متهالكًا ، يتجه إلى فراشه مهدود القوى - ويترتب على ذلك أنه لا يكلمها ، وقلما يعاشرها معاشرة الأزواج ؛ لذلك فهي مخنوقة تطوي الضلوع على ألم ، وقد يأبى أن تنام إلى جواره ؛ لأن النوم راحة ، ومن الراحة ألا ينازعه أحد فراشه ولا غطاءه ، وقد تكون ذات عادة في نومها ؛ كأن تضربه بساقها ، أو تدكه بذراعها أو تطبق عليه كأنها جمل ، فلا طاقة له بدفعها، وما الحامل على ذلك والأسِرَّة كثيرة والحمد الله ؟! لها عنده لقاء كل أسبوع أو كل شهر ، وبعده يفترقان كل في سريره ، وينتهي الأمر ، وأية مناقشة في هذا الأمر مرفوضة، وأية محاولة مكتوب عليها الفشل فلا داعي إلى أي كلام ، وهي عيشة والسلام .

فمما يتصل بالبيت، أن يكون نظيفًا مرتبًا ، والدين كله قائم على الطهارة والنظام ، أمر ربنا - تعالى - رسوله وأتباعه بقوله : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4] ولا يعقل أن تكون الثياب طاهرة في بيت غير نظيف ، وطهارة الثوب في العرف اللغوي تعني طهارة

العرض والشرف مما يشين ؛ فالطهارة بنوعيها الحسي والمعنوي مطلوبة ، أمر بها الحق في علاه ، والنظام في حركة الكون دليل القدرة الإلهية والتوحيد ، والعبادات في الإسلام منظمة بوقتها وهيئتها ، ولا مزايدة ولطالما سمعنا مقولة « البيت يضرب يقلب » ومعنى البيت يضرب يقلب كناية عن عدم ترتيبه وعدم انتظامه على المعهود في البيوت الجميلة ، أن كل شيء في مكانه ، وكل قطعة من الأثاث في موضعها .

وبعض الناس يتجاوز عن هذا ، ويرحم المرأة ناظرًا إلى الأسباب التي قد تكون خارجة عن إرادتها ، وفي الغالب يتسبب الأطفال في ذلك ، فالزوجة غير مقصرة ، ولكن أطفالها عفاريت ، لا يرتاحون إلّا إذا نقلوا وبدلوا وغيروا ، وجمعوا وفرقوا وهذا ليس عذرًا معتبرًا ؛ لأن من أساسيات التربية أن ينشأ الطفل على النظافة والنظام ، وأذكر أن أمًّا شابة كانت على سفر ومعها طفلة رضيعة ، فقيل لها : قد تحتاجين إلى غيار في الطريق للطفلة فقالت : لا ، قيل : كيف ؟ قالت : لن يكون منها شيء إلّا بعد ثلاث ساعات ومدة الطريق الزمنية ساعة واحدة وقد كان ، عرفت بالضبط متى تحتاج طفلتها إلى غيار فلما سئلت : كيف تضبطين ذلك ؟ أجابت عن طريق الرضعات .

وهناك أم كلما صرخ طفلها أو طفلتها ناولته ثديها ورحم الله ابن الجوزي ، كان يقول : إن الطفل الرضيع لا يبكي إلّا إذا أحس بالجوع أو كان به مرض ، لكن هذا الصنف من النساء لا يرين إلّا الجوع سببًا للصراخ فدائمًا يعطينه الثدي ، وقد يكون هناك سبب لبكاء الطفل لم يذكره ابن الجوزي كأن يكون غير نظيف ، المهم أن لبكائه وصراخه سببًا أي سبب ، وليس بالضرورة أن يكون الجوع وحده كل الأسباب كما أنه ليس بالضرورة أن يكون تغير الرجل لأن امرأة جديدة في حياته فعلى الزوجة أن تعد بيتها إعدادًا طيبًا ، وأن تتعهده بالنظافة حتى يطيب لها قبل أن يطيب لزوجها ، وقد يكون الأثاث غاليًا ونظيفًا ، وجميلًا ، ولكن تحته غبار ، أو بين قطعه بقايا يلحظها الزوج فيدرك أن زوجته غير مهتمة.

إدخال مَنْ لا يحب

في خطبة الوداع حيث لخصت كلمة النبي - ﷺ - الدين ؛ حيث أوصى بتقوى الله - عز وجل - وبيَّن حرمة الدماء والأموال والأعراض ، ونهى عن رجوعنا بعده كفارًا يضرب بعضنا رقاب بعض ، ووصى - ﷺ - بالنساء ، وقال فإنهن عوان عندنا ، وبيَّن أن حق الرجل على المرأة ألا توطئ فراشه أحدًا هو له كاره ، ومعناه ألا يدخل الرجل فيكتشف وجود جارة ثرثارة ، أو جملة من الجارات اتخذن بيته مستراحًا ومرتعًا ، ومجلس نميمة ، أو أحدًا من أقاربه أو أقاربها ؛ فإنّ ذلك يجعل صاحب البيت غير مستريح في بيته والأصل أن يجد رب البيت راحته الكاملة في بيته ، ولن تتسنى له الراحة وهو كاظم غيظه ، يقوم على مضض ويرحب على غير رغبة .

وقد يكون له وجه في بغضه من يكره وجوده في بيته كما أشرت بأن يكون ثرثارًا ، أو يكون قد اتخذ بيته مستراحًا وفندقًا وما زلنا نعاني هذا السلوك من كثير من الناس الذين تراهم في بيوتهم على أرقى مستوى من المحافظة على الهدوء والنظام ، فإذا زاروك في بيتك وجدتهم كأنهم أناس آخرون ، لا يعرفون هدوءًا ، ولا يبقون على نظام ، يطلقون الضحكات فيزعجون الجيران ، وكأنهم يجلسون في مقهى شعبي ، يصيحون كلما دخلت الكرة في الشبكة . فضلًا عن الخبط والرزع لا الزرع ، وضرب قطع الضمنة والشطرنج بعنف ، ضحكات بلا داع ، وتعليقات سخيفة ، ونكت قديمة ، وأشياء مزعجة مزعجة .

والزوجة تعلل ذلك بأن القادم إنما قدم على غير موعد واتصال ، فماذا كان بوسعها أن تفعل وهم وقوف على الباب ، إنهم أحرجوها ، والزوج يعلم أنهم قد اتصلوا وهي رحبت بهم واستقبلتهم ، والدليل على ذلك أنها كانت في قمة الانسجام معهم ، تضحك وتثير فيهم الضحك ؛ فلو كانت صادقة لما كانت معهم على تلك الحالة من السعادة والتبسيط ، هذا زعم الزوج وهو صادق فيما يزعمه ؛ لأن للمضطر علامته ولمن كان في سعة علامته كذلك ، وليس من علامة اضطرارها إلى استقبالهم أن تكون أكرم ما تكون معهم ، وتعلل ذلك قائلة : إن الذوق يقتضي ذلك ، أتريدني أن أكون مثل حجر في زاوية ،

ومن جاء بيتك فقد جعل الحق عليك فأي حق عليه سوى أن يحسن استقبال من جاءه وأن يقدم إليه القِرَى ، وأن ينظر في حاجته إن كانت له حاجة ثم ينصرف .

لكن الذي يحدث مع هؤلاء أن البيت (يضرب يقلب) . وقد شكا أحد الأزواج فقال : أتيت إلى بيتي فإذا بي أشعر أن هذا بيت غريب غير بيتي الذي بنيته بيدي ، كل شيء فيه مقلوب ، والأواني والأدوات كلها مقلوبة ، وبعد أن انصرف الضيوف الكرام الذين هم بالطبع غير كرام طلبت مني زوجتي أن أساعدها في إعادة ترتيب البيت فقلت : على جثتي ، فأخذت تعيد كل شيء في مكانه . وترتب البيت وهي مجهودة ، ثم نامت آخر الأمر كالخرقة البالية ، أخذت أسأل نفسي : ما هذا ؟ وأين زوجتي ، وكيف أقضي ليلتي ومع مَنْ ، إن الضرب في الميت حرام ، وهي إلى جواري ميتة ، فماذا أفعل وبرغم ما كان من صنوف الطعام والشراب إلّا أنني بت ليلتي جائعًا على ظمأ ، صحيح أنني تناولت منهم بعض اللقيمات ، ولكنهم حين انصرفوا شعرت بجوع غريب كأنني لم آكل لقمة واحدة منذ أيام ، وكأنهم أخذوا معهم ما وضعته في بطني ، وشعرت بأنني لم أكف عن تناول الطعام معهم لأنني شبعت ، ولكنني كففت عن تناول الطعام لأنني انتفخت ، وهناك فرق بين الامتلاء بسبب الشبع وبين الانتفاخ بسبب الغيظ ، قمت أتحسس من شيء في بقاياهم لكن أبت نفسي ذلك ، فلجأت إلى الله ربي أن يرحمني بنوم أنسى فيه الذي حدث .

وأنا رجل لست بخيلًا ، وإنما أحب النظام والهدوء أريد بيتي ملكية خاصة ، وأريد زائري أن يكون مؤدبًا مثلما أكون أنا مؤدبًا إن زرته في بيته ، وألا يطيل بقاءه عندي فساعات الإقامة في البيت معدودة ، وهي قصيرة ، فأنا أعود لأتناول غذائي ، ثم أنام قليلًا ، ثم أصحو فأصلي ، وأشرب شايًا أو قهوة ، ثم أقوم ببعض الأعمال الخاصة التي

أزيد بها دخلي ، ثم أنام بعد عشاء خفيف ، وأيُّ خلل في هذا النظام يؤرقني ويتعب أعصابي ، ويجلب إليَّ الهمَّ والكدر فلا أدري أين أنا الساعة ؟ وما الذي عملت وما الذي لم أعمل وكيف أعوض هذا الوقت الذي ضاع ، لست أدري ، هل أنام وقد مضى وقت النوم؟! وهل أعمل ما اعتدت عليه وكيف أعمل وأنا موصول الجهد لم أنل قسطًا من الراحة ؟!.. كل شيء أصبح مضطربًا ، وأنا لا أطلب المستحيل من زوجتي ، إنما أطلب منها أن تُفهِم الأحبة أن لقاءنا يكون يوم إجازتي ، لكن كيف تُلَبِّي وهي تريد يوم الإجازة يوم نزهة وزيارة لأهلها ؟!.. فهل من أجل ذلك ترحب بهم في الأيام العادية التي تعلم أنني لا أجد فيها فرصة لاستقبال أحد ، خصوصًا مَنْ كان على هذه الشاكلة المؤرقة ؟! فأين السكن؟!

لا مكان لي في بيتي

من العادات السيئة التي تُذهب ببهجة السكن في البيوت أنْ ينادي الداني والقاصي ، وأن تتم « التبييتة والتربيطة » على أنه منذ الصباح الباكر الجميع عند فلانة ، وكأن غدًا يوم عيد ، أو سبوع مولود ، أو مناسبة ، ومن غير مناسبة تتجه الرِّكابُ إلى بيت فلانة الذي هو ليس قصرًا واسعًا ، ولا دارًا فسيحة من دور الفلاحين ، صحب هذا الجمع المحشود معه الأطفال وربما بعض الجيران ، حتى ضاق المكان ، وعاد الزوج من عمله فوجد غزوًا عسكريًّا في بيته ، وأخذت هذه تسلم عليه وتقول :

- سلم على فلان ، هذه أم فلان ، جارتنا ، ونعمت الجارة أصرت على المجيء إلى هنا للسلام على المدام وعليك، فنحن من كثرة شكرنا فيك تمنت أن تراك وتسلم عليك .

- أهلًا وسهلًا ، أهلًا وسهلًا .

- نسيت تسلم على فلانة بنتي ، قربي يا هالة ، سلمي على عمو !

- أهلًا يا عمو !

- أهلًا يا هالة ، أين خالتك يا هالة ؟

يأتيه صوت خافت من بين الزحام قادم من المطبخ :

- أنا هنا .. هنا في المطبخ ، حمدًا لله على السلامة .

يقول : أين السلامة ؟! اقترب من حجرة النوم ، فسبقته إحداهن توقظ أمها ، وتحمل طفلها ، وتقول :

- اتفضل اتفضل يا اخويه ، دي ماما بس مريحة شوية وقلت الواد ينام جنب سته إلى أن نفرغ من المحشي.. آسفون آسفون ، أزعجناكم .

- لا .. لا أسف ولا حاجة .

يتجه إلى الحمام ، فيجده عامرًا ، وأخرى تدق بابه قائلة :

أنا لا أعرف ماذا تفعل هذه الشقية في الحمام ، أعوذ بالله خلصي ، عمو عايز الحمام .

وفي الحقيقة (عمو) عايز البيت كله ، وهو لا يجد شيئًا في البيت ، إنما هو حجرتان ، وحمام ومطبخ ، والغزو العسكري قد حشد جنوده في كل مكان حتى في البلكونة الضيقة المتنفس الوحيد له ولأسرته الصغيرة ، لم يجد له مكانًا في بيته ، فأين يذهب ؟ وإلى أين يتجه ؟ كيف ينام ساعتين ؟ وأين يجلس أصلًا بين هذا الزحام ؟ و صياح الأطفال ؟ وموضوعات متشابكة رغم اختلاف مضامينها ؟ قال في نفسه وأسر بذلك إلى زوجه قائلًا لها :

- لو أن أمك جاءت في يوم ، وخالتك جاءت في يوم آخر ، وأختك جاءت وأولادها في يوم ثالث لكان أرحم بنا ، فقالت له :

- كيف أقول لهم ذلك ؟! إنهم يظنون بذلك أنني لا أرغب فيهم ، وقد يشعرون بأنك يضايقك وجودهم ، وأخذت تريه ما جاءوا به ، قالت : لقد أتوا إلينا بالخيرات ،

انظر هذا الذي جاءت به ماما ، وهذا الثوب من أختي ، وهذا من فلانة ، وفلانة تعرف أنني أحب هذا الصنف من الحلوى من محل كذا فاشترته من أجلي ، قال لها : كل ذلك جميل ونحن والحمد لله لسنا في حاجة إليه ، إنما نحن في حاجة إلى بيتنا الهادئ قالت : هل تراهم هنا كل يوم ، دا فين وفين لمّا يبجوا.

قال : نشدتك الله ، ألم يكونوا هنا منذ ثلاثة ؟! فمتى يهدأ البيت ويسترد هدوءه؟! إنهم سوف يقبلون من جديد.. وهذه ليست عيشة ، فما كان منها إلّا أن قالت : إذًا أجمع ثيابي وأذهب أنا إليهم !

عندما يصبح الليل نهارًا

مما منَّ الله - عز وجل - به علينا أن جعل لنا الليل سكنًا ، أي نسكن فيه في بيوتنا فننام ؛ لنستعد بنشاط جديد إلى عمل جديد ، ويوم جديد ينظر فيه الناس كيف نعمل ، وماذا نقدم ، الليل في ذاته سكن ، وقد يضطر بعض الناس فيه إلى الحركة . ثبت أن النبي - ﷺ - كان يسير بالجيش بالليل ، ويسكن بالنهار ؛ لأن الغزو يقتضيه فالليل ساتر ، ومن التخطيط أن تفاجئ عدوك ، لا أن تظهر لعيونه فيباغتك . وقد يكون أمام المرء فسحة بالنهار فيقوم الليل يصلي يَرُومُ الآخرة ويرجو رحمة ربه .

والله - عز وجل - يقول : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة : 187] . وذلك في رمضان ؛ حيث إن نهاره نهار صائم ، يمسك فيه المسلمون عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ومن رحمة الله - تعالى - أن جعل ليله فيه اتساع لمعاشرة الصائم أهله ، ولتناول الطعام والشراب حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، أما في غير رمضان ، فالرجل يعاشر أهله المعاشرة الزوجية بالليل أو النهار فلا حرج ، ولكن المعاشرة كما قال العلماء - والناس معهم - تكون بالليل أكثر .

وقد روى البخاري في صحيحه عن النبي - ﷺ - أنه قال: « لَا يَحِلُّ لِـمُؤْمِنَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » ، أي لا يحل لزوجة مؤمنة أن تصوم صيام نافلة كالاثنين والخميس وغيرهما وزوجها حاضر غير مسافر إلّا بإذنه ؛ لأنه قد يحتاج إليها بالنهار ، فماذا يفعل وهي صائمة ؟ لذلك كانت تلبيتها رغبة زوجها أهم من صيام النافلة شرعًا ، أما إذا كان مسافرًا فتصوم ما شاء لها أن تصوم ، وقد يكون صيامها خيرًا لها في ذلك الظرف ، الذي فيه غاب عنها زوجها ؛ فلليل شأن أي شأن في سكن البدن والنفس ، والمعاشرة الزوجية تعين على ذلك السكون لكن بعض الزوجات اللاتي يستيقظن من النوم قبيل عودة أزواجهن من أعمالهم ، أي عند العصر أو قبيل المغرب لا ينمن بالليل ، خصوصًا مَنْ كانت منهن مدمنة لمشاهدة عشرات القنوات ومتابعة البرامج والمسلسلات وغير ذلك ، فهي تصنع الشاي اللذيذ ، وتطرح نفسها أمامه على الفوتيه (الكرسي) وفي يدها الريموت كنترول ، وهات يا تقليب ، والزوج يريد أن ينام ، وهي تقول له : ماذا تريد ؟ حجرتك نظيفة ، وسوف أخفض صوت التلفاز ولن أسبب لك إزعاجًا ، نومًا سعيدًا وأحلامًا طيبة ، وتصبح على ألف خير .

قال لي : كنت أناديها وأنا أستعد للنوم حتى تفهم أني أريدها ، وأن لي رغبة في معاشرتها فتأتي وكأنها قادمة من الروم سيرفيس (حجرة الخدمة بالفنادق) وتقف على الباب قائلة :

- أتريد شيئًا ؟

وكنت أقول لها وقد انطفأت الرغبة عندي:

- لا شيء !

فتقول :

- فلماذا تناديني ؟

فأرد عليها وقد ماتت الرغبة : يخيل إليك أني ناديت ، أنا لم أناد أحدًا ..!

وقال لي آخر إن زوجته على هذا السلوك ، تتركه ينام وتجلس هي أمام التلفاز تقلب في القنوات ، وحين أستغرق في النوم أجدها إلى جواري توقظني قائلة : ليس في أي قناة الليلة شيء يجذب الانتباه ويدعو إلى المشاهدة قم .. قم .. لا نوم في عيني ، وتشعرني بأن لها رغبة في معاشرتي فأقول :

– واللي خلق الخلق ما قايم ، نامي ، اعملي معروفًا. إنني أشعر أنها لم تجد وسيلة تسلية في مثل هذه الليلة غيري ، وأنا لست مستعدًّا أن أكون البديل الذي تجده في الوقت الذي تريد ، لقد ناشدتها أول الليل ، وما كان منها إلّا حاضر .. حاضر ، وما حضرت وما استجابت ، فنمت مفوضًا أمري إلى الله ، فلما جاءها مزاجها توقظني من أحلى نومة ، والله لن يكون !

ومن الزوجات من تظل الليل إلى جوار طفلها أو طفلتها غير سائلة عن الزوج ، إن ناداها قالت العبارة المعهودة :

– واللي صاحي زي القرد ده أعمل فيه إيه ؟

علة هي التي صنعتها بيدها ؛ لأن الطفل عودته أن ينام معها ، فهو ينام إذا نامت ، ويسهر معها إذا سهرت فقد نال حظه من النوم ، فمن ينيمه ؟ أقسم بالله أحد الرجال أنه اشترى منومًا لطفله ، فلما قلت له : هذا خطر عليه ، قال لي : منها لله مَنْ كانت السبب ، فماذا أفعل أنا وهو واقف لي كاللقمة في الزور ، أو كأنه عسكري مرور ، واقف خدمة إجبارية !.. ولو انتظرت حتى ينام لنمت أنا قبله فأنا رجل مهدود الحيل ، ولو أن زوجتي أنامته قبيل وصولي لكان خيرًا لنا جميعًا ، والله يغفر لي . هذه مهمات ينبغي أن تنتبه لها الأمهات الصغيرات، وألّا ينسين أنهن زوجات، وأن البيت سكن .

والمرأة كذلك تحتاج إلى سكن

ومن الإنصاف أن نقول : والمرأة كذلك تحتاج إلى سكن ؛ فمن الرجال من يسيطر على البيت كأنه حاكم عسكري في كتيبة ، يأمر ، وينهى ويرفع صوته ، ويثير الرعب في كل

مكان فيه ، ولا ينقص من في البيت كي يكونوا جنودًا تحت قيادته إلّا صفا وانتباه ، أما الخدمة فعلى مدار الأربع والعشرين ساعة .

وكل امرأة تتمنى أن يخرج زوجها من بيتها إلى أحد أقاربه أو حتى يجلس في ناد ، أو في مكان إنما تطلب أن ينزاح من على صدرها هَمّ ، فهو كابوس يخيم فوق ضلوعها ، ومن الأولاد مَنْ تراه يلعب ويمرح ، ويقول ويسمع ، فإذا أحس بدبيب خطو أبيه لاذ إلى فراشه ، وقال إذا سأل عني فأنا نائم ، ويدعي النوم وما هو بنائم ، إنه لا يحب أباه ، ولا يحب طريقته في الحياة ، إنه كان على راحته في غيابه ، أما وقد حضر فلا راحة له إلّا في البعد عنه ، فليست الزوجة وحدها مَنْ تعاني قسوة وجود الزوج ، إنما الأولاد أيضًا يعانون .

وقد تكون الزوجة صابرة ، وتأمر أولادها أن يطيعوا أباهم ؛ لأنه حريص على مصلحتهم وما ينفعهم ، بشتى الطرق تصنع ذلك لأنها تعلم أنهم ليسوا في غنى عنه ، وهم في الأول والآخر أبناؤه ، وهي تريدهم أبناء صالحين بررة بأبيهم حتى لا تكون سببًا في عقوقهم ، وتحاول أن تنصح له بأن يلين لهم ، وأن يرفق بهم ، وأن يعطف عليهم ، ولكنه يتذكر كيف كان يعامله أبوه ، يقول : أنا بالنسبة إلى تربيتي التي نشأت عليها أعتبر نفسي مفرطًا في حقهم ، لا بد أن يكونوا ويكونوا ويكونوا . صابرة على زوج لا أقول إنه لا يُعاشَر ، ولكن أقول إنه لا يستطيع أحد أن يسكن إلى جواره ، ومن قديم عرفت العرب الزوجة على أنها جارة ؛ فمع السكن والمودة والرحمة هناك جوار ، وأكرم به من جوار إذا كان على حسن ، وما أشقى جار السوء ، وإذا كان جار السوء يمكن اجتنابه بغلق الباب إلى حين ، وسد المنافذ التي يأتي منها أذاه إلى أن يتم صلح وإصلاح أو رحيل أو موت ، فكيف يمكن ذلك مع الزوجين ؟!

نعم هناك باب يسد بين زوجين بينهما شقاق ؛ هذا الباب لا تراه العين ؛ لأنه باب القلب والوجدان والعواطف والمشاعر ، سده الجفاء ، وأغلقته القسوة ، صحيح أنك

تراهما متجاورين ليس بينهما كما تصور لك عينك من حجاب ، وفي الواقع بينها حجب ومسافات وبلاد وأوطان وصحاري واسعة .

هناك من يكدر الصفو ، ويؤلب المواجع ويثير الغيظ ، ويفعل أفعالًا منكرة ، إلى درجة أن صاحبته تطلق عليه « شاذ » .

هل يتصور عاقل سويّ أن الزوج السويّ لا يعرف طريق البيان واللسان وإنما بيانه العصا ، ولسانه يده يضرب زوجته لأدنى ملابسة ، وهو مع ذلك يأتي بالليل يريد أن يحملها على الاستجابة معه ، ويود مضاجعتها على أكمل وجه ؟!

وقد نهى النبي - ﷺ - عن ذلك. من أجل هذا ، نهى عن ضرب الرجل زوجته كما يضرب عبده ، فلعله بالليل يريد أن يجامعها ، أي لن يكون مستمتعًا بها على الوجه الأكمل من المتعة . فكيف يتسنى له ذلك ؟! وهي ليست من حجارة ، وإنما هي لحم ودم ومشاعر ، أما وقد كسر العظم ، ومع كسر العظم تكسرت ما بين الضلوع من عواطف . والإسلام حريص على صون كرامة الإنسان من أجل ما تنبته هذه الكرامة المصونة من عطاء وحياة وإبداع ، هيهات أن تمسك بشاعر تعلقه مكبولًا مكبلًا في الأغلال ، وتهوي عليه بالسياط وتطلب منه في هذه الحالة أن يقول لك قصيدة شعر في حبك وهواك وشخصيتك الكريمة ونبل صفاتك ، أو أن يصف لك الربيع !

إنه بالإمكان أن يبدع في هذه الحالة السيئة بأن يصف قساوتك وفظاظة قلبك وعنفك وجحودك ، وأن يصف لك الموت في ظل وصفه للخريف ، فإن كنت مصرًا على أنه لا بد أن يصف لك ما تريد فعل من أجل إنجاز شيء هو منقذه ، فخرجت كلماته ميتة وصورته الفنية - إن وجدت - في ثوب الكفن ، ولو كان على غير هذه الحال في ظل كرمك وطيب عنصرك ، وأصالة معدنك لأبدع ولأتاك بآيات الإبداع لفظًا يرفل في زينة البديع ، ويتبختر في ربيع المعاني ، ويتلألأ في وَشْي البيان .

وهكذا الزوجة إن أسأت معاملتها وجرحت كيانها وألهبت كبدها ، وحملتها على المعاشرة الزوجية كانت مجرد جسد ، إن تحركت فكالصخرة تحركها الريح العاتية ، وإن

نطقت فإنما هي صوت أنت تنكره ، إن كنت ممن يميزون بين المعروف والمنكر ، أما إذا أحسنت إليها وكنت كما كان أو زرع لأم زرع فسوف تجني من ذلك العسل ، وأنت بلا شك تحب العسل !

رفاق السوء

تحدثت عن البيت الذي لم يجد فيه الرجل مكانًا يضع جنبه ؛ ليستريح قليلًا من عناء يوم عمل شاق ، كما تحدثت عن المرأة التي ضغطها زوجها برائحته السيئة وأخلاقه الأسوأ ، وقد روي أن رجلًا خطب امرأة فأجابته ، أي لبت واستجابت ووافقت ، فقال لها : إني سيِّئ الخلق ؛ فقالت له : أسوأ منك من يحملك على سوء الخلق ، إنها عرفت أن من سوء الخلق ما له سبب ، وكانت على يقين أنها لن تكون هذا السبب الذي يدفع به إلى أن يكون سيِّئ الخلق .

وقد يسأل سائل فيقول : وكيف عرفت أن سوء خلق زوجها مما يكون له سبب ، أليس من المحتمل أن يكون ذلك سجية فيه ، وأن تكون كغيرها من العجز الذي لا تستطيع معه أن تغير من هذا الخلق ؟

والجواب : أنها بلا شك عرفت ذلك عندما خطبها ؛ إذ كان شخصية سوية ، يقول العبارة المرضية ، والكلمة الطيبة ، ويتصرف تصرف النبلاء ، يقابل ودًّا بود ، وتحية بتحية.. وهدوءًا بهدوء ، ونبرة محبة برقة تقبُّل ، فإذا كان كذلك ويقول : أنا سيِّئ الخلق فلا شك أنه تعتريه أحوال سيئة يكون فيها سيِّئ الخلق ، ولن يتأتى هذا السوء منه إلّا إذا رأى شيئًا ، ولقي سوءًا ، وكانت هي على ثقة بنفسها أنها لن تحمله على خلق سيئ ، مثال ذلك أنك ترى الناس صنفين :

الأول : يقابل الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة .

والثاني : يقابل الحسنة بالسيئة والسيئة بالأسوأ .

وهناك صنف ثالث يقابل الحسنة بالحسنة والسيئة بالحسنة وهذا معروف ، وهو متى يُذْكَرْ يُشْكَرْ ، لكن نحن نظن أنَّ الصنف الذي يقابل السيئة بالسيئة إذا أردناه ، وعزمنا على معاشرته ونحن ننوي إصلاحه ؛ إذ ليس من إصلاحه مفر فنحن معه في مركب واحد، حرصنا كل الحرص عل ألا نعامله بالسيئة حتى لا يردها إلينا سيئة ، ألست ترى أن الأم تعرف طبيعة طفلها ، وأنه إذا طلب شيئًا فمنعته صاح وفضح الدنيا . إننا نراها إذا ذهبت به إلى مكان ، وكانت حريصة على ألا يفضح الدنيا أمام الناس سكتته بأن تعطيه ما يريد ، وقد رُوي أن النبي - ﷺ - قال :« اقطعوا عني لسانه » ، يقصد الأقرع بن حابس الذي استقل ما أخذ من الغنائم فلما أتموها له مائة ناقة رضي وسكت ، ولسانه سوف يكون شِعرًا سيئًا، فأمر النبي - ﷺ - بإعطائه حظًّا أوفر ؛ ليقطع به لسانه ، وهو - ﷺ - على يقين أن الإسلام سوف يغمر قلبه ، وسوف يقنع به ولا يرضى به الدنيا جميعًا .

والطفل لن يكبر على هذه العادة السيئة ، وإنما تعالجه أمه شيئًا فشيئًا ، حتى ينضج ويدرك أنه ليس من الأدب أن يصيح إن لم تلبِّ طلباته ، وهكذا فهمت الخطيبة ، فهمت أنها قادرة على أن تحفظ عليه ما عرفته فيه ، وما رأته منه ساعة خطبها ، وتودد إليها ، وتقرَّب .

لكن من الناس من لا يقول إنه سيئ الخلق ، إنهم عند الخِطبة - بكسر الخاء - يقولون ما فيهم من حسن وما ليس فيهم وأنهم ورثوا مكارم الأخلاق كابرًا عن كابر ، فترى مَن يتحدث عن أسرته من أول الآباء الأولين ، وأنه من سلالة المجد القديم ، والحضارة العريقة ، وأن جدته لأمه من عائلة تركية ، وأنها نزحت إلى مصر ، وكانت صبية في ذراع والدها صاحب الأراضي الزراعية والممتلكات الكثيرة ، رباها على الغالي فربت أمه كذلك، وربته أمه على الشموخ والكرم ، ورباه جده على حب الخيل وركوبها فكان فارسًا وهو دون العاشرة ، وتخرج في أرقى الجامعات ، وحصل على عالي الشهادات ، وأنه وأنه وأنه ، فإذا به بعد الزواج ينطق حاله بعكس ما نطق به لسانه وإذا

به رفيق رفقة سيئة ، تبالغ في المضايقات ، فيأتي بهم إلى بيته دون أن يراعي حرمته ولا حرمة زوجته التي أنزلها منزلة الخادمة ، فهي تلبي طلبات كل رفيق ، هذا يريد أن يشرب شايا ، وهذا يريد أن يشرب قهوة ، ويستأذن في دخول المطبخ ؛ لأنه لا يشربها إلّا من صنع يده هو ، فهو الوحيد الذي يتقن صنعها ويحبك سكرها ، ويصبر عليها حتى تستوي على نار هادئة ، ويقول له الزوج :

- بيتك بيتك ياريس ، تفضل ، وعلِّم المدام ، هي مثل أختك ، على فكرة ، المدام لهلوبة ، وتتعلم بسرعة عجيبة وتستحي البنت ، وتدخل بصحبة مارق آبق ، يعبث في أدوات مطبخها ، ويشرح لها كيف يصنع فنجان قهوة ولا ترى زيادة على ما تصنع هي ولا ما يصنع (عم مدبولي) في المقهى الذي تحت بيتهم ، ولكنها السخافة والاستظراف وسوء الأدب ، يجترئ عليها هذا ، ويغازلها ذلك ويطمع في شرفها ذا ، كل هذا وزوجها لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم سوى كلمة واحدة : هذا بيتي ، وأنا حر ، وهؤلاء هم أصحابي .

واحدة يأتي بها كخادمة لأعضاء جماعته الصوفية ، وواحدة يأتي بها مثل هذا كخادمة لشلة فاسدة ، يتهمها دونهم بسوء الخلق والعصيان ، فهل تحقق في البيت السكن للمرأة ؟ إننا دائمًا نأتي على المرأة نظلمها حين نلقي على عاتقها وحدها مسئولية السكن ولا نهتم بها كائنًا حيًّا يريد أن يستمتع ببيته وزوجه ، وأن يكون بيته غير مقتحم من كل مَنْ هب ودب تحت شعار أن الرجل هو رب البيت ، وأنه وحده الحر يفعل فيه ما يشاء !

أثاث أكل عليه الدهر وشرب

أعلم أنَّ كوخًا صغيرًا على شاطئ ترعة ضيقة الملاقي قد تسكن إليه النفس وتهدأ أكثر من سكونها وهدوئها إلى قصر منيف على شاطئ نهر واسع ؛ ولا أنكر أن السبب وراء

ذلك قد يكون فيمن يسكن الكوخ ومن يسكن القصر ، وما زلت أذكر في ضوء ذلك قول الشاعرة :

وَبَيْتٍ تَخْفِقُ الأَرْوَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مَنِيفِ

فما غاب عني هذا المعنى ؛ لأنها فسرت ذلك بقولها :

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَينِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبسِ الشُّفُوفِ

فالشاهد في قولها : « وتقر عيني » ومعناه : تسعد ؛ فقُرَّةُ العين تعني السعادة .

ولا بد أن يكون سؤال ، وهو : ما الذي يسعدها ؟

والجواب أن لها في بيئتها أشياء تعودتها ، وأحبتها أو أحبت الحياة بواسطتها ، فتعلقت بها ، فهي ابنة بيئة صحراوية كل شيء فيها طلق ، فلما تزوجها صاحب القصر ، وأتى إليها بالوصيفات ، ضيق عليها قصره فضاءها العريض فأحست بأنها في سجن ، وخنقها حريره ، وهي التي تعودت لبس العباءة الواسعة ، ونأى بها عن أصوات الكلاب التي كانت تراها تنبح الأعداء عنها ، وأتى بها إلى أصوات البلابل والعصافير المحبوسة في القفص كصدرها المحبوس في الدنيا الواسعة ، وقد يكون لها بلا شك حبيب درج عليها ودرجت عليه ، يتحدث بلغة ما مشتركة بينهما حتى في الصمت ، فهو الآن يناديها بأصوات الذكريات ، ويذكرها بمعاني اللغات ، ويقول لها : هيهات لفراقك هيهات ، ومن ثم طلقها الأمير ، وعادت من حيث أتت فردت إليها روحها ، وعادت إليها الحياة ، ولعلي أريد أن أبين شيئًا يجمع بين أسباب السعادة والإحساس بها ؛ فقد تتوفر أسباب السعادة في القصر ، والنفس في شقاء ، فإن قال قائل : كيف تتوفر أسباب السعادة والنفس في شقاء أليس في ذلك تناقض ؟!

والجواب : أن أحدنا قد يطلق على ما يراه من بيت فسيح وأثاث جميل ، وعيش رغد : أسباب السعادة ، بينما يرى غيره أن ذلك ليس بشيء ؛ فاختلاف وجهات النظر هي التي تزيل ما يشبه التناقض ، وما حدث للمرأة القديمة التي آثرت لبس العباءة على لبس الشفوف ، والعيش في بيت تخفق الرياح فيه على العيش في قصر منيف ؛ حدث كذلك

للفتاة القروية التي تزوجت في العاصمة ، وقالت لها البنات إن حظك من السماء ، أنت السيدة فينا ، فهنيئًا لك العيش في القاهرة ، حيث الماء العذب ، والطعام الجيد والكهرباء ، والنظافة والحضارة ، لقد رحمك الله من عذاب مثيلاتك ، شقاء بالنهار أنت تعرفينه ، وهمٌّ بالليل كنتِ مثلنا تعانينه ، الآن أصبح لك ماضيًا .

صحيح أنها ضحكت واستبشرت ، وأحبت أن تسمع المزيد ، ولم يكن أحد يدري ما الذي بخلدها يدور ، ولا حتى هي كانت تدري إلّا عن طريق شعور بعيد كالشعاع الخافت من الضوء الذي ما يظهر حتى يختفي ، إنها كانت تشعر بحاجتها إلى المزيد من هذا الكلام من باب العزاء والتقوية ، نعم كانت تريد من داخلها أن تقنع نفسها بهذا الذي يَقُلْنَ ، هل هو صحيح أم أنه وهم ؟ وقد كان ؛ تزوجت ثم عادت مصرة على الطلاق ، وقالت : جهنم بلدي ولا جنة القاهرة . إنها العادة ، ومن العادة الطيبة أن يكون البيت مؤثثًا أثاثًا تستريح إليه النفس ، وبعض الناس لا يهتم بهذه الناحية ، فترى عنده من الأثاث ما أكل الدهر عليه وشرب ، وهو قادر على تغييره ، أو تبديله ، أو تجديده . كيف يتسنى لرجل أن يستمتع بزوجته وقد صرح لها بأنه لن ينجد هذه المرتبة التي دخل عليها يوم أن كان عريسًا ومرت على ذلك سنوات ، والسفرة أصبحت ناقصة رِجلًا فهي عرجاء ، والمقاعد كذلك بالية ، حتى الأواني في المطبخ فاضطرت إلى أن تدخل جمعية مع صواحبها وجاراتها من أجل هذا الغرض .

وما إن تسلمت الزوجة الجمعية حتى قبضها هو ، وأنفقها في شيء آخر ، بكت ، صرخت ، قالت ، وتوسلت ، ولكن دون جدوى ، فسكبت الزفرات وملأت كل ركن من أركان البيت أسًى .

وهناك العكس ، هناك رجل حريص على أن يجدد كل شيء ، وهو قادر على ذلك ، لكن زوجته تقول :

هذا جميل ، فيرى أن البيت بيتها ، وأنها (مش وش نعمة) وهذه عبارة قاسية ، ولكن هكذا يقول الناس ، هذا يتصرف تصرف من يستحق أن تقال فيه هذه العبارة ، وذلك يطلقها عليه ، ويكتفي بإطلاقها ، وينتهي الأمر عند « ويبقى الحال على ما هو

عليه» فلا جديد ولا جميل ، ولكن أجساد تُلْقَى على أي شيء ، وتمضي الحياة على كآبة ، فهل خُلقنا لنعيشها على كآبة ، أم أنه بأيدينا أن نجدد وأن نضع شيئًا في مكان شيء آخر ، كلما بدت لنا رتابة لأن التغيير مهم مطلوب ؟! ومن الأشياء ما يجب تثبيته في مكانه وأهم ما ينبغي أن يثبت في مكانه الوفاق حتى نعيش بلا شقاق !

عادات سيئة

السكن راحة ، والراحة كما تتحقق في البيت الواسع ، ومع الصدور الواسعة التي يسكن إليها الإنسان قبل أن يسكن إلى المكان تتحقق كذلك بالهدوء ، والرائحة الطيبة ، والصوت الندي ، يقول أحد الأساتذة ، واسمه إبراهيم ، وكان يعمل مدرسًا ، كنت بين أوراق التصحيح ، أو بين بعض المصادر ، أو أمام سجل تحضير الدروس أعيش مع الموضوع ، سواء أكان جواب تلميذ أراجعه ، أم كان درس علم أستذكره ، وقد أبحث عن كلمة في معجم من المعاجم ، أو غير ذلك ، وفجأة أسمع صوت زوجتي العالي يناديني :

- الحق يا إبراهيم .

فأتجه نحوها فزعًا ، وأقول :

- ماذا جرى للأولاد ؟!

فتقول:

- انظر إلى ملابس هذه المذيعة (شايف لابسه إيه) ؟!

فأثور ، وأغضب ، وأضرب كفا بكف ، وأقول : سبحان الله حرام عليكِ .. أمن أجل هذا كنت تصرخين ، والله لقد ظننت أن خطبًا عظيمًا قد حدث ، مصيبة مثلًا أصابت ولدًا من الأولاد ، أو نارًا بدأت ترعى في البيت ، وأصب اللعنات وأنا أعلم أن المسلم ليس بسباب ولا لعان ولا فاحش .

وبرغم ما كان مني إلّا أنها لم تتب عن تلك العادة السيئة وأخشى ألا ألبي نداءها يومًا ، فيكون الأمر الذي دعتني إليه بالفعل يستحق هذا التهويل ، دائمًا ألبي ودائمًا تكون

الدعوة إلى مشاهدة شيء تافه ، لقد ضاق بي المقام ، ولكن ماذا أفعل ؟. وللرجال كذلك عادات سيئة ، فأم أحمد تسأل الله - تعالى - أن يتوب على زوجها من عادة تدخين الشيشة، وتقول في كل شكاية : البيت رائحته مثل رائحة المقهى ، وأنا أضطر إلى تلبية ندائه ، وإشعال فحمه ، وتغيير الماء في زجاجة الشيشة وأقول مهما يكن من الأمر ، فهذا أفضل من نزوله وخروجه إلى أمة من الرفاق لا نعلم ما وراءهم ، لكنها الشيشة .. دائمًا في فمه ، خنقتني ، ولكن ماذا أفعل ؟

فهل نحن نعيش معًا كي يخنق أحدنا صاحبه ؟!

وهذه سيدة ، هي شابة ، ولكنها ورثت عن أمها وجدتها عادة كل صباح جمعة ، فهي تضع أعواد البخور في كل ركن من أركان البيت ، وزوجها في هذا اليوم الذي هو إجازته الأسبوعية يستيقظ على تلك الرائحة .

- أعوذ بالله !

- صح النوم يا جميل .

- نوم .. أي نوم ، يا سيدتي حرام عليك ، أنا لا أحب هذه الرائحة .

- البخور ، وحد الله ، وصلي على النبي - ﷺ - اليوم يوم مبارك .

- أين البركة ؟ في البخور ؟!

- طبعًا في البخور ، يطرد الشياطين ، ويجلب الملائكة .

- الملائكة ... يا سلام !

- طبعًا ، قم قم ، الحمام جاهز .

يدخل الحمام ، وفي الحمام البخور ، يخرج بسرعة ويكح ويستعيذ بالله ، ويقول العبارة الشهيرة :

دي عيشة تقرف ارحمني يا رب ، أعمل إيه ؟ أعمل فيكي إيه ؟ أشتكي لمين ؟ رشي بارفان ، اعملي أي حاجة ، أنا لا أطيق الدخان .

فترد في استغراب واستنكار وسذاجة :

– ليس هذا دخانا يا حبيبي ، إنه بخور ، ومن النوع الجيد الله ، ما أطيب رائحته ! شم شم ، مالك ، والله انت محسود ، بقى الحق عليّ بابخرلك البيت واملا المكان بالبركة .

– أنا لا أريد هذه البركة .. فما رأيك ؟

– هكذا تعودت ، وأنت تعلم ، هل تريد أن تغضب عليّ أمي . لقد أوصتني أن أعمل لك هذا كل جمعة .. أرأيت كم تحبك؟!

ويكون نصيب أمها شيئًا من الكلام الذي لا يليق !

ومن العادات السيئة القيام بغسيل الملابس والزوج نائم ، وعلة الزوجة أنها لا تريد إزعاجه وهو جالس ، وكذلك هي لم تبدأ في ذلك إلّا بعد أن راح في سابع نومة ، ما كانت تنوي أن تنقله من سابع نومة إلى سابع إزعاج .

وكذلك من العادات السيئة أن يعود الرجل من عمله ، فلا يسلم على امرأته ، ولا يظهر فرحته برجوعه إلى من تصون له بيته وتحفظ ماله وسره ، وتربي له ولده .

وكذلك من العادات السيئة لزوم الصمت ، وجلوس العائد من البيت أمام التلفاز حتى ينام أمامه ، ومن تلك العادات التحدث في الكرة بينما أحدهما لا يحب الحديث في الكرة أو المسلسلات .

لكي يتحقق معنى السكن يجب أن نتخلص من كل ما هو مزعج للنفس مثير للثورة ؛ لأن أول معاني السكن : السكون .

الفصل الثالث

آية المودّة

طريق المودة مشترك

أعرف منذ أن كنت طفلًا أن هناك طريقًا خاصًا ، كان بين بساتين الأغنياء ، لا يمشي فيه غيرهم ، ومن يتصل بهم ، وقد يفكر فلاح أضناه السير في الحر في اجتياز هذا الطريق الخاص ؛ لأنه مختصر وكان يلقى من الويل ما لم يلقه العدو اللدود ، واللص السارق للأحذية من المساجد ، أو الحرامي في السوق ، يُضرب ويُشتم وينال أسوأ الجزاء ، ويؤمر بأن يعود من حيث بدأ ، فيضيع وقته ، ويتضاعف جهده بعد أن تضيع كرامته .

ولا يستطيع أحد أن يناله بسوء إذا مشى في الطريق المشترك بين الناس ، فهو ملك للجميع ، يمشي فيه الناس والحيوانات ، وكل ذي حركة ، وما طريق المودة كالطريق الخاص إنما هو عام ، وهناك من يقف على هذا الطريق منتظرًا أن يصل إليه غيره ، دون أن يحرك ساقًا ، أو يسعى إليه بقدم أو يقابله بقلب .

وتلك فكرة فيها ما فيها من كشف اللثام عن السبب الأهم في عدم التواصل بين الناس خصوصًا الأزواج والأرحام ؛ فبعض الناس ينتظر أن يصله الناس وهو لهم قاطع، وأن يعطوه وهو لهم مانع ، وأن يحسنوا إليه وهو لهم مسيء ، وتلك معادلة فاسدة ؛

فالله -عز وجل- يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2].

والنظر في ختام الآية بقوله -عز من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يدل على سوء مَنْ يسلك هذا السلوك، ويلزم نفسه هذا الخلق السيئ، فيُعد نفسه غير مأمور بالتعاون؛ يريد من غيره أن يسعى إليه بينما هو لا يسعى إلى أحد، يريد من غيره أن يهدي إليه بينما هو لا يرد هدية بهدية، ولا تحية بتحية، يريد من أقاربه أن يزوروه، وأن يصلوه، بينما هو قابع في مكانه لا يصل أحدًا منهم ولا يزوره، هو في موضع المخدوم السيد، وكل الناس من حوله خدم وعبيد، ولو أنه عَدَّ نفسه مأمورًا بالتعاون والصلة، لالتقى الناسُ جميعًا على طريق المودة؛ فهو طريق مشترك، ليس خاصًّا كالطريق الذي يتوسط بساتين الأغنياء، وهو طريق النبلاء الذين يعرفون قيمته، ويرفعون منه الأذى، وما الأذى إلّا مرض في النفوس، وعلل في الصدور، تترسخ في كل نفس متعالية، ترى أنها فوق الناس جميعًا، وترى الناس جميعًا دونها بكثير.

وإذا كان الناس جميعًا مأمورين بالتعاون على البر والتقوى، فإن الزوجين خصوصًا عليهما أن يتعاونا على طريق المودة الذي هو من البر والتقوى.

لقد ذكرت أن بعض النساء كانت تحتفظ لزوجها بشيء مما تأتيها به أمها وهي تعلم أنه لا رغبة له فيه، وتقول في كل مرة: لعلك تغير رأيك هذه المرة، وأن زوجها كان يزداد لها امتنانًا في كل مرة. وقد فعلت ذلك زوجة أخرى فما كان من زوجها إلّا أن عابها وعاب أمها، وما تأتي به من هذه المأكولات التي لا رغبة له في شم رائحتها، يقول لزوجته:

- ارفعي هذا الأذى عني، فتقول له:

- أَوَ تسمي نعمة الله أذى؟

فيقول:

- أَوَ تسمين هذا الذي تأتي به أمك نعمة؟! إنه قاذورات!

قالت وهي تطوي الضلوع على ألم:

- الله يسامحك، ورفعت عنه النعمة التي سماها أذى وفي حلقها غصة وفي قلبها أسى.

ولم يكتف بهذا الجرح، وإنما قال لها:

- لو أن أمك أتت بهذه الأشياء فسوف أفعل وأفعل وأفعل لا شيء من ذلك يأتي إلى بيتي، ولا تطعمي منه أولادي، إنني لا أحب لهم أن يأكلوا هذه الأشياء، ويكونوا مثلك.

والنبي - ﷺ - كان متعاونًا، وكان في خدمة أهله، وهو سيد الرجال، وقد ثبت عنه - ﷺ - أنه ما ذمَّ طعامًا قط، كان إذا اشتهاه أكله، وإن عافته نفسه تركه دون أن يذمه، وهذا خُلُقه - ﷺ - وتلك سنته، وعلى من يدَّعي حبه أن يكون على سنته حتى يصدق في دعواه، فلكل دعوى دليل وبرهان، ولا يليق بنا أنْ نعلن حبه - ﷺ - وأن نقول بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ونطلق على النعمة أو على ما لا نشتهي اسمًا لا يليق، ونسيء المعاملة.

ولا يصلح أن تلقى الزوجة زوجها على طريق المودة تسعى فيه وحدها، وهو ينتظر آخر الطريق، يقعد منتظرًا أن تأتيه بما لذ وطاب، وتخبئ له مما يأتيها فإذا حدث له ذلك أكل دونها، ومن النبلاء مَنْ إذا أصاب خيرًا خارج البيت أحضر منه لزوجته وأولاده حتى تطيب نفسه.

المودة آية الولاية

عجيب أن تظهر لزوجتك المودة، وتخفي عنها سرك، وتعيش معها كأنها غريبة عنك، فهل هذه مودة؟! أم أنها صناعة لطف وتمثيل مودة من أجل أن تستمتع بها؟!

وهل تدرك أنَّ فهم المودة على حقيقة معناها يزيدك استمتاعًا بها ؟ ورحم الله (المحبِّي) الذي ذكر في كتابه « الـمُعَوَّل عليه في المضاف والمضاف إليه » أن من أسماء ابن الزنا : ابن عجِّل عجِّل ، وإنما سمي ابن الزنا بهذا الاسم لأن الزانية التي هي أمه تقول لمن يزني بها: عَجِّل عَجِّل حتى لا يرانا أحد .

وليس في الزواج : عَجِّل عَجِّل ، إنما هو حياة تدوم ومتعة مشروعة تستمر ، والأصل في الزواج أن يكون أبدًا ما عاش الزوجان ، والطلاق عارض ، يأتي إذا استحالت الحياة ، لكنه غير مقصود ، وليس في الإسلام زواج مؤقت محدد بمدة ، ولو أضمر الزوج ذلك في نفسه ولم يعلنه وهو يعقد صح عقده كما قال الفقهاء ؛ لأنه من حديث النفس ، وعليه أن يستمر على زواجه ، وأن يعالج ما في نفسه بمتابعة حسنات زوجته ، ورضاه منها بالخلق الذي تستمر معه الحياة .

فكيف تستمر الحياة على هذا النمط القاسي؟! تقول إحدى الزوجات إنها تزوجت منذ ثلاثين عامًا ، وأنجبت وتخرج أولادها في الجامعات ، وهي لا تعرف عن زوجها شيئًا ، لا يخبرها بشيء يملكه ، ولا ببلد يقصده ، ولا صديق يعرفه ، ولا بمريض يزوره، ولا بزميل يجامله ، لا تعرف ما وراءه ولا ما أمامه على حد تعبيرها ، وهي مع ذلك تعرف حسن خلقه والتزامه بعبادة ربه ، وهو رجل كريم ، يرعى بيته وولده ، ويعاملها معاملة طيبة ، وما آذاها يومًا بكلمة ، وما أغضبها يومًا ، تقول : ومع ذلك كله أشعر بنيران مُتَّقِدَةٍ في صدري خصوصًا إذا جلست إلى أخته ، تحكي لي عنه ما لا أعرفه ، وهي في كل قصة تقصها عليَّ من أخبار ، تقول لي :

- طبعًا وانتِ عارفة أنه فعل كذا ، أو اشترى كذا .

وأضطر أن أقول لها :

- طبعًا طبعًا ، ووالله لا أدري شيئًا عما تقول ، فإذا قُضي الحديث وجلست وحدي، أجدني في حالة سيئة ، عيناي تمطران الدمع وصدري يخفق ، وأشعر بخنقة ، وإن فاتحته في هذا الأمر ساء حاله ، وقال لي عبارته المعهودة :

- هل ينقصك شيء ؟ ليس لك من حق عندي غير أن أملأ بيتك خيرًا ، وألا أقصر في طلب طلبتِهِ مني ، عدا هذا فلا دخل لك في شأن من شئوني ، أنا حر .

وقد يسلك زوج هذا السلوك مع زوجة بثت حديثه وأعلمته القاصي والداني ، وترتب على ذلك سوء أضر به أو لم يترتب لكنه لا يحب أن يعرف الناس أسراره ، أما أن يفعله ابتداء فذلك يرجع إلى أسباب أهمها أن تكون ثقافته هكذا ، يرى أن المرأة ؛ أي زوجته لا تودع سرًّا ، ولا تستأمن عليه ، وأن لها حدًّا لا تتجاوزه وحقًّا لا تتعداه ، وليس من حقها أن تعرف شيئًا عنه غير الذي عرفته عنه من نسب وحسب ووظيفة ، وأن حياتها تستقيم مع توفر الطعام والشراب وغيرهما من مألوف العادات ، وما دام يحسن إليها وإلى أهلها ، ولا يقطعهم عنها ، ولا يقطعها عنهم ، فذلك منتهى حقها وسعادتها ، وما عدا ذلك ضرب من المحال ؛ فهو افتراء وظلم . وقد يكون ذلك مرجعه إلى خلل في بنائه النفسي والوجداني كالخلل الذي أصابنا جميعًا إلّا مَنْ رحم الله ، وهو حبنا للبعيد وتجافينا للقريب ، يحلو كلامنا مع الأجانب ، ويَمْرُر مع الأقارب ، وقد يظن بعض الناس أن الزوجة إذا أحاطت بما لديه وعرفت كل شيء عنه حجَّمته ، وعرفت حدوده وهو يريد أن يكون مُبهمًا ليبقى في ناظريها عظيمًا ، وما تلك بعظمة والدليل على ذلك أن أعظم الخلق محمدًا - ﷺ - كان يُعْلِمُ أهلَه مكانَه ، وقد روى البخاري في صدر صحيحه أنه - ﷺ - كان يُعْلِمُ أُمَّ المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - بمقصده حين حُبب إليه الخلاء ، وكان يذهب إلى غار حراء ، ونحن نرى أزواجًا إذا سألتهم زوجاتهم وقد أعدوا العدة للخروج من البيت وقلن :

- إلى أين يا أبا الفوارس إن شاء الله ؟

كان جوابهم :

- وانتِ مال أهلك !

رد عجيب ، والمودة آية الموالاة والانتماء ، والدليل على ذلك قول الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة : 1] . وقد نزلت الآيات الشريفة في حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ -رضي الله عنه - وقصته معروفة ؛ إذ أرسل إلى قريش يخبرهم بقدوم النبي - ﷺ - وجيشه مودة منه لهم ؛ لأن له أهلًا ومالًا بينهم فأراد أن يكون له يد عليهم بهذا النبأ الذي ظن أنه لن يؤثر في نصر الله - تعالى - رسوله ، وقد علم النبي - ﷺ - بخبره وأمره بإحضار كتاب حاطب إلى قريش من المرأة « سارة » التي حملته إليهم ، وعفا عنه ، وقد كان - رضي الله عنه - بدريًا ، والشاهد أن ربنا - عز وجل - قد أعلمنا بأن المودة تكون بالإخبار ، فكيف تظن أن المودة شيء ، والكتمان شيء آخر ، إن الزوجة تطمئن نفسها ، وتزداد ثقة بزوجها وبنفسها إذا تودد إليها بإخبارها بل إذا أفهمها أنها الوحيدة التي تعرف كذا وكذا ، وإن كانت في واقع الأمر على غير ذلك ، ولكنه آثر أن يخبرها بذلك ويصفها به مودة منه لها ، وكما قلت إن العاقل من يدرك أن ذلك يجعله أكثر استمتاعًا بها ؛ لأن المتعة الجسدية وحدها غير كافية وغير مقنعة عند مَنْ يعرف الفرق .

ومن النساء كذلك

لعلك تتصور أن الزوجة يمكن أن تجهل كثيرًا من أخبار زوجها ولا تتصور أن الزوج يجهل كثيرًا من أخبار زوجته أو زوجه على الفصيح في اللسان العربي ، ومرجع ذلك ثقافتنا في الحياة الزوجية ، وأن من حق الرجل أن يخفي ما يشاء عن زوجته ، ولكن من حقه أن يعرف كل شيء عنها ، فلا بد أن تكون أمامه كتابًا مفتوحًا ، ولك الحق في ذلك إن حملناه على باب الغيرة على النساء ، لا من باب الحق والواجب المجرد عن إقامة المعادلة ، لعلك أيها القارئ سمعت بالرجل الذي كان على هذا النحو ؛ يخبر أمه وأخته وزميلته وبعض جيرانه بكل شيء يفعله ، اشترى كذا وباع كذا وربح كذا وخسر كذا ،

فإذا دخل بيته حاور زوجته في الطعام والشراب وما طلبه وما لم يطلبه ، لكن لا يفتح لها قلبه ، ولا يطلعها على صفحة من كتاب حياته التي يعتبرها خصوصية ، وحدث أن زوجته مات أبوها ، ووزع أخوها الكبير ميراث أبيه بالعدل ، ونالت نصيبها كأخواتها ، فلما عادت سألها زوجها وقال : كم ميراثك ؟ فقالت له :

- وماذا يعنيك ؟ لن أخبرك ، فكما أن من حقك أن تخفي عليَّ أخبارك كذلك من حقي أن أفعل الشيء نفسه ، سلني عن واجباتي وما يخصك ويخص أولادنا ، أما ميراثي فهو ملكي ، وللمرأة في الإسلام ذمة مالية مستقلة ، ولا شأن لك بهذا الأمر ، فقام وأتى بها من شعرها ، ومسح بها بلاط البيت ، واعتدى عليها ، وقال :

- ليس الرجل كالمرأة يا (...) وقد لقيت أذى لا تستحقه . فلا شأن له بالفعل بميراثها وما ملكته عن أبيها ، هذا هو الحق ، إنما سبيله لمعرفة ذلك والانتفاع به إن كان في حاجة هو المودة ، وهو الذي قطع حبل المودة من هذه الناحية ، وللمودة حبال مختلفة تتشابك وتتعاون في رسم الصورة البهية الكاملة لها ، فلا يلومَنَّ إلّا نفسه .

وكما أن هناك صنفًا من الرجال هذه ثقافتهم ، وتلك آفتهم وعللهم ، يخفون عن زوجاتهم كل شيء ، هناك أيضًا صنف من النساء على هذه الشاكلة ، ولا أعني بهن مَنْ يعاملن أزواجهن بالمثل ؛ فإن صرّح الزوج لها بماله وما عليه صارحته وإلّا فلا ، وإنما أعني اللاتي فعلن ذلك ابتداء ، ومنهن نوع غريب ، أود أن أبيِّن خلقه لشدة حاجة هذا النوع إلى معالجة ، ذلك النوع الذي يتظاهر بأنه يخفي شيئًا ، وهو في الحقيقة لا شيء عنده يخفيه ، ومنهن من كتبت أسماء نسائها رجالًا على جهازها المحمول ، فلما دقت أجراسه لمح الزوج اسم رجل على الشاشة ، لا يعرفه ، فما هو باسم أحد يعرفه من أهلها ، ولا من أهله ، كانت زوجته في الحمام فرد على طالبها فسمع صوت امرأة ، فازداد جنونًا ، وضرب رأسه بيده ، وقال :

- نعم يا كذا ، مَنْ وراءك يا بنت ، وانقطع الاتصال فاتجه إلى الحمام ، وضرب بابه بقدمه ، وصاح فيها :

– مَنْ فلان يا هانم ؟ ومن هذه الساقطة التي توصلك به ؟ وسمعها من الداخل تقول :

– وانت مالك ؟

– وأنا مالي ، لما أنا وأنا مالي أُمّال مين اللي ماله يا .. ويا .. ويا ...؟

خرجت لتواجَه بصفعة فورية ، كانت بادرة لكي تنظر إليه بنظرة فيها احتقار ، وكانت النظرة بمثابة التوكيد اللفظي والمعنوي معًا بأنَّ هناك قصة غرام ، بينها وبين مجرم أفاك ، قال لي بعد أن نالت علقة ساخنة : لم يمنعني من قتلها إلّا أن طاف برأسي شيء ما كنت أنتظر أن يطوف الساعة ، وأدركت أن من رحمة الله – تعالى – بي وبأولادي أن جعل هذا الشيء يطوف برأسي في تلك اللحظة الفارقة بين العقل والجنون ، والإنسان والوحشية ، وهو أني كنت في ذلك الوقت على علاقة بامرأة ، فأمسكت عن الضرب والقتل وقلت في نفسي : هي حياة سيئة على العموم ، وكلنا مجرمون !

ولكن عرفت أن المجرم هو أنا وحدي ؛ فقد أخذت تبكي وتقول : إنها أختي فلانة ، وقد تَبيَّنتُ ذلك عندما راجعت رقم أختها على الذي أسجله في هاتفي فوجدت التطابق شاهدًا على صدقها . ولم أكتف بذلك ، بل اتصلت بأختها من هاتفها وعاتبتها على أنها قطعت الاتصال ، وسألتها : لمَ فعلت ذلك ؟ فقالت : لا أدري ، وهي صادقة بالفعل ، فمن الناس من يتصرف تصرفات غريبة وهو لا يدري ، يحدث هذا من علية القوم ومن المثقفين والنبلاء ، فما زال في البشر ما ليس له تفسير ، كالذي يحك جلده وليس في جلده حكة ، ومن يتحسس أنفه ، ومن يطرقع أصابعه ومن يعبث بأشياء أخرى ، ويتصرف تصرفًا يتنافى وجوهر ما فيه من المعاني والأخلاق والثقافات .

وهناك المرأة الأرستقراطية المستبدة ، التي ترى أنها ضحت بأن تزوجت من هو دون مستواها المادي والاجتماعي ، وكفاه ذلك منها ، فهي تتحدث إلى عامل عندها ، وتسر إليه بما لا تسر به إلى زوجها ، وهناك مَنْ إذا تحدثت إلى أهلها أوهمت زوجها أن

هناك أسرارًا ينبغي ألا يطلع عليها ، ترمز في الكلام وتختصر ، وتقول : نعم ، ومرة تقول : لا ، وهو قابع منتظر أن تشرح له التفاصيل بعد انتهاء المكالمة ولكن دون جدوى ، كل ذلك ليس من المودة .

مراعاة العادة الطيبة

كان يسعده أن يتناول فنجان قهوة كلما دقت الساعة العاشرة صباح كل يوم ، قبل أن ينطلق إلى مكتبه ، يقول : قهوة المكتب مُشْرَبةٌ بعمل فهي ليست ذات مذاق وطعم ، أشربها مع مَنْ يطلبها مجاملة له ، أقول لزائري : ما تشرب ؟

فيقول : فنجان قهوة على الريحة .

فآمر بفنجانين ، لأنني أشربها هكذا ، أقول للعامل : اثنين يا بني لكن العامل لا يحسن صناعتها على هذا النحو كامرأتي التي تأتيني بها في تمام العاشرة صباحًا ، تضبط على فنجانها ساعتك . وحدثني الأستاذ العلامة إسماعيل منصور إمام موجه اللغة العربية بأنه يخرج من بيته مؤمَّنًا طوال اليوم ، فهو لا يجوع ولا يظمأ ، حرصت زوجته منذ ثلاثين عامًا على فطوره وشايه ، فهو لا يشرب شايًا خارج البيت ، حتى لا يفسد طعم الشاي الذي تعده له زوجته عبر هذا الزمان الطويل الجميل ، ومن حسن ما قاله لي إنه اشتهى يومًا أن تناديه باسمه : يا إسماعيل ، فقالت له :

– لساني لا يطاوعني يا أستاذ إسماعيل . لقد تزوجتك أستاذًا ، وعرفتك أستاذًا ، وأنا سعيدة بأستاذيتك ، أقسم عليك بالله ، ألا تكلف لساني ما لا يطيق فإنه يتعطر إذا ناداك يا أستاذ ، وأراه سوف يتألم إذا ناداك باسمك مجردًا ، يعز عليَّ أن أرفض لك طلبًا ، ولكني غير قادرة عليه . قال : تركتها لطبيعتها ، وسألت الله أن يديم عليها ما ألفته وأن يجزيها عني خيرًا ، وهناك من تقول : هذه امرأة من زمن الجمود والتخلف ، وإنّ المرأة يجب أن ترفع التكليف بينها وبين زوجها ، والزوجة الحديثة التي تقول ذلك وتعده من باب التدليل (الدلع) لزوجها عرفت كيف ترفع التكليف ، فنادته باسمه ، وأمالت ما

يمال من حروفه ، وما لا يمال قالته برقة وعذوبة ، ورأت في ذلك إسعادًا عليه أن يحظى به ، وأن يشكره ، فلماذا شقي ولم يسعد ، وسمع فلم يشكر ؟

والجواب عن ذلك أنها عرفت شيئًا وغابت عنها أشياء ، دعته برقة ، وكان بعد الدعاء جفاء ، إن التي أبت أن تنادي زوجها إلّا بيا أستاذ حفظت له العادة ، وهبت من نومها قبله ؛ حيث لم تكن مثل أم زرع ، عندها خدم وحشم ، حتى تنام فتصبح فهي نؤوم الضحى كما قالت العرب .

أما التي قالت لمحمد وأحمد يا حمادة ، والتي قالت لمصطفى يا صاصا ، والتي قالت لمحمود يا حودة نامت بينما كان يبحث لنفسه عن شيء يغير به ريق النوم ، وبرغم أن مطبخها كان (يضرب يقلب) وارتفعت منه الأصوات فأيقظت الجيران كانت هي في سابع نومة ولم تشعر بشيء .

وهو ما زال يذكر أنها في أول عهده بها كانت (لهلوبة) تأتيه بالفطور على السرير ، وتغسل له يديه ، ورجليه بالماء والملح عند عودته ، وكانت وكانت .

وأذكر أن أحد الصالحين كانت له عادة ، هي أن يتصدق في كل يوم ، فلما مر بظروف صعبة ظل محافظًا على تلك العادة فأشفق عليه ولده ، وقال :

- با أبتِ ، إنك الآن معذور .

فقال :

- أخشى يا ولدي أن أغيِّر عادتي فيغيِّر الله عادته معي .

وقد يسأل سائل ويقول : وهل تظن أن الله - تعالى - لم يغيِّر معه عادته وقد أتته الشدة ؟! والجواب : أن نِعَمَ الله - عز وجل - لا تحصى ، وحصرها في المال فقط من الظلم بمكان ؛ فالرجل قد أصبح معافى في بدنه ، آمنًا في سربه ، وعنده قوت يومه وهو يتصدق منه ، ولم ينظر إلى عادة ربه على أنها رخاء مادي دائم ، ولكن نظر إلى ما أنعم الله

- تعالى - به عليه من ولد صالح بار ، ومن نظر في عينيه ، وسمع في أذنيه ، وغير ذلك مما لا يحصى عدده ، فهو واسع الأفق ، وليس ضيق النظرة ، يصوبها إلى ما في جيبه دون غيره ، فإن وجد المال فقد تم رضاه ، وإن لم يجده أعلن سخطه كما يفعل كثير من الناس، تراه مبتسمًا راضيًا سعيدًا حامدًا شاكرًا إذا توفر له المال الغزير ، فإن قل ماله ذهبت ابتسامته وحل سخطه محل رضاه ، ورأى نفسه محرومًا من كل شيء ، وفي هذا ظلم كبير، وجناية على نِعَمٍ تنتظره أن يشكر المنعم - جل وعلا - حتى تبقى عنده ، فلا ترحل من عنده .

والشاهد في هذه القصة الطيبة أن تغيير العادة يؤدي إلى تغيير العادة ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : 53] .

ولذلك لا نرى عجبًا أن يتغير الزوج الذي تغيرت عادة زوجته أو ترى الزوجة تتغير عادتها إذا تغيرت عادة زوجها ، وترى خصومة بالغة في ذلك يمكن الحسم فيها والقضاء بسهولة إذا وقفنا على مَنْ بدأ بتغيير عادته ، فكلاهما يتهم صاحبه بأنه هو الذي بدأ وغيَّر ، ولن نصل إلى حل ولن ننتهي إلى خير ما دمنا نسمع :

- لا ، أنتِ التي بدأتِ ، وهي تقول :

- لا ، أنتَ الذي بدأت ، والبادي أظلم .

ولله در الأستاذ أحمد حسن الزيات - يرحمه الله - حيث قال :

« صَحِبتُ العقاد منذ خمسين عامًا ، فما مللت الصحبة وما ذممت المعرفة » .

وما من شك في أن صحبة الخمسين عامًا على هذا النحو ما حافظ عليها وعلى استمرارها على الطيب والمعروف إلّا لأن كلًّا منهما استمر على عادته مع صاحبه من البر والتواصل المشترك .

تغيير بسبب الظروف

ذكرت أن حفظ العادات ، والحرص عليها دأب الصالحين والراغبين في استمرار الحياة على خير ، والراغبين في النيل من جمال الحياة التي خلقها الله - عز وجل - جميلة ومن أسرار جمالها انتظامها على عادة لا تتخلف ، ونظام لا يختل ، قال الله - عز وجل - :

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس :38 - 40] .

ولا ينكر أحد أن الشمس يعتريها الكسوف ، والقمر يعتريه الخسوف لكن تعود الشمس بعد الكسوف مشرقة ، ويعود القمر بعد الخسوف آية نور ؛ فضياء الشمس لا يلغيه الكسوف ، ونور القمر لا يطفئه الخسوف ، فهل تعلمنا من ذلك أن العادة التي هي آية نظام قد تتخلف لعارض لكن سرعان ما يزول هذا العارض ويعود الأصل أصلًا والنظام نظامًا ؟ وسبحان مَنْ له الكمال وحده ، ومن طريق المودة أن يعرف الزوج العذر الذي حال بين زوجته عادتها وأن تعرف الزوجة العذر الذي حال بين الزوج وعادته .

قالت لي ودموعها تحرق أنفاسها : لقد اعتاد زوجي أن يتصل بي كلما ذهب إلى عمله ، فلما تأخر وانشغلت عليه اتصلت به ، وردت عليّ رسالة مسجلة معروفة تقول إن رقمه خارج نطاق الخدمة ، وتكرر ذلك ، فلما عاد لقيته كالشيطان ، وكأنه ارتكب معصية كبرى ، لم أَلقَه بابتسامة ، ولم أقدم له كوب العصير البارد الذي عودته عليه منذ عرفته ، ولما قال :

- ما سبب هذا الانقلاب ؟!

قلت :

- بحلق في عيني بحلق ، ألست تعرف السبب ؟!

- منذ متى وأنت تغلق الموبايل ؟ وأي شيء شغلك إلى هذا الحد ؟ مين اللي شغلتك يا باشا ، قلي لي .. قل لي .. لا تخشَ شيئًا .

وفجأة قال على غير عادته :

- هاتي هاتي كل ما عندك ، أخرجي أخرجي جميع ما في صدرك والله يا شيخة ما كنت أعرف أنك هكذا بهذا السواد ، فقلت :

- إلى هذه الساعة لم تر مني شيئًا ، ورحت أذكره بكل شيء جميل صنعته من أجله ، وأقول بعد كل شيء : تذكر أم نسيت ؟ كنت على خطأ ، كنت أظن أنك تستحق ، كنت كذا وكذا ، وإذا به وهو واقف مكانه يشير إلى جهازه ، كان في ركن معلقًا بسلك الشاحن ، وقد نسيه ، وقد نسيت أن أذكره به ، وقد جرت العادة أن جهازه يبيت مغلقًا في الشاحن ، شعرت بالخزي ، ورأيت نفسي تافهة حقيرة أمام هذا الإنسان العظيم ، وأخذت أُقبل جبينه ويديه ، وأقول له : عمياء بعيد عنك ، لم أره ، أنا آسفة ، أنا لا أعرف كيف أعتذر ، لكني أعرف أن قلبك كبير ، وأن عقلك أكبر ، وهذا الذي قلت إنما هو من فرط حبي لك ، وغيرتي عليك وحرصي على الحياة معك على ما عودتني إياه مما يدخل السرور على نفسي ، فسامحني أرجوك .

لكن كلماتي كانت كالصاعقة ، وازددت احتقارًا لنفسي حين لمحت في عينيه دمعة برقت كالبرق الخاطف الذي خطف ناظري ، وألقى بالرعب بين ضلوعي ، وسمعته يردد بينه وبين نفسه في همس صرخ بأعماقي (أستغفر الله العظيم) وعدت أعتذر له من جديد ، وآتيته بكوب العصير فقال :

- بعد إيه ؟

أي أنها عادت إلى عادتها بعد تجريح واتهام ظالم ، وكثير من الناس يلقي بالتهم الظالمة قبل أن يتحقق ، والله - عز وجل - يقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات :6] . وقد يكون النبأ من تلقاء النفس ، وهو وإن لم يكن ذا شأن في الظاهر ؛

حيث إنه من قبيل حديث النفس فإن الواقع يشهد بأن أثره خطير ، وطعمه مرير ، وظلم الإنسان بسببه كبير ؛ لأن إن المرء قد يسمع نبأ من غيره فلا يكون تركيزه إلّا فيه ، أما أنباء نفسه فكما يقول العلماء : تذهب به كل مذهب ، وما أطيب أن تذهب النفس كل مذهب في الخيرات، أما أن تذهب النفس كل مذهب في المهلكات فذلك مرض خطير ، ألست ترى قول الله – عز وجل –: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون : 4] .

فالذي يحسب كل صيحة عليه يعيش مشتتًا أيَّ تشتيت ؛ كالطفل الذي يصيبه الهلع والجزع إذا سمع أي صوت من المطبخ أو الحمام أو الشارع خصوصًا بالليل ، وبعد أن يسمع حكايات الأم الغولة وأبي رجل مسلوخة ، أو يشاهد أفلام الرعب ومصاصي الدماء ونحن نزرع فيه هذا الفزع ، ونقول له : لا تفزع ، كمن نضربه بقسوة وعنف ونقول له : لا تتوجع ، وكمن نضن عليه بالمال ونقول له : اركب طيارة ، أو لا نوفر له أدوات البحث ، ثم نقول له : هات لنا آيات عبقريتك ، فسبحان مَنْ قَدَّر فهدى .

وعلاج أحاديث النفس يكون بذكر الله – عز وجل – وأعني بذكر الله تدبر آيات كتابه وأحكام شريعته التي تنطق بأن البينة على من ادعى ، وما بينة النفس التي تدعي أنّ الزوج خائن خالف عادته ، والعينان في الرأس لم تتحركا في البيت لترى جهازه باقيًا عندها ؟! فكيف يتصل بها ؟! ومما يُضحك أنها قالت : الحق عليك ، كان عليك أن تتصل بي من مكتب المدير ؛ إذ به مباشر ؛ لتقول لي إنك نسيت هاتفك المحمول في البيت!

أشياء كبيرة تبدو صغيرة

لم يكن النبي – ﷺ – عند عائشة – رضي الله عنها – في تلك الليلة ، جاءها صباحًا ، وكان في تلك الليلة قد أُهدي إليها طعام يحبه – ﷺ – فأكلت منه ، وخبأت له جزءًا ، فلما دخل قالت له : أُهدي إلينا الليلة كذا ، وخبأت لك منه فقال – عليه الصلاة والسلام – : إني اليوم صائم .

وبعد ذلك طلب إليها – ﷺ – أن تأتيه به ، فقالت له :

– ألم تقل إنك اليوم صائم ؟

فبين لها النبي – ﷺ – أن صائم النافلة إن شاء أمضى صيامه ، وإن شاء أفطر ، ومثل لها ذلك بمن يتصدق بصدقة غير الزكاة ، إن شاء أمضاها ، وإن شاء سكت فالأمر فيه اتساع ، ما دام هذا الصيام غير فريضة كرمضان أو نذر واجب ، فأتت به ، فأكله – ﷺ – وكان مما يحب أن يأكله – ﷺ –

وفي هذا درس عرفته الطباع السوية ، وألفته المرأة ذات العادات الطيبة ، التي تربت على يَد أم ، عهدتها تحفظ لأبيها وأخيها ومن غاب عنها من أفراد أسرتها حظه ونصيبه من هدية أهديت ، أو أكله نادرة موسمية ، فالغائب عندها له (نايب) ولدينا مثل « الغايب مالوش نايب » قد تجد امرأة لا تعرف إلّا هذا المثل ، تقول لزوجها : وأنت غائب جاءتنا أختك أو أمي بكذا ، وكان جميلًا ، اسكت اسكت لا أقول لك على حلاوته وإجادة صنعه، وقد أكلناه .

فيقول : بالهنا والشفا .

وأنا على يقين أنَّ الذي قال لزوجته التي وصفت له الطعام ولم تبق له شيئًا منه ، إنما قال ذلك وفي نفسه شيء ، وإن أقسم بوكيد الأيمان أنه كأنه أكل منه ، أو أكله كله .

قيل إنَّ خصمين عرف أحدهما أن القاضي الذي سيحكم في قضية بينهما يحب الرطب ، فجاء بأطيب الرطب ، وذهب إلى القاضي في بيته ، فلما أدخله الخادم عليه عرفه القاضي ، وقال له :

– ألست الخصم في قضية كذا ، وسأنظر فيها غدًا ؟

قال : بلى .

قال : فخذ هذا الرطب معك ، وأراك في مجلس القضاء .

فانصرف الخادم بالرجل والرطب بهدوء ، يقول القاضي :

والله لقد حكمت بينهما بالعدل ، ولكن كانت نظرتي إلى مَنْ جاء بالرطب أرق من نظرتي إلى الآخر .

فهذه شهادة رجل عدل ، لم يأخذ رشوة ، واتقى الله في حكمه ، ولكن نظرته إلى مَنْ جاءه بالرطب كانت أرق من نظرته إلى خصمه .

وقد يقول قائل : لا ، وألف لا ، والله مهما فعل ومهما حاول أن يفعل ، العدل عدل ، والحق حق ، ونحو هذا ، ويقيني أن الرجل القاضي كان يحدثنا عن شيء في نفسه كأنه بقعة صغيرة توارت في مكان بعيد ، لا يراها أحد ، وإنما يراها من اكتشف وجودها ، وعرف مكانها ، كالنقطة الصغيرة في الثوب لا يراها الناس ، وإنما يعرف صاحب الثوب مكانها فيه ؛ فقد تكون تحت إبطه ، وقد تكون في ذيل الثوب ، وهذه البقعة الصغيرة كبرتها نفسه العالية ، فأعلنها ، وحدثنا عنها ، وكان بوسعه أن يقول الكلمات الرنانة التي نعرفها جميعًا من نحو قوله :

لقد طردته شَرَّ طِرْدَة ، وما نظرت إلى رطبه ، بل بدا لي الرطب في يده كأنه خنجر مسموم ، يريد أن يقتل به كرامتي وعفتي وعدالتي ، ولكن هيهات هيهات ، كان غيره أشد منه مكرًا ومحاولة لكنه لم يستطع أن يخضعني لهواه ، هكذا يقول الزوج لزوجته التي وصفت له ما لذ وطاب ، وأكلته دونه ، حتى إن كان غنيا ، وإن كان باستطاعته أن يأتي بأضعاف أضعافه ، ففي النفس من ذلك شيء ، يترسب فيها ، وينضم إلى نظيره ، حتى تتراكم في النفس أشياء كالجبال ، فأول الغيث قطرة ثم ينهمر ، خصوصًا إذا كانت هذه عادة لازمة ، وصفة مقترنة بشخصية زوجته لا تفارقها ، إن طريق المودة سهل ، وأقول بقول العلماء : سهل على من وفقه الله – تعالى – .

وأنا لا أتهم الزوجة بالبخل ، وإن كنت أخالف مَنْ قال : إن البخل مما لا توصف به النساء ؛ فالبخل من صفات البشر البغيضة ، يوصف به الرجل ، وتوصف به المرأة ،

فكلاهما من البشر ، غاية ما هنالك أنها عادة ، وبوسعها التخلي عنها بشيء من الحرص على إرضاء زوجها .

قالت إحدى الزوجات الموفقات إلى طريق المودة : كانت أمي تأتيني بأشياء أعرف أن زوجي لا يشتهيها ومع ذلك كنت أدخر له منها ، فإذا جاء عرضتها عليه ، وقلت وأنا صادقة :

– لعلك تغير رأيك وتأكل منها .

كانت هذه الكلمة ذات وقع طيب على نفس الزوج فكان في كل مرة يشكرها ، ويمدح خلتها ، وبعض الأزواج يسلك سلوكًا آخر له حديث آخر .

إن ربي رحيم ودود

أحاول منذ فترة طويلة أن أستثمر المعاني القرآنية ، وهذا الموضوع يملك عليّ زمام فكري ، ويسيطر عليّ ، وأراه ضرورة لا بد منها ؛ لأن القرآن الكريم يقص علينا من أنباء الرسل وقصص السابقين من أجل الاعتبار ، وهذا الاعتبار لن يتأتى إلّا إذا استثمر القارئ للقرآن تلك المعاني ، ولكي يزداد هذا المعنى وضوحًا سأربط بين المودة موضوعنا هنا ، وهذا الاستثمار فأقول :

إن الله – عز وجل – يقول : ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود : 90].

لقد سأل شعيب – عليه السلام – قومه أن يستغفروا ربهم وأن يتوبوا إليه ، ثم قال : ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ؛ أي يغفر لكم ذنوبكم ويقبل منكم توبتكم ورجعتكم إليه، ويغدق عليكم من نعمه وفضله الواسع ، فهو – سبحانه وتعالى – يغفر الذنب ، ولا يؤنب صاحبه إذْا تاب عنه ورجع ؛ لأنه ودود .

فكيف يمكن استثمار هذا المعنى على طريق المودة بين الزوجين ؟

إن أحد الزوجين قد يخطئ في حق صاحبه ، ويطلب إليه العفو والصفح ؛ فنرى بعض الناس يقبل العذر ، ويفتح صفحة جديدة كما نقول ، ولكن على شرط ألّا تعود الحياة كما كانت قبل الخطأ ، فمن عفا عن ذنب صاحبه أخذ منه حذره وأخذ الحذر لا شيء فيه ، لكنه يحتاج إلى قلب ودود ، لا يُذل صاحبه بما كان منه ، ولا يعنفه لأدنى ملابسة ولا يذكره به عندئذٍ ، وكأنه حدث اليوم ، ولم يحدث من سنين فإن التَّعْنيف والتأنيب والتذكير بسالف الخطايا من العذاب بمكان .

ونحن نعرف أناسًا - هدانا الله وإياهم - يسرعون في قبول العذر إلى درجة أنك تتصور في نفسك أنهم كانوا ينتظرونه ، ثم بعد ذلك يعذبون من اعتذر إليهم بما كان منه ألوف المرات ، ولو أنهم أخذوه بذنبه من أول الأمر لكانوا به رحماء ، فإن العقوبة قد يكون الخير فيها إن محيت الخطيئة بعدها ، ولم تسوَد صحيفة المخطئ ، فلو أن إنسانًا عوقب على جرم ، واستخرج صحيفة بعد ذلك من أجل الحصول على وظيفة ، فخرجت إليه بيضاء ، فيها عبارة (لا شيء) لكان أسعد حالًا من الذي لم يعاقب ، ولكن خرجت إليه صحيفته مكتوبًا فيها ما قدمت يداه ، فكانت سببًا في حرمانه فرصة عمل .

والحياة كلها سلسلة من الأعمال ؛ فالوظيفة منها ، وكذلك العلاقة بين الناس ، خصوصًا الأزواج ، ونحن نجد الزوج الذي يذكر زوجته بما كان منها ، وقد ظنته قد نسي منذ قال :

- عفا الله عنا جميعًا ، وهو بذلك التذكير الذي يعني به التأنيب يعمل عملًا سيئًا ؛ حيث إنه ليس من المودة أن تنفخ في الرماد لنستخرج النار الدفينة ، وليس من المودة أن نضم القديم إلى الجديد ، نعم هناك جديد ذنب ؛ لأننا بشر ، لكنا نسينا يوم أن عفا بعضنا عن بعض أن ذلك يمكن أن يعود ، فأخذ بعضنا يقول لبعض : على ألّا تعود أبدًا .

وهو يقول وراءه : على ألّا أعود أبدًا ، وهو إذ يقول هذه العبارة يرددها وراءه أو يقولها ابتداء من تلقاء نفسه إنما يرجو بذلك العفو ، وهو محتمل صدقه وكذبه ، ولكنه قالها لما كانت سبيلًا من سبل الاعتذار ، وطريقًا من طرق العفو ؛ إذ لا يتصور أحد أن يقول إنسان لإنسان آخر يطلب عفوه ومسامحته : سامحني وسأعود إلى ذلك الذي ارتكبت مرات كثيرة !

إنه يقسم له بالله على ألا يعود أبدًا ، وأن ذلك كان منه سهوًا وضعفًا ، وأن الله غفور رحيم ، وأنَّ وأنَّ ، ويذكره بنبل صفاته وأصالة معدنه ، وعفو أبيه من قبل ، وعلى أن قلبه كبير ، وصدره واسع ويستشفع بالنبي - ﷺ - الذي زاره ، ووضع يده على شباكه وبالكعبة التي طاف حولها في سني حجه ، وعمرته ، وبأحب أولاده إليه . إنه يبذل كل جهد ، ويأتي بكل شيء ، حتى يسمع منه كلمة (خلاص) عفوت عنك .

وقالت لي زوجة إنّ شيئًا ما حدث منذ زمن بعيد ، وفوجئت بأن زوجي ما زال يذكره ، فقلت له وقد ذكرني به :

- لم أكن أعرف أن قلبك أسود إلى هذه الدرجة .

والشاهد فيما قالت : « قلبك أسود » إنه تعبير كفيل بهدم كل جدار للمودة بين الزوجين ؛ إذْ كيف تتم المودة بين الناس على سواد القلوب ، والأصل فيها أنها علاج لهذا السواد . أرأيت إلى قول الله - عز وجل - : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة : 7] . إن الذي بيننا وبين أعدائنا سواد بلا شك ؛ لأنهم يحرقون أسباب حياتنا ، ويشعلون النار في قلوبنا بجرائمهم ، وينتهكون حرماتنا ، فإذا أسلموا لله رب العالمين صاروا إخوة لنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإن انتهوا عن فسادهم استحقوا منا المودة ، قال ربنا - عز وجل -: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة : 8، 9] .

وهذا التذكير بالمآسي والهنات قتل للمودة ، فمن أراد أن يتبع طريقة الله - عز وجل - في العفو فليكن ودودًا ؛ لأن الله - عز وجل - يحب العفو وهو غفور ودود ، والجزاء من جنس العمل ، فمن عفا وهو ذو مودة عفا الله عنه وجعل له وُدًّا.

الفصل الرابع
آية الرحمة

الزواج من أسباب الرحمة

التعامل مع الواقع واجب يفرضه الدين ، فهو حياة ، ولا بد من العيش في هذه الحياة ، ذكر ابن عبد البر - رحمه الله - قول القاسم بن محمد : لو كانت الدنيا كلها حرامًا لما كان بُدٌّ من العيش فيها[1] .

روي عن بكير بن الأشج أنه كان يقبل هدية امرأة سوداء تبيع المِزْر[2] بمصر ، قال: لأني كنت أراها تغزل ، أي ليس كل مالها من المزر الذي هو خمر ، وقال الليث بن سعد : إن لم يكن له مال سوى الخمر فليكف عنه .

هذه مقدمة فقهية لها صلة بموضوعنا هنا ، وهو أن الواقع يشهد بأنَّ رجلًا يزامل امرأة في عمل ، ويحدث بينهما ما يُسمَّى حبًّا ، فهو من قريب أو بعيد يلمح لها بأنها التي يبحث عنها ، وهنا نقول : فما الذي يحول بينه وبين زواجها إن كان تقيا ، يصلي ويصوم ، ويقرأ القرآن ؟!

هناك بعض الرجال يشتهي تعذيب المرأة من حيث يعلم أو لا يعلم ، هو يعد ، ولكن لا يقدم رجلًا للإمام أو يلمح من طرف خفي ، يسأل عنها إن غابت ، يقول لها :

(1) التمهيد 4/ 118.

(2) المِزر : نبيذ الذرة : انظر اللسان (م ز ر).

بالأمس لم يكن في المصلحة (التي يعمل بها معها) من طعم ولا لون ولا رائحة حيث كنتِ غائبة ، وفي ذلك إشارة إلى أن وجودها هو الذي يضفي على المصلحة كلها لونًا وطعمًا ورائحة ، فما معنى هذا ؟

إن المرأة في مقابل هذا الكلام إما أن تكون غرًّا خالية الذهن ، تصدق ذلك ، وتنتظر ، وإما أن تكون امرأة واعية تعرف طبيعة الرجال ، وتدرك أن هذا بياع كلام ، أو كما يقولون (بُق) أي فم ينطق ليس إلّا ، ولا خوف على هذه الثانية ، وإنما الخوف كل الخوف على الأولى ، التي تنتظر وتنتظر ، فمن الرحمة أن يتزوجها ذلك المعلن لها بأن غيابها قد أفقد المكان برمته طعمه ولونه ورائحته .

ولا أحب الخوض فيما هو أعتى من ذلك من قصص الحب والغرام ، والغراميات الشائكة ، والتعدي على حرمة المرأة ، وسحبها إلى مواضع الفحش والفاحشة ، فكم من ضحية راحت فداء هذا اللعب الذي يغضب الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - .

وما من سبيل أمامنا في تلك (المعجنة) إلّا أن نبين للرجل أن ذلك عبث وضلال، وأن نبين للمرأة أن مَنْ أحبها هو الذي يقصد بيتها ويلقى أهلها خطيبًا عازمًا على الزواج ، وأن عليها الحِمل الأهم ، والمسئولية الكبرى من الاحتشام والتحلي بآداب الإسلام ، وألا تسمح لأحد كائنًا من كان أن يطرق باب قلبها إلّا عن الطريق الصحيح ؛ فالزواج وحده هو شرع الله - عز وجل - لكل راغب في الاتصال بأجنبي، ويجب أن تعلم أن الأجنبي أجنبي شرعًا ، وما أضرنا ، وأفسد قلوب بناتنا سوى اعتبار الأجنبي شرعًا حبيبًا مقربًا ، له الحق أن يعرف كل شيء ، وأن ينال ما يريد . وفي البداية يكون التعبير :« كل شيء إلّا ما يغضب الله »، والمراد بهذه العبارة أن يتبادلا الحب والمكالمات والهدايا واللقاءات ، وهذا أول طريق الفاحشة، والله -عز وجل-

يقول : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : 32]. فما عسى أن يكون القرب من الزنا غير هذا ؟ ومعظم الذين قالوا إن بيننا حبًّا عذريًّا لا إثم فيه هم الذين وقعوا في الفاحشة ؛ لأن زيادة القرب تؤدي إليه .

وقد احتال أحد الشباب على حبيبته ، وادعى أنه مريض وزارته بناء على طلبه وما اصطنع ، فلما حدثت الزيارة وقعت الفاحشة ، وكان كل منهما يقول : لا ندري كيف حدث هذا ؟ وقد بيَّن لنا ربنا في الكتاب العزيز كيف يحدث هذا ، إنه القرب قالت : خدعني ، وقال إنه يعيش مع أمه وأخته ، وعندما زرته لم أجد أحدًا ، ولما هممت بالخروج قال : كوني على ثقة بي ، أنا أخاف عليك أكثر مما تخافين على نفسك وهل تتصورين أنني أسبب لك الأذى ؟ وكيف أكون أنا الذي يؤذيك وأنا أغار عليك من النسيم الطائر ؟ فلماذا هجم عليها كأنه الوحش الكاسر ؟! وبعد الخطيئة قال : كل شيء ينكسر يتصلح ، وسوف نتزوج ولم يتزوج ، وهذا معروف ، وقصصه لا تنتهي ، وتلك مأساة تتكرر ، وعلاجها يسير ، وهو أخذ الحيطة والحذر ، فعلى البنت دور كبير ، وحمل ثقيل ، إن فرطت فسوف تضيع ، وكم من فتاة قالت : يعدني بالزواج في كل مرة ، ولكن يقول : الظروف الظروف وعلة الظروف معروفة ، هي الهروب ، مع أنها تعلم أن الذي رآها سهلة لا يمكن أن يتزوجها ، ولو تزوجها فسوف يعيش معها يذكرها بالذي كان ، وأنها لا أمان لها ، وكما أخطأت معه فسهل عليها أن تخطئ مع غيره ، ولكن الهوى تيار جارف .

أعود إلى الغِرِّ المؤدبة التي لم تكن فريسة ذئب ، وإنما كانت لعبة مراهق ، حتى ولو بلغ الأربعين من عمره ، إنها تعود إلى بيتها ، فتجد أمها سعيدة ، وأختها هاشة باشة وأباها الذي عرفته مريضًا يعاني ، يتماثل للشفاء بسبب أن رجلًا محترمًا معروفًا لمح بخطبتها ، فإذا بها مترددة ، تسمع عن هذا الرجل الخير كله ، إنه ذو خلق ، ووظيفة ، وعنده وعنده ، ومثله لا يرد ، لكنه ليس زميلًا ، ولم يقل لها إن المصلحة

فقدت طعمها ولونها ورائحتها حين غابت هي عنها بالأمس ، فهل توافق ، وتتزوج على طريقة الصالونات زوجًا عاديًّا ؟ ولست أدري العادي والسوبر في الزواج فالذي أعرفه أن الزواج زواج وهو ميثاق غليظ ، وينبني عليه أمور كثيرة ، منها النفقة والعشرة والإنجاب ، هو دنيا المسلمين ، فهل توافق ؟ كيف توافق وهواها مع الزميل الواعد؟! ولكن متى يأتي ليريحها من هذا الهم ؟ وتقول له في الصباح : حدث كذا وكذا، وقد يظن أنها تخبره بذلك لتستفزه وتستعجله، فيقول : أنا أتشرف بالزواج منك، ولكن الظروف . لمثل هذا أقول : ارحم يرحمك الله ، إما أن تسرع وإما أن تتوب إلى الله قائلًا لها : وفقكِ الله مع المحترم الجاد !

ومن تَقِ السيئات يومئذٍ فقد رحمته

إنَّ من أعظم معاني الرحمة ألا يؤاخذك مَنْ رحمك بسيئاتك ، بل إن هذا هو معنى الرحمة ، والله - عز وجل - يقول : ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر : 9] .

ونحن نحاول أن نستثمر معاني القرآن الكريم ؛ لأن العبرة إنما تؤتي ثمرتها بهذا الاستثمار ؛ فالرجل الذي لا يؤاخذ زوجته على ما بدر منها من سوء ، رحيم بها ، وكذلك المرأة التي لا تؤاخذ زوجها على ما كان منه من سوء ، رحيمة به ، والله - عز وجل - يقول : ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الروم :21] .

ومعنى جعل بينكم مودة ورحمة ، أن المودة تكون بينهما فالمرأة تودُّ الرجل والرجل يودُّ المرأة ، والمرأة ترحم الرجل والرجل يرحم المرأة ؛ إذ البينية تقتضي ذلك، كما يعرف العوام ذلك في قولهم : « بيننا ثلاثة أولاد » مثلًا ؛ أي أن الأولاد الثلاثة ينتمون إلى الأب وينتمون إلى الأم ، إنهم ليسوا أبناءها وحدها ، وليسوا أبناءه وحده ، وإنما هم أبناؤهما معًا .

ومن الشائع أنّ المرأة في هذا هي التي تنتظر الرحمة من الرجل ، وكأن الرجل غني عن رحمة المرأة ، وهذا ضلال ، وفيه بُعد عن الحق ؛ فإن المرأة ترحم الرجل ، وهي دونه ذات رحم ، والرحمة معلقة بها أكثر ، وكم من نساء يعذبن أزواجهن بمطالب كثيرة ، لا تنتهي، وتتأفف ، وتتمنع بلا عذر ، وصور ذلك كثيرة ، ومن الرجال من يقولها بصراحة : «ارحميني» ومنهم من يتمنى ذلك في نفسه ، ولا تطاوعه نفسه أن يقول ذلك بصراحة لكن كل شعرة فيه تنطق قائلة : «ارحميني» ، ومن الزوجات من لا تجيد قراءة الحال ، فتستمر على ما هي عليه من تعذيب لا تراه تعذيبًا ، ويضطر الزوج الكاظم غيظه إلى حربها وتهديدها وعنادها ، والتظاهر أمامها بأنه غني عنها ، وأن بمقدوره أن يستبدل زوجًا مكان زوج ، على ألا يؤتي إحداهما خصوصًا المعذبة - بكسر الذال المشددة - قنطارًا ولا درهمًا .

وقد ترفع الزوجة صوتها إثر مناقشة حادة ، ومن فرط ما تعانيه من ظلم أو قسوة حدثت منه أو من أحد يتعلق به ، من أمه أو أخته أو أخيه فيقول الزوج :

- أترفعين صوتك في وجهي ؟!

ولمثل هذا الزوج أقول : التمس لزوجتك عذرًا إن رفعت صوتها لأنك كم رفعت صوتك في وجهها ووجه أهلها ، والدنيا جميعًا من حولها ، وتذكر ما قلت حين قال لك القائل : لم رفعت صوتك؟ ، فقد قلت ساعتها : ألا ترى كذا وكذا ؟!

فكن لسان زوجتك ، إن لم تقل هي بلسانها : ألست ترى كذا وكذا ؟!

وخير الناس أعذرهم للناس ، ثم إنك لو رحمتها فكنت عادلًا في حكمك ، وانتصرت لها بأدب من نفسك أو من أهلك لما سمعت لها صوتًا إلّا صوت الشكر والعرفان .

قالت : جاءتها أم زوجها ، وفعلت ما فعلت من منكر وشتمتها وشتمت أهلها ، وعابتهم جميعًا ، فلما قالت لها كلمة ما كان من الزوج إلا أن قال لها :

- كيف تقولين ذلك لأمي ؟!

- ألم تسمع ما قالت ؟!

- وماذا قالت ؟

- قالت كذا وكذا وكذا ....!

- وماذا فيه ؟

- فيه إهانة .

- لا ، أمي شيخة المؤدبين ، وأستاذة في الذوق .

- يعني ؟

- يعني أنكِ أنتِ قليلة الأدب .

- والله هذا ظلم ، وما قلة الأدب إلا عند أمك وقامت القيامة ، واتهمها زوجها بأنها.. وأنها .. وأنها ....!

يا هذا إن أمك بشر ، وهي تخطئ كما يخطئ البشر ، وتصيب ، وكان بوسعك أن تقول لأمك :

- رفقًا يا أمي بزوجتي ، هوني عليها ؛ فهي ابنة كرام وهم أهل ولدي ، وأنسابي ، وقد حدث كذا بسبب كذا ، وأزلتَ اللبس من عند أمك لهان الأمر على زوجتك .

وكم من زوجة قالت : « كلهم عليّ » ، فهل من العدل أنْ يكون جميع الناس ظالمين إلى هذا الحد ، وهل تطلب من زوجتك أن تسمع الأذى ، ولا ترد ؛ لأن المؤذية أمك ، وهل هناك سبب اسمه « أمك » أي إنّ أمك لا تعرف الخطأ ، وليس هذا من الإنصاف والله -عز وجل- يقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء : 135] .

وكما أنّ الزوج يرحم زوجته بالتجاوز عما يحدث من السيئات منها ، ترحم الزوجة زوجها كذلك ، فكلاهما بشر ، والغلط لا يسلم منه بشر .

بعض الزوجات ترى زوجها على علاقة بـ (الشات) فتقول إنه فاسد ، وإن صلاته بلا ثمرة ، وخلقه معوج . ولا شك أن الجلوس أمام الشات نقيصة وعيب ، وخبل وضياع للوقت وإهدار لقيمة بين يديه ، ولكنه بشر فلو أنها حدثت نفسها بأنها مقصرة ، وأنها تركته للخيال وعالجت أمرها ، ودنت منه برفق ، وعالجته بحكمة فلم تصارحه بأنه منحرف عن الجادة ، وأنه بذلك فاسد فاسق فلا تعظم نفسه بين جنبيه ، ويرى قيمته عند زوجته قد قلّت وفي ذلك إحباط له ، وسعى في استمراره على انحرافه ، أو أنها نصحت له بطريقة غير مباشرة ، فكانت ذواقة لمعاني الخير ، وقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه كان يعرف المخطئ ، ويقول : « **مَا بَالُ أَقْوامٍ يَفْعلونَ كذا وكذا** » دون أن يواجهه بما فعل ؛ ليكون أهون عليه وأرفق ، وأجدى في النصح والإرشاد ، لو فعلت ذلك لرحمته ، والراحمون يرحمهم الرحمن .

رعاية كرامة المرأة من الرحمة

عبد الله بن أبي ربيعة -رضي الله عنه ورحمه - كان قد تزوج ابنة حفص بن المغيرة عند عبد الله بن أبي ربيعة ، فطلقها تطليقة ، ثم إن عمر بن الخطاب تزوجها بعده ، فَحُدِّث أنها عاقر لا تلد ، فطلقها قبل أن يجامعها فمكثت حياة عمر ، وبعض خلافة عثمان بن عفان ، ثم تزوجها عبد الله بن أبي ربيعة وهو مريض لتشارك نساءه في الميراث ، وكان بينها وبينه قرابة[1] ذكر ذلك الإمام الشافعي - رحمه الله - في كتابه الأم في باب نكاح المريض ، وشاهده أنه يصح نكاحه ، وذكر في الصفحة بعدها ؛ يقول : إن عبد الرحمن بن أم الحكم وهو في مرض موته أراد أن يخرج امرأته من ميراثها منه فأبت ، فنكح عليها ثلاث نسوة وأصدقهن ألف دينار ، كل امرأة منهن ، فأجاز ذلك عبد الملك بن مروان ، وشرك بينهن في الثمن[2] .

(1) الأم 4/ 173 .

(2) المصدر السابق 4/ 174.

فانظر الفرق بين هذين الرجلين ، كان كلاهما في شكواه ؛ أي في مرض موته ، تزوج أحدهما مطلقته التي طلقها عمر قبل أن يدخل بها ، لتشارك نساءه في الميراث بينما تزوج الآخر عليها لتشارك الأخريات في الثمن ، ولم تكن واحدة منهن في حاجة إلى مال ، فرجل يتزوج ليرحم ورجل يتزوج ليضر ، فلا بد أن يكون هناك فرق .

إن غاية ما يقال هنا أن المحافظة على كرامة المرأة من أهم سبل الرحمة ، لا أقول بأن يتزوجها رحمة بحالها - وهذا وارد كما فعل عبد الله بن أبي ربيعة - وإنما أعني ألا يعرضها زوجها للإهانة ، ولذلك صور متعددة منها بُخْلُ الزوج ومنها الحرص على الاستغلال ؛ فكم من زوج يذل زوجته بالتعرض لأهلها ، والنيل من طعامهم وشرابهم ، يأمر أحد الأزواج زوجته أن تذهب إلى بيت أهلها أو أختها لتعود إليه بالخيرات - والويل لها إن عادت صفر اليدين ، أو عادت ذات مرة بنقص عما عادت به قبل تلك المرة ، وإن قالت له: إن ظروفهم بالأمس كانت طيبة وهم الآن يعانون قال لها رادحًا في القول : لا ، ولا ، ثم لا، إنه حرصك عليهم ، أما زوجك فلا اعتبار له عندك ، ولا قيمة .

ومن الأزواج مَنْ يقول لزوجته بعذر وبغير عذر : تصرفي .. تصرفي .

وهي تقول له : وماذا أفعل ؟

رهنت ذات مرة حليها وكان زهيدًا من أجل أن تأتيه بالمبلغ الذي كان في حاجة إليه ، فلما تكرر ذلك قال لها الصائغ - وكان شابًّا - :

- لا داعي إلى الرهن ، فنحن جيران ، والجيران بعضهم لبعض .

- صدقته ، وأخذت منه قرضًا ظنته حسنًا ، فلما احتاج زوجها بعد ذلك ذهبت إليه لترهن ، فإذا به يقول لها :

- أليس من المعقول أن نسدد القديم قبل الرهن ، فلما قالت له إنها محتاجة ، ولا تستطيع ، ساومها وراودها عن نفسها بما عليها فما كان منها إلّا أن جرت من المحل ،

وذهبت إلى محل آخر ، وباعت حليها ، ورمت بما عليها في وجه هذا الشاب الصائغ ، وهي تقول :

- أعوذ بالله من مثلك .

فلما استقل زوجها ما بقي بعد سداد الدين القديم قصت عليه ما كان ، فما عظم ذلك عنده ، بل شرع يلومها قائلًا :

- وما الذي كان يريده منك ؟ إن المرأة الجادة لا يستطيع شيطان أن يغلبها ، فهي أم الشياطين ، وكان بوسعك أن تجاريه ، فاستصغرته ، وسقط من نظرها ، وقالت له : لولا الأولاد ، ألا قاتل الله الخلفة ومن يرغب في الخلفة من إنسان ليس فيه من الإنسانية إلّا القدرة على الإنجاب ، وتالله لو سمعتك ذات مرة تقول : تصرفي تصرفي لأخبرت بذلك إخوتي وحكيت لهم القديم والجديد ، ولفارقتك يا ابن الناس ولو رأيت أولادي أشلاء بين يدي .

وليس كل امرأة قادرة على أن تسلك هذا السلوك فهناك من تخضع لداعية السوء ، وترتكب الآثام بسبب الحاجة فمن رحمة الزوج بزوجته أن يوفر لها حياة كريمة ، يعينها بذلك على طاعة الله - عز وجل - وعلى أن تمكنه من نفسها وقلبها ؛ إذْ مع الحاجة لا رغبة ولا شهوة ، ولا متعة ، ومن الأزواج من يكره زوجته على استعمال الأدوات البالية القديمة وهو قادر على أن يأتي إليها بأحسنها وأحدثها .

ورحم الله أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - حيث تزوجت الزبير بن العوام ، حواريّ رسول الله - ﷺ - ولم يكن له غير فرس ، وكان على أسماء أن تعلف الفرس ، وكان ذلك يتعبها ويضنيها ، فلما بعث إليها أبوها الصديق بخادم يكفيها مؤونة الفرس قالت : « كأنه أعتقني » .

أي كأنها كانت أمة مملوكة ، ولا تملك من أمر نفسها أن ترتاح ولو قليلًا ، كلما هبت وتهيأت للنوم ناداها سادتها أن هبي وقومي ، ولا تملك إلّا أن تستجيب ، والفرس لا يهدأ

فهو كائن حي ، لا يقول للطعام لا ، فلما بعث إليها أبوها بخادم كفاها ، نالت راحتها ، ولم يكن لزوجها أن يوفر لها خادمًا يومئذٍ .

وكم من زوج قادر على رحمة زوجته بأن يوفر لها خدمًا لا خادمًا ، أو أن يعينها هو على مهام البيت أو يأتي لها بأداة ، ولكنه لا يفعل ، ويرى أن ذلك من الترف بل إن العجيب أن إحدى الزوجات قالت : إن زوجها يدفع في الشهر مبلغ ألفين من الجنيهات لأربع خادمات ، واحدة لأمه ، وأخرى لأخته ، وثالثة لزوجة عمه ، ورابعة لمستوصف خيري ، يتبرع بها لوجه الله - تعالى - . أما هي فلا ، تقول : من فضلك ، فيقول : لا ، تقول له : ارحمني ، فيقول : امرأة تأتيك كل شهر لتنظف لك السجاجيد لا غير ، فهل يُقبل منه هذا؟! وهل ذلك من الرحمة بي ، إنه يعاملني كأنني خادمة ، ويقول : « اليد البطالة نجسة فاعملي » ، فهل قال ذلك لأمه أو لأخته أو لأحد ممن يحتسب عند الله الأجر بخدمتهم ؟!

هل الزواج قطيعة؟

لعل أبرز سبيل إلى الرحمة أن يرحم الإنسان مشتاقًا إلى أهله وديارة ، وقد جاء في الصحيح أن جماعة من الشباب قصدوا المدينة المنورة ، وأقاموا بها مدة على عين رسول الله - ﷺ - يعلمهم الدين ، فأحسَّ النبي - ﷺ - بشوقهم إلى ديارهم وأهليهم دون أن يصرحوا بذلك فأمرهم بالرجوع والعودة إليهم ، وقال : «**إِذا حَضَرتِ الصَّلاةُ فَليؤذِّنْ أَحَدُكمْ ، وَليؤُمُّكُمْ أَقرؤُكم**»[1] .

هذه روح الإسلام التي تمثلت في خير الناس وسيدهم محمد - ﷺ - ، فكيف يمكن استثمار هذا المعنى في باب الرحمة بين الزوجين مع مراعاة البينيّة ؟

والجواب أن الرجل قد يصر على أن تقاطع زوجته أهلها ، فهل الزواج قطيعة ؟ وهل العلاقة بينهما علاقة تسلط وهيمنة واستغلال نفوذ ؟

(1) رواه البخاري.

إنه أخذها من بين أهلها الذين عاشت معهم عمرًا طويلًا وروحها معلقة بهم ، وفي بيتهم أنفاس صباها ، وعلى بلاطه أولى خطواتها على الأرض ، لها معاهد لذة وذكريات عمر ، وحنينها إليهم من الفطرة السوية ، والمسلَّمات الطبيعية ، فكيف يقسو عليها زوجها إلى هذا الحد ، فيعلق طلاقها على زياراتها لهم ، أو زياراتهم لها ، أو كلامها معهم أو كلامهم معها ولو عن طريق الهاتف ؟! ومن الأزواج مَنْ يفعل ذلك دون سبب ظاهر ، وهؤلاء مرضى ، وقد تقول لك امرأة : إن زوجها يحرمها ذلك ويحرمه عليها مع أنّ أهلها يحترمونه ويقدمون إليه الجميل ، ويضعونه فوق رءوسهم ، ومنهن من تقول : إن زوجها ذهب معها في ليلة إلى زيارة أهلها ، وكان هنالك خطيب أختها فاهتموا به أكثر منه ، فهبَّ واقفًا وأمرها أن تتبعه ، ولما وصلا إلى المنزل قال لها : لعلك لاحظت إهانة أهلك لي ، فقالت :

معاذ الله ، لم يهنك أحد ، لقد كانوا جميعًا سعداء بك . قال : ادخلي في عبي ادخلي ، لقد اهتموا بخطيب أختك أكثر مني ، مع أنه دبلوم وأنا مهندس وخريج جامعة وهذا الولد مثله يعمل تحت يدي وفي خدمتي ، فوقي يا هانم ، وذكر لها بعض الأمور التافهة ، وقد ردت عليه ردًّا مقنعًا ، حين قالت له : لا تنس أنه في حكم الضيف . أما أنت فرب المنزل ، والمرء لا يُكْرَم في داره ، وهو جديد ، وكل غربال جديد له شدة ، فصاح وقال :

- أنا لست غربالًا قديمًا يا جاهلة ، اسمعي ، من الآن لا علاقة لنا بهؤلاء الناس ، وأنا أخبرك ، إما كرامة رجلك وأبي أولادك وإمّا هؤلاء الناس ، ولو كلمتهم مجرد كلام تكونين عليّ حرامًا .

فهل هذه رحمة بها ، أو بهم ؟! وهل التعنت من خلق المسلم ؟! وهل تؤدي الغيرة إلى هذا الظلم ؟! أما كفى أن يعلم المهندس قدره في نفسه ؟! وهل نظر في سلوكه هذا ، وأنه حين هبَّ واقفًا وأمرها أن تتبعه يؤثر في هذا الخطيب ؟! فقد يسأل : ما هذه المعاملة المريبة وقد يتأثر به ، فيقلده إن تمت زيجته بأختها .

ثم هل يرضى لابنته أن يخيرها زوجها في المستقبل بينه وبين كرامته ، فتختار كرامة زوجها على صلتها بأبيها ؟! هل يرضى أن يربي بنته ويشقى في تعليمها وتثقيفها وتهذيبها ويراها قد صارت شابة يافعة ، فلمَّا زوَّجها أخذها الغراب وطار؟!.. أم أنه يفعل كما فعل صنوه ، ورفيق فكره حين سُئل السؤال نفسه فقال :

- لا أرضى .

فقال له السائل :

- إذًا فكن عدلًا منصفًا .

- فقال : أنا نقرة والناس جميعًا نقرة !

ويا ليته سمع حديث النبي - ﷺ - : « ... **مَا لا تَرْضَاهُ لأُمِّكَ وَأُخْتِكَ لا يَرْضَاهُ النَّاسُ لأُمَّهَاتِهِمْ وَأَخَواتِهِمْ** »[1]. وقوله - ﷺ - : « **كُلُّكُمْ لآدمَ وآدَمُ مِنْ تُرابٍ** »[2] يا صاحب النقرات اعلم أنه لا فضل لأحد على أحد إلَّا بالتقوى .

ونحن إذا راعينا البينيَّة كما قلت أخذنا في الاعتبار بعض الحالات التي تكون الزوجة فيها على هذا المستوى من القسوة ، فكم من زوجة قطعت علاقة زوجها بأمه وأخته المطلقة أو الأرملة التي هي في حاجة إلى بره وصلته وعطفه وحنانه .

خيَّرته كذلك ، وقالت : أنا في كفة وهؤلاء في كفة أخرى وعليك أن تختار ، فالمسألة مسألة كرامة ، وهؤلاء جرحوا كرامتي وكرامة أهلي ، ومحال أن يخاطب لساني لسانهم ومنهن من تقول : وأنت حر مع أهلك ، وأنا لا أقول لك قاطعهم ، وكأنها تقول : قاطعهم بالأمر ، وذلك عن طريق النبرة المعروفة ، ومن الرجال من يعجز ويضعف ويعرف أن زوجته مكدرة عليه صفوه إن وصل أخته أو أمه .

ونحن نقول : سبحان الذي جعل بين الزوجين سكنا ومودة ورحمة ، ومن الرحمة أن نشجع الواصل ، وأن نعينه وأن نُذَكِّرَ القاطع بسوء العاقبة ، وأن يرحم بعضنا بعضًا في

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الترمذي.

وجدانه وعاطفته ، فتلك القسوة جريمة وأهل الإجرام ظمأى والماء أمام أعينهم يجري قراحا!

التعاون على الرحمة

صحيح أنها كانت تطير من الفرحة كالعصفور ، فتاة صغيرة ، لم تبلغ العشرين من عمرها ، فقد كان قدومه إليها قدوم الغيث على الأرض الموات ، لما نزل عليها اهتزت وربت ، ابنة أسرة فقيرة في قرية منعزلة عن الدنيا والعالم ، جهاز تلفازهم عليه آثار الدهر، كأنه قطعة صخر ، بها حفريات الزمن القديم ، وهي مع وجود سرير في دارهم ما زالت تنام على حصير ، تحمل فوق رأسها ما تحمله الفلاحات الأميات ، لم تقل ولن يقبل منها أحد أن تقول : إنها جامعية ؛ فهي قروية ، تخفف عن أمها الحمل ، وتشارك أختها التي خرجت من المدرسة وهي في الصف الرابع الابتدائي ، أعمال المنزل .

فلما جاء الضيف الكريم من القاهرة إلى تلك القرية زائرًا جارًا لهم كان زميلًا له ، رآها ، وعزم على الزواج بها ، وجاء أهله من المدينة بالجاتوه وصنوف الفاكهة ، وقالوا : إن ابننا يعمل في وظيفة مرموقة ، وله شقة متوسطة ونحن فيكم راغبون .لم يزد أبوها على الترحيب والإعراب عما ناله من شرف بهذه الخطا ، وقوله مداعبًا إياهم :

- ولكن كيف ترك ابنكم القاهرة الواسعة وجاء إلى قوم فلاحين (غلابه) مثلنا ليخطب ابنتهم .

قال أبوه :

- الأصل الكريم يا حاج .

وقالت أمه :

- كلنا فلاحون يا حاج .

ونظر إليها هو (من تحت لتحت) ، فهمت من خلال تلك النظرة أنه أحبها واصطفاها على جميع بنات الدنيا خصوصًا القاهرة ؛ فهي ذات جمال نادر ، وبعد أن تمت

الخطبة صارت النظرة مصحوبة بالكلمة ، واقترنت العينان بالبيان فازدادت به تعلقًا ، وتبسطت وتسامحت في العبارة حين قالت :

متى ستأخذني من هذا الشقاء ؟! .. لطالما طال شوقي إلى مدينتك ، والعيش في شقتك .

لم يكن يدري أنه بعد زواجه منها بأسبوع سوف تقول : ازددت وحشة إلى أهلي ، وأمي رأيتها في منامي ، أختي قلبي يأكلني عليها ، يا ترى ماذا بك يا والدي ، لم يتصل بي بالأمس ، ولم تكن تدري أنه عندما قال لهم : سوف نكون دائمًا على اتصال بكم ، وزرونا في أي وقت ونحن طبعًا سنأتيكم ، لقد صرنا أهلًا وأسرة واحدة ، إنما قال ذلك في لحظة نشوة كاللحظة التي تعتري السكران وينسى كل ما فيها بعد أن يفيق ، فلقد كره زيارة أهلها بالذهاب إليهم والمجيء إليه ، إن المسافة بعيدة بينه وبينهم وهو هناك في الليلة اليتيمة التي يقضيها لا ينام ، وهم إذا شرفوه لا ينام كذلك ، قال لها بصريح العبارة :

– هذه عيشة لا طيب فيها ولا راحة ، اسمعي يا هذه لا تسأليني أن أسافر إلى بلدك، أنا لا أحب الفلاحين .

– ولم تزوجت منهم ؟!

– قدري ومكتوبي ، ثم قولي لي ، ألم تكوني على علم بأنك ستعيشين بالقاهرة ، وكنت تطيرين فرحًا وتقولين : متى تأخذني من هذا العذاب ؟

– وهل صدَّقت قولي ؟

– إذًا كنت تكذبين .

– أنا لم أكذب ، ولا أعرف الكذب ، إنه تعبير فرح .

– وهل سافر عنك الفرح ؟!

– نعم سافر بتلك القسوة ، إنهم أمي وأبي وأختي .

– الآن صاروا أمك وأباك وأختك .

– وهل قلت لك قبل ذلك إنهم ليسوا كذلك ، والوحشة يا أخي ، إنك ترى أمك كل يوم .

– لأن أمي إلى جواري .

– ولو كانت عنك بعيدة ؟!

– أسافر لها ولو كانت في آخر الدنيا .

– أليست أمي مثل أمك ، ورغبتي في رؤية أمي كرغبتك في رؤية أمك ؟!

– لا ... يا هانم ، الرجل غير المرأة !

– بمعنى ؟

– بمعنى أن المرأة ليس لها إلّا بيتها وزوجها .

ولمثل هذا الزوج أقول : إن هذه المقولة محمولة على المبالغة ؛ فاحذر أن تظن أن مقولة « الزوجة ليس لها إلّا بيتها وزوجها » على الإطلاق والحقيقة ، نعم ليس لها إلّا بيتها وزوجها ولها أيضًا أبوها وأمها وأخوها وأختها ، وأهلها وعشيرتها ، فارحم ، وتعاون على الرحمة واسمح لأهلها مرة واسمح لنفسك مرة وتبادلوا الزيارات لتعم المسرات كل بيت.

مع العابدين

كان سلمان الفارسي أخًا لأبي الدرداء واسمه عويمر بن عامر ، وقد زاره سلمان يومًا فوجد امرأته مبتذلة فسألها ، فقالت أخوك أبو الدرداء ، لا حاجة له في الدنيا ، فلما دخل عليه جاءه أبو الدرداء بطعام ، وقال :

– كُلْ .

فقال سلمان :

– ألا تأكل معي ؟

قال أبو الدرداء :

– إني صائم .

فقال سلمان :

- لا آكل حتى تأكل معي ؛ فجلس وأكل معه ، وكان صائمًا صيام نافلة .

فلما جاء الليل قام أبو الدرداء يصلي ، فقال له سلمان : نَمْ ، فنام ، فلما كان الثلث الأخير من الليل صَلَّيَا معًا ، ثم قال له سلمان فيما رواه البخاري في صحيحه : «إِنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيكَ حَقًّا ، وَلِزَوجِكَ عَلَيكَ حَقًّا ، وَلِرَبِّكَ عَلَيكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ » .

فلما أصبح حكى أبو الدرداء ذلك للنبي - ﷺ - فقال : « صَدَقَ سَلْمانُ » .

والشاهد أن بعض العابدين الراغبين في الخير الزاهدين في متاع الحياة الدنيا يهملون زوجاتهم ، وللزوجة حق على زوجها ، يداعبها ويلاعبها ويعاشرها ، ويحاورها ويعاونها ويلاحظها ، وهو بذلك كله يبتغي فضل الله ورضوانه فمخطئ مَن يظن أن ذلك السلوك تحقيق رغبة وموافقة هوى واتباع شهوة ، وأن هذه هي الدنيا ، والدنيا تجرف الناس حتى تنتهي أعمارهم فجأة وما قدموا لآخرتهم من عمل صالح ، فإن سألتهم عن العمل الصالح أجابوك فقالوا : قيام الليل ، وتلاوة القرآن الكريم ، وكثرة السجود .

ومن كلمة السجود أنطلق فأقول : إن لدينا سجودًا خاصًّا هو السجود المعروف في الصلاة ، ولدينا سجودًا عامًّا وهو طاعة الله - عز وجل - في كل شيء ، فالذي يلتزم شريعة الله -عز وجل - ساجد له - وإن لم يضع جبهته إلى الأرض . وقول النبي - ﷺ -: « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »[1] لا يخرج عنه المعنى الثاني الذي هو عام، وإن تبادر إلى جميع الأذهان أنه - ﷺ - يعني أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد سجود الصلاة المعروف . والدليل على أنّ المعنى فيه متسع للسجود العام، الذي هو بمعنى الطاعة أنّ الله - عز وجل - يقول : ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة : 152] . وذِكْرُ الله - عز وجل - معناه ذِكْرُ أوامره ونواهيه على العموم، والالتزام بأحكام دينه ، وذلك سبيل إلى ذكره إيانا، وهل يكون الذِّكْر إلّا عن قرب.

(1) صحيح مسلم.

وهو - عز وجل - القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة : 186].

ومستجاب الدعوة أقرب ما يكون من ربه ، وفي رواية : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبدِه وَهُوَ سَاجِدٌ » . وهل يكون العبد مستجاب الدعوة إلّا عن طريق طاعته لربه ، والتزامه بما أمر ونهى ، يمتثل للأمر ويتجنب النهي ، ومن كثرة السجود أن يراعي المرء أهله، وأن يعطي كل ذي حق حقه ، وللزوجة حق المعاشرة والملاطفة والمؤانسة ، وطيب القول ، وفي ذلك رحمة بها .

لقد اشتكت زوجة إلى الله ، وجاءت أحدَ العلماء فقالت : زوجي عضو في جماعة صوفية ، يعمل الحضرة عندي كل شهر مرة ، وأقوم بخدمة ضيوفه وإعداد الطعام لهم والشاي والقهوة والحليب والسحلب والحلبة وغيرها منذ طلوع الفجر إلى طلوع فجر اليوم التالي ، وبقية الشهر يحضر معهم حضراتهم في بيوتهم ، ويعود آخر الليل لينام ، وحين قلت له : ألا تُقلُّ من هذه الحضرات وتلتفت إليَّ وإلى أولادك وصحتك ونومك ؟

قال لي : توبي إلى الله واستغفري ، واعلمي أن ما نحن فيه من خير بسبب الذكر والصلاة على النبي - ﷺ - وهو يصلي على النبي - ﷺ - كل ليلة عشرة آلاف مرة ، وفي بعض الليالي يكون حوارنا على النحو التالي أقول : يا أبا فلان ، فيرد :

- صلى الله على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نعم .

- إن ابنك فلانا حدث له في المدرسة اليوم كذا ، فيرد عليَّ : صلى الله على محمد ، صلى الله عليه وسلم .. ماذا تقولين ؟ فأكرر سؤالي :

- حدث للولد كذا ، وهم يريدون في المدرسة مقابلة ولي أمره ، فهل تذهب معه غدًا إن شاء الله ؟ فيرد :

- صلى الله على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، آ ... آ.... ، صلى الله على محمد ، صلى الله عليه وسلم .

فأقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمد ألف مرة ، المهم ماذا قلت ؟ فيقول :

صلى الله على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، اللهم اخزيك يا شيطان . سألت نفسي : هل هذه طريقة حوار ، ألا يمكن أن نتحدث كما يتحدث الناس، ونصلي على النبي - ﷺ - قبل الحديث ، ونصلي عليه - ﷺ - بعد الحديث ، إنني أريد جملة مفيدة في دقيقة واحدة، وورائي مطبخي وبيتي وأولادي . والله يعينه على الذكر والصلاة على النبي - ﷺ - ثم أسأل هذا السؤال وإن كنت محرجة وأخشى أن أكون متجاوزة حدود الأدب مع الله ورسوله : هل يرضي رسول الله - ﷺ - أن يهجرني هذا الذاكر المصلي على النبي بالشهور؟!

والجواب : لا ، فقد قال - عليه الصلاة والسلام - : « صدق سلمان » ، أي أقرَّ - ﷺ - أن يعطي المسلم كل ذي حق حقه .

المبالغة في العتاب

لعلنا نتعلم من قول الله - عز وجل - : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : 3]. هذا الدرس العظيم في العتاب وهو عدم الاستقصاء والاستقراء فيه ، إن التتبع في العتاب واستقراء كل صغيرة وكبيرة يعذب من تعاتبه ، والرحمة غير العذاب ، فإذا كنت ترغب أن تعاتب زوجتك وإذا كنتِ ترغبين أن تعاتبي زوجك فابتعدا عن هذا الاستقصاء ، فإن رسول الله - ﷺ - قد عرّف بعض الحديث وأعرض عن بعض ، وهو القائل :«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِه وَأَنا خَيرُكُمْ لأَهْلي ». ومن الخير أن يكون المرء رحيمًا بزوجته ، ومن السوء والفحش أن يكون قاسيًا عليها وأن تكون قاسية عليه ؛ إذ الحياة قلما تستمر على هذا المنوال من القسوة الدائمة ، وفي هذا الموضوع بالذات ، فبعض الأزواج إذا عاتب استقصى ، بل إنه قد يصلي على النبيّ - ﷺ - يستعين بهذه الصلاة المباركة على تذكر ما نسي ، يقول : ثم كان منك يوم كذا يوم كان على الباب كشاف

النور ، لا لم يكن كشاف النور ، كان مَنْ ... كان مَنْ يا ربي ! اللهم صلِّ على سيدنا محمد .. نعم ، كان كشاف الغاز ، وقلت لك كذا بأمارة كذا ، ورددت عليّ ، فقلت : كذا وكذا والرجل يسمع ، ساعتها لم أطور الموضوع ، ولم أشأ أن أقول لك حرفًا واحدًا ورجل غريب يسمعنا ، ومع ذلك رفعت صوتك وأرغيتِ وأزبدتِ ، ومن قبل ذلك بيومين حين قلت لكِ : سكتي الولد ، أريد أن أنام ، فقلت لي : وماذا أفعل معه ، إنه لا يريد أن ينام ، ولا يريد أن يسكت ، ثم إنه لا يأتي بذلك من بعد ، إنه وارث منك رفع الصوت ، وإلّا ليلة ما كانت عندنا أمك ، وشوفي يا ماما ، وحصل يا ماما وحصل وحصل ، وفعلت كذا وكذا .

وصدق النبي الكريم - ﷺ - حيث قال فيما رواه البخاري في صحيحه : « مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ ». وهل بعد هذا التصور للعتاب من مناقشة ، إنها مناقشة تفصيلية ، ويا ليتها مناقشة تفصيلية لمواقف الجمال كيوم الطين ؛ قيل إن رجلًا وامرأة كانا خادمين في قصر وقبل وفاة صاحبه كتب لهما هذا القصر ؛ حيث لم يكن له وارث فأصبحا مالكين منعمين ، وفي يوم من أيام الشتاء أرادت امرأته أن تنزل من حجرتها إلى حديقة القصر لتمشي في طين المطر فنزل زوجها واشترى لها حذاء من ذهب ، وقال : امشي به في طين المطر ، جزاء حسن عشرتك وصبرك على أيام فقري ، فوضعت رجليها في الحذاء الذهبي، ونزلت تتبختر بين الشجر ، وتنعم بالمشي في حذاء ذهبي تتساقط فوق رأسها حبات المطر، وتتذكر أيام الفقر حيث كانت تمشي في هذا المكان نفسه ، ولكن خادمة مأمورة وهي اليوم تمشي مخدومة آمرة !

وبعد سنة من مرور هذا اليوم حدث بينها وبين زوجها شيء كالذي يحدث بين الأزواج ، بل كالذي يحدث بين الأحياء جميعًا ؛ فقالت له :

- والله ما رأيت منك خيرًا أبدًا !

فابتسم الزوج وقال :

- حتى ولا يوم الطين ؟!

أي حتى ولا يوم الطين الذي أتيت إليكِ فيه بحذاء من ذهب من أجل نزهتك بين الشجر ؟! يريد أن يذكرها بخير ما زال موجودًا تحت رجليها وإن رفعته في مكان عال ، فلو أن الرجل ذكر امرأته بمآثر الكرم والجود – وهي كذلك – دون مَنٍّ أو أذى لكان ذلك طيبًا ، فالله – تعالى – يقول في خاتمة سورة الضحى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى : 11] . فالتحدث بالنعمة من توجيهات الذكر الحكيم ، ومن منهج الإسلام وسبيل المؤمنين .

إن الحديث عن النعمة سبيل لاستدرار النعمة ، وقد قال النبي - ﷺ - لرجل من الصحابة هَمَّ بحلب ناقة : « دَعْ دَاعِي اللَّبَنَ » أي اترك فيها بعض اللبن ولا تحلبها حتى لا تبقي فيها شيئًا ، فإنَّ ما تتركه فيها يدعو غيره ، فيكثر اللبن .

وأنا أقول : دَعْ للقلب متسعًا ، ولا تضيق عليه فتخنقه بهذا الاستقصاء في العتاب ، حتى مع ولدك أو والدك أو صاحبك أو جارك ، فالنفس البشرية لا تطيق من ضيَّق عليها بذلك .

ألست ترى عشرات النماذج من البشر قد عاتب بعضهم بعضًا بهذه الطريقة فانتهوا إلى خصام أشد؟! ، قال لي شاب إنه يسكن بالقاهرة ، وزوجته من دمياط ؛ وقد غضبت فاستأذنته في السفر إلى أهلها يومين تروِّح فيهما عن نفسها فأذن لها ، وبعد أسبوع ذهب وراءها ليعود بها وحين لقي أهلها بدأ العتاب ، وهو يقول ، وهي تقول ، وكان في المجلس بعض الأهل والأقارب ، فقال قائل منهم :

- دي عيشة مش نافعة !

فقال الزوج : أي والله !

فقالت : إذًا كل واحد يروح لحاله ، وهبَّ أحد الحضور وأحضر المأذون وتم الطلاق ، وعاد وحده بدونها . فهل أثمر الكلام الكثير عن خير ؟! وهل كان هناك متسع للاكتفاء بالقليل الذي يجلب الاعتذار السريع وينتهي الأمر بعودة زوجين متآلفين إلى بيتٍ كان ينتظر ذلك ؟!

الرحمة بالصغير

لله در شوقي حين قال :

وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ ... هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ

حيث جعل الرحمة في الوالدين ، وقوله : هذان في الدنيا هما الرحماء بصيغة الجمع خبر عن المثنى لتوكيد القصر ، ومعنى ذلك أنه لا أحد في الدنيا رحيم إلّا الأم والأب .

ولا شك أن هناك رحماء آخرين كثيرين لكن الرحمة من الوالدين نبع صاف غير مشوب بكدر ، وعطاء بلا حدود ، وأكرم ما في عطاء الوالدين أنه عطاء بلا انتظار لأجر ، أو مقابل .

قلَّ في الدنيا من يرحمك لذاتك ، ولا يرجو منك شيئًا ، أما والداك فيرحمانك وهم لا يرجوان منك شيئًا .

وقد ثبت في الحديث الصحيح الذي روي في الصحاح عن أنس - رضي الله عنه - قوله - ﷺ - : « إِنِي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطِيلَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاتِي مِمَا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِبُكَائِهِ »[1] .

قال المناوي : « وهذا من كريم عوائده ، ومحاسن أخلاقه ، وشفقته على أمته» ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب :43] . وقد خصه الله من صفة الرحمة بأتمها

(1) رواه مسلم.

وأعمها ، وذكر الأم غالبي ؛ فإنه كان أرحم الناس بالصبيان ، فمثلها من قام مقامها ، كحاضنته ، أو أبيه مثلًا ، والقصد به بيان الرفق بالمقتدين .

وفيه إيذان بفرط رحمة المصطفى - ﷺ - فإنه قوي عليه ، باعث الرحمة لأمه ، وغلبه مع علمه بأن بكاء الطفل وصراخه ينفعه[1] .

ومن الرحمة بالطفل إجابة دعوته ، وعدم إهمال رضاعه إن كان رضيعًا ، وإن بعض الأمهات خصوصًا الشابات تجلس أمام التلفاز بالساعات تتابع مسلسلًا أو مباراة لعب ، وطفلها يصرخ ، ويزعج صوته الجيران ، وهي متابعة الأحداث والتفاصيل ، وتهمله ، وإذا ذهبت إليه بعد أنْ يشتد صراخه التقطته برعونة وعنف ، ورفعت صوتها في وجهه ونادته بأسوأ الألقاب ؛ لأنه حرمها متعتها . قالت :

- ماذا تريد ؟ أعوذ بالله ، هذا الولد غير كل الأولاد أنا لم أر مثل هذا عمري .. تقول هذه العبارة مع أنها قد تكون المرة الأولى ، فيكون هذا الولد هو أول مولود لها ، ولكنها تقول على العادة بل إنها قد تدعو عليه بدعاء سيِّئ أن يقصف الله عمره ، وأن يُسْكت حسه وأن يصيبه بنومة لا يفيق منها أبدًا ، ونحو ذلك .

ومن الرحمة به ألا تضع أمامه ما يؤذيه أو يؤذيها وتطلب منه بالتلميح الخفيّ أن يتعامل مع الأشياء على أنه رجل كبير راشد ، يدرك الخطر من الأشياء ويعلم ما ينفع وما يضر .

يكسر الكوب الزجاجي ، فتقول له هذه العبارة :

- يا ولدي ، حرام عليك ، لم فعلت هذا؟!

فأين البلاستيك ؟!

(1) فيض القدير 3/ 27 .

وتترك سلك الكهرباء مكشوفًا ، وكأنه دَرَسَ الكهرباء ، وعلم خطرها ، فإذا اقترب منه صرخت وولولت ، وقالت :

- ألم أقل لك ألف مرة : لا تدن من هذا الخطر ؟ هل تريد أن تموت ؟

إن هذه الشابة يجب أن تتعلم درس التربية ، وألا تضع أمام ولدها الطفل ما هي متأكدة من عبثه به . عليها أن تضع أمامه لعبه والأشياء الخاصة به والتي لا تؤذيه ، وهكذا.

فارحموا أطفالكم من سماع هذه الكلمة ؛ فالله - عز وجل - كان قادرًا على أن يخرجنا من بطون أمهاتنا بأسنان ، نأكل فور نزولنا ، وإنما خلقنا هكذا أطوارًا ؛ فالطفل يرضع ، ثم بعد ذلك يأكل شيئًا يسيرًا مناسبًا ، ثم يتدرج خروج أسنانه حتى يكتمل فمه ويلتقم، ثم هو لم يزل في حاجة إلى مراعاة أهل يطعمونه ، ويرحمونه ، ويعطونه حتى يستقل بنفسه .

ومن الرحمة بالصغير أن تعجل بتقديم الخير إليه ، كالفواكه وغيرها ؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي - ﷺ - كان يؤتى ببواكير فاكهة المدينة ، فيسره ذلك ، ويتذوقها ، ويدعو بالبركة ويعطيها أصغر مَنْ حضر مجلسه ، قال العلماء : لأن الأطفال لا صبر لهم ، وهكذا تكون الرحمة بهم .

ومن الرحمة بالطفل ملاطفته ، وتقبيله وإحساسه بالدفء ، والأمن والحب والحنان.

كان النبي - ﷺ - يحمل أمامه بنت ابنته زينب وهو يصلي ، ودخل عليه الأقرع بن حابس وهو يقبل الحسن أو الحسين فقال :

- أَوَ تقبلون صبيانكم ؟

قال : «نعم» .

قال : إن لي عشرة من الأولاد ما قبَّلت واحدًا منهم .

فقال له - ﷺ - : «**وهل أملك وقد انتُزعت الرحمة من قلبك**»[1].

فانظر كيف جعل النبي - ﷺ - تقبيل الصغار من باب الرحمة الكائنة في القلب .

وحول هذه النقطة أقول :

إن بعض الناس يغرق في التقبيل ، ولكنه قاسي القلب قصير اليد ، فالعبرة ليست بوضع بصمة على خد الصبي من الشفاه ، وإنما العبرة فيمن يناوله غذاءه ، ويمده بما يحتاج إليه ، وتكون القبلة بعد ذلك كأنها جملة ختام لرسالة بليغة ، وزينة يُتَوَّجُ بها العطاء .

ومن الرحمة به تفقده ، ومعرفة ما طرأ عليه من ظهور علة وغيرها لتدارك الأمر قبل أن يستفحل ؛ لأنه عندئذٍ يكون سهلًا علاجه ومداواته ، وكذا معرفة ما طرأ عليه من خلق يقصيه عن مكارم الأخلاق ، ويبعده عن عظيم الشمائل .

ومن الرحمة به الرفق في تعليمه وتوجيهه ونصحه مع مراعاة طبيعته ، ورحم الله الشيوخ الذين قالوا : خير عِلْمِنا ما كان أيام لعبنا . وعن ابن العباس قال : كنا نصبر على تحفيظ أولادنا القرآن الكريم حتى لا يكرهوه .

مراعاة السِّن

يظن بعض الآباء والأمهات أن على الطفل أن يكون واعيًا من أول يوم ، يدرك كل شيء من أول وهلة ، فيترتب على ذلك الضيق والتضييق . ومراعاة المرحلة العمرية من أهم الأمور المرعية في تربية الأطفال .

فالله - عز وجل - يقول في الأنثى : ﴿ **أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** ﴾ [الزخرف : 18] . فقال : ﴿ **يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ** ﴾ ، وما عسى أن تكون الحلية غير الملابس والجواهر والزينة والحُلِيّ .

(1) رواه البخاري.

ما قال ربنا ينشأ في المدارس ولا في الكتاتيب ولا على يد معلمين ، ولا مربين أشداء، ولا ولا هناك .

وقال في عيسى بن مريم: ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴾ [مريم :29] .

فالصبي في المهد .

قيل المهد : حجرها ، لما روي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت إليه وهو في حجرها ، ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد .

أو المعنى : كيف نكلم صبيًّا سبيله أن ينام في المهد[1].

والنبي - ﷺ - قابل ابن أبي طلحة فسأله عن لعبته ، ولم يقل له : سمع سورة من القرآن وإنما قال : أبا عُمَير ما فعل النُّغَير ؟

وكان الأطفال كما يقول عبد الله بن جعفر ينتظرون رسول الله - ﷺ - وهو قادم من السفر على باب المدينة ويجرون نحوه ، فأيهما سبق تكن له الصدارة ، والمتأخر يردفه النبي - ﷺ - .

وذات يوم سبق عبد الله بن جعفر ، الحسن - رضي الله عنهما - فوضع النبي - ﷺ - عبد الله بن جعفر - أمامه ، وأردف الحسن خلفه ، فالذي سبق هو الذي أكل النبق ، دون محاضرات طويلة ، وعتاب وتحفيز ، وغير ذلك .

وقد تعلم زيد بن ثابت الكتابة على يد أسرى بدر يوم فدى النبي - ﷺ - من لا مال عنده منهم بأن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة وكان ابن ثلاثة عشر عامًا .

وكان من كتّاب الوحي - رضي الله عنه - وتعلم غير العربية في خمسة عشر يومًا .

(1) التفسير الكبير : 10/ 442.

وبعض الناس يكون قاسيًا ، منذ بلوغ الطفل عامين يدفع به إلى الحضانة أو يودعه في مسجد لتحفيظ القرآن ، هذا يضربه ، وهذا يدفعه . ولو كانت ميزانيات العالم الإسلامي كبيرة لكان اسم رياض الأطفال اسمًا على مسمى .

أي كانت المدرسة الابتدائية روضة واسعة وحديقة غنّاء ، يستمتع بها الأطفال ، ويتعلمون وهم يلعبون ويمرحون .

قال إخوة يوسف لأبيهم كما جاء في سورة يوسف : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : 12] .

لكنا من فقرنا نزج بخمسين طفلًا في حجرة ضيقة ، يمرحون ، ويضرب بعضهم بعضًا ، ويتسابقون ويجرحون من أجل القعود في الأماكن الأمامية ، وفيهم ضعاف النظر وفيهم الضعيف ، ولله در القائل :

فَأَرْسَلَهَا العِرَاكَ وَلَمْ يَذُدْهَا وَلَمْ يَشْفَقْ عَلَى نَغَصِ الدِّخَالِ

في رجل لم تكن من عادته رعاية الإبل وإيرادها الماء فلما غاب راعيها دُفعت إليه ، فأرسلها متعاركة ولم يشفق على صغيرها ، فآذاه كبيرها .

فأين الذي كان يوردها الماء وهو فنان بذلك خبير ، يعرف كيف يجنب الصغير ويعزله عن الكبير ، فيسقي الجميع دون خسائر ، وهذا من قيمة وجود مثله في الحياة ؛ وجود الخبير ، ووجود المربي ، ووجود الساقي ، ووجود الحاتي والطباخ ، وسائق السيارة ، والميكانيكي ، والكهربائي ، وكل ذي حرفة تدفع بعجلة الحياة إلى مزيد من الخير والإنتاج والجمال .

وقد قالت العرب من قديم : « وَفِي اللَّيلةِ الظَّلماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ » .

والوالد بدر في حياة ولده ، والأم كذلك ، ومراعاتها سن الولد في تربيته ، والتوسعة عليه ، والرفق به ، وعدم تكليفه بما لا يطيق ، من إشعاعات هذا البدر ، ومن جمال نوره .

وهو مهم في دفع الطفل إلى المرحلة التالية من سن سبع إلى سن عشر ، والمسألة أمر بالصلاة ثلاث سنوات ، وصدق الله العظيم القائل في سورة طه : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] ؛ أي أنّ الاصطبار وهو خلق دائم يتجلى في تلك المدة الزمنية الطويلة ، أمر بلا ضرب ، ورفق بلا شدة ، ورحمة بلا عذاب ، وتوجيه بلا قسوة ، وإرشاد بلا إهمال ، حياة طيبة ، وأنت إذا حسبت المسألة باعتبار عدد الصلوات في هذه المدة 12×3 = 36 شهرًا ، و 36 × 30 = 1080 يومًا ، وفي كل يوم خمس صلوات 1080×5= 5400 خمسة آلاف وأربعمائة صلاة في ثلاث سنوات بالأمر والرفق لا بالضرب .

ومعنى ذلك أنَّ خمسة آلاف وأربعمائة مرة تقول فيها لولدك صلِّ ، أو لابنتك ، لو كان حجرًا لنطق ، ثم إنك تقول له : صلِّ وهو يراك تصلي ، فهو يرى صلاة ويسمع أمرًا بصلاة .

فإن تم ذلك ووجدته منصرفًا إلى اللعب واللهو عن الصلاة وجب الانتقال إلى مرحلة أخرى ، وهي التأديب بالضرب إيلامًا لا جرحًا ، وخفة لا ثقلًا ، وتذكيرًا لا حدًّا ، وتعزيرًا لا تأثيمًا .

حتى إذا ما بلغ سن التكليف كان قد استوى على الطريقة ، ولم يشعر بثقل التكليف مفاجأة . وبعض الناس كذلك يقسو على ولده باسم الدين في الصيام ، فيحمله عليه وهو ضعيف البنية غير قادر .

وفي حديث البخاري : « رُفِعَ الْقَلَمُ عَن ثَلَاثٍ ؛ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيقِظَ » . وقد اختلف أبو حنيفة وأبو يوسف في الصبي يبلغ في نهار من رمضان ، فرأى أبو حنيفة أنه إذا أفطر فلا شيء عليه .

ورأى أبو يوسف أنه إذا بلغ قبل الزوال فعليه أن يصوم ، وإن أفطر فعليه قضاء هذا اليوم ؛ لأن وقت النية يمتد إلى وقت الزوال في حق مَنْ كان أهلًا للعبادة في أول النهار ، فصار بلوغه قبل الزوال كبلوغه ليلًا فعليه أن ينوي الصوم .

قال السرخسي : وجه ظاهر الرواية أن الخطاب بالصوم ما كان متوجهًا إليه في أول النهار ، وصومه اليوم الواحد لا يتجزأ وجوبًا ، وإمساكه في أول النهار ما توقف على صوم الفرض ؛ لأنه لم يكن أهلًا له ، فهو نظير الكافر يسلم[1] .

وفيه : لا بأس بأن تمضغ المرأة لصبيها طعامًا إذا لم تجد منه بدًّا ؛ لأن الحال حال ضرورة ، ويجوز لها الفطر لحاجة الولد ، فلأن تمضغ الطعام أولى ، فأما إذا كانت تجد من ذلك بدًّا يكره لها ذلك ؛ لأنها لا تأمن أن يدخل شيء منه حلقها ، فكانت معرفته صومها للفساد وذلك مكروه عند عدم الحاجة ، قال - ﷺ - : « مَنْ حَامَ حَولَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ »[2] .

(1) المبسوط : 3/ 103.

(2) المصدر السابق : 3/ 111 .

الباب الثاني
السبيل إلى ذرية طيبة

الفصل الأول : سبيلنا إلى ذرية طيبة.

الفصل الثاني : مآسي الأطفال.

الفصل الثالث : الأسرة في زمان الشدة.

الفصل الرابع : حسن معاشرة الأهل.

الفصل الأول

سبيلنا إلى ذرية طيبة

ذرية طيبة

كان دعاء زكريا - عليه السلام - كما جاء في سورة آل عمران أن يرزقه الله ذرية طيبة ؛ قال تعالى :﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: آية - 38] ، والآية بعدها يقول الله -تعالى- : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران 38] .

وفي سورة مريم يقول الله - عز وجل - : ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم :12-15] .

ومن مجموع ما سبق يمكن أن نقف على معالم الذرية الطيبة ؛ وهي تتمثل في :

1- الصدق .

2- السيادة .

3- الصلاح .

4- العلم .

5- الحكمة .

6- الحنان .

7- الطهارة .

8- التقوى .

9- بر الوالدين .

10- الرقة .

11- الطاعة .

12- السلام .

وتربية الطفل على تلك الأسس مهمة ، إذا أردنا أن ننشئ أجيالًا طيبة صالحة ، ولنقف على حقيقة تلك الصفات التي أولها الصدق .

والصدق يتعلمه الطفل بالمحاكاة .

ولطالما سمعنا أطفالًا يقولون:«بابا بيكذب على ماما » ، و« ماما بتكذب على بابا».

صحبت أمٌّ طفلَها إلى خاله ، ولما كانت بين خاله وبين أبيه خصومة ، وقد حذرها من الاتصال به أخذت تقول له :

إن سألك أبوك أين كنتما فقل له : كنا عند خالتي ،وتظل تحفظه الكذب حتى لا ينساه:

- أين كنا ؟

- عند خاله يا ماما .

- يا ولدي عند خالته .

- أين كنا ؟

- كنا عند خالته !

ومرة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، من نحو لو قلت له الحقيقة لضربتك .

فكيف نحمل الطفل حملًا ثقيلًا منذ نعومة أظفاره ؟ ونربيه على الكذب والخيانة وإن كانت لنا وجهة نظر .

لماذا نحمل الطفل عبئًا ثقيلًا منذ فجر بزوغه لا يستطيع بعد ذلك أن يحمله إلّا آثمًا، وإذا كنا مأمورين بأن نقول كما علمنا ربنا – تعالى – : ﴿**وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ [الإسراء : 24] فعلى أي شيء كانت هذه التربية : أعلى الكذب والبهتان ؟ أم على الصدق والنبل والأمانة؟

لقد حذر النبي - ﷺ - المرأة التي وعدت صغيرها بشيء عندما نادته بأنها إذا لم تعطه ما وعدته به لكتب عليها ذلك كذبة !

إن الكبير إذا صَدَقَ ، صَدَقَ الصغيرُ ، وما حياة الصغير إلّا محاكاة .

وأما إذا كذب الكبير فقد صار معلمًا لأولاده الكذب حتى يألفوه ، ولم لا يألفونه وقد كانوا رسله ؟ أي رسل الكذب !

الرجل يبعث ولده إلى عمه في شيء ، ويقول له : قل لعمك إن أبي بعافية (مريض) وبعد ذلك اطلب إليه كذا وكذا .

فيذهب وهو يرى والده بعافية حقيقية لكنه يخبر بما أمره أبوه كذبا ، فهو رسول كذب وكذلك يُهْرَعُ الصغير إلى سماعة الهاتف فور صدور الأجراس ويوصيه أبوه أو أمه بأن عليه أن يقول لأي متصل عدا فلانا أو فلانة إنهما غير موجودين ، أو إنهما نائمان ونحو ذلك ، فيقول ، إلى درجة أن بعضهم يخطئ حين تغلبه فطرته ، فيقول :

- أبي يقول إنه غير موجود. أو أبي يقول إنه نائم !

وهكذا يستعمل الآباء والأمهات أطفالهم رسل كذب ، فهل هذه تربية؟!

ومن أخبث الكذب ما يتعلمه الأطفال من الغش ، حتى يصير لهم ملاذًا ، فلا يستذكرون ، وإنما يضيعون سنة كاملة على أمل الغش آخر العام ، ومن عجب أن الكبار يدعون لهم بالنجاح دون نظر إلى اجتهادهم من عدمه ، فنحن نسمع دعاء يتكرر كل موسم امتحان : اللهم نجح أبناءنا ، والمصلون يقولون : آمين .

كيف ينجح الله أبناءنا هكذا العاطل والباطل والمجتهد ، أهم مرضى حتى نقول : اللهم عجِّل بشفائهم ؟! ، أم أن فيهم من يكون الدعاء له بالنجاح من باب الاعتداء في الدعاء ؟!

والله لا يحب المعتدين في الدعاء ، وقد ذكر العلماء أن من الاعتداء في الدعاء رفع الصوت ؛ لأننا « **لا تَدْعُوا أَصَمَّ** » كما قال النبي - ﷺ - ومن الاعتداء في الدعاء الدعاء بمحرَّم ؛ فلا يجوز أن يدعو المسلم الله - عز وجل - أن يزوجه أخته أو أخت زوجته التي في عصمته ؛ لأن ذلك محرَّم ، وكذلك الدعاء لمن لم يفتح كتابا أن ينجح !

هل نسأل الله - عز وجل - أن يرزق المهملين من أبنائنا مراقبًا طيب القلب يسمح لهم بالغش حتى ينجحوا ؟! والغش حرام ؛ لقول النبي - ﷺ - : « **مَنْ غَشَّنا فَلَيسَ مِنَّا** »[1].

إذن هو اعتداء بلا شك لأنه دعاء بمحرَّم ، إنما يصح الدعاء بقولنا : اللهم وفق المجتهدين من أبنائنا ؛ لأن الاجتهاد وحده لا يكفي ؛ إذ لا بد من توفيق الله - عز وجل - الذي يُذكِّر الأبناء بما نسوا ويسدد أقلامهم فيكتبوا في المطلوب ، فقد يكتب المجتهد في غير المطلوب وهو يظن أنه كتب الصواب !

(1) رواه مسلم .

أما الذي أهمل ، وآثر اللعب على الجد ، وما فتح كتابًا أصلًا فأولى به ألّا يذهب إلى الامتحان ؛ لأن النتيجة معروفة سلفًا .

فعن أي سؤال يجيب ؟! وفي أي موضوع يكتب ؟! والمسألة ليست مقامرة ، وليست ضربة حظ ، فإن ذهب ورسب كان ذلك مؤشر خير له فعسى أن يعيد ، ويجتهد ، ويدرك ما فرّط فيه من قبل .

ومن الناس من لا يزال - يعتقد ويعلم أبناءه هذا الاعتقاد - أنَّ الصدقة يوم الامتحان من القرب إلى الله - عز وجل - وهي بمثابة الدعاء .

فلو أن طالبا مهملًا في استذكاره طول الفصل الدراسي وتصدَّق يوم الامتحان بأموال كثيرة ما نفعه ذلك في الإجابة .

وإذا كانت الأعمال بالنيات ، وكان لكل امرئ ما نوى ، فهل تصح فيه التصدُّق على الغش ، أو من أجله ؛ بحيث إذا تصدق الطالب أو أهله نفعه ذلك من هذا الباب المحرَّم شرعًا وهو الغش ؟!

ثم ألست ترى أناسًا يعلمون أبناءهم الغش ، ويحثونهم عليه ، ويشاركونهم الرأي فيه ؛ كيف يتم ، وكيف يكون ناجحًا ؟!

وأين يكتب الأولاد ؟ وعلى أي موضع من أبدانهم ؟ وكيف يغشون عن طريق الموبايل وغيره ؟

وألا ترى بعض الآباء والأمهات يعجبون بما يستمعون إليه من قصص الغش والخداع ؟!

إنّ ذلك كله من الأساليب المرفوضة الممقوتة في شرع الله - عز وجل - .

والذين يريدون المنهج السليم في التربية عليهم أن يعلموا أبناءهم الصبر على الكتاب ، وعلى طلب العلم ،وعلى الأمانة في أداء الامتحانات لتكون الشهادة التي يحصلون عليها بحق شهادة حق ، يبارك الله فيها وفي حاملها .

والمسئولية في ذلك تقع على عاتق الأمة برمتها ، أو باللغة العصرية إن التعليم منظومة أمة اتفقت كلمتها على أنه السبيل إلى إخراج جيل مستنير يقود الأجيال من بعده إلى خير حياة .

لقد رأيت بعض التلاميذ الصغار يبكون لأنهم رأوا بعض المدرسين يملون الإجابة عليهم في لجنة الامتحان ، يعني شاهدوا غشًا جماعيًا ، وقال لي أحدهم :

لقد تألمت مرتين :

مرة للغش ، ومرة لأن المدرس أملى بعض الإجابات خطأ ، وكنت أود أن أقول له الصواب ، لكنني لم أستطع . فماذا يفعل النجيب المحترم من الذين رباهم أهلوهم على عدم الغش عندما يرى الغش جماعيًا ؟!

وماذا يفعل ذلك التلميذ وهو يشاهد الأعمال الدرامية تُبنى على الغش ، ويرى صورًا له فيها تفنن وضحكات وسخرية من الجاد والجادين ؟!

ومعظم ما يشاهده الناس من تلك الأعمال رجحان كفة أهل الغش والخيانة ماديًا واجتماعيًا ، بينما أهل الأمانة والعلم والالتزام دائمًا في البدروم يسكنون ، أو فوق السطح، إما تحت الناس وإما فوق سطح منازلهم .

ويحاول كتّاب هذه الأعمال أن يصوروا للناس أن تلك طبيعة الدنيا ، لا يحظى بخيراتها ولا يركب فاره سيارتها ولا يسكن في عزيز بيوتها إلّا الغشاشون .

أما أهل الأمانة فإما أن يبيعوا ذمتهم وإما أن يظلوا راكعين ، وهم في حال الركوع أعزة شامخون ، وهكذا . وفي النهاية إمّا أن ينتصر الخير لحظة وإما ينتصر الشر ؛ لأن الوقت ما زال فيه متسع للأشرار وأحيانًا يشاهد الناس عبارة مكتوبة : « وما زال التحقيق يجري مع أهل الفساد » ، ولكن بعد التشبع من رؤية الشر ، فمتى يفهم الناس أن الله - عز وجل - لم يبتل عباده المؤمنين بالفقر الدائم والذل المستمر ؟!

وأما السيادة ، فأساسها الصدق ؛ فالكذب ليس أساسًا للسيادة ، إنما هو أساس للصعلكة والضياع . وقد قال العَوامُ من قديم : الكذب ليس له رجلان ؛ أي إنه مجتث من فوق الأرض ما له من قرار ، وهل تتحقق السيادة على الضياع ؟!

قيل للأحنف بن قيس وكان سيد قومه : بم نلت السيادة ؟ فقال مرة : لأني ما سألت عما لا يعنيني .

وقال مرة أخرى : لأني لو عفَّ قومي الماء لعفته نفسي . وبعض الأولاد (حشري) كما يقولون ؛ وذلك لأنه يرى مَنْ حوله هكذا !

وقد قال الشاعر :

بِبَذْلٍ وَحِلْمٍ سَادَ فِي قَومِهِ الفَتَى ... وَكَونُكَ إِيَّاهُ عَلَيكَ يَسِيرُ

يجب أن نعلم أبناءنا الكرم ، وأن نعطيهم ليعطوا بأيديهم فيشعروا بلذة العطاء صغارًا ، ويتعودوه كبارًا ، وقد قال الأول :

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وقد كان أطفال المسلمين من الصحابة - وقد حصلوا هم على لقب الصحابة ؛ لأنهم أدركوا النبي - ﷺ - كانوا مع آبائهم في مواطن السيادة .

كان ابن عمر - رضي الله عنهما - مع أبيه عندما أسلم ، وصحبه حيث ذهب لإعلام القوم بإسلامه فنشأ سيدًا - رضي الله عنه - .

وكان قيس بن سعد بن عبادة مع أبيه وهو بيت الكرم ، فكان كريمًا كأبيه ، وكان ابن حاتم الطائيِّ كذلك مثل أبيه ، وقد قيل فيه :

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الكَرَمْ ... وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ

وقد طلق رجل امراته لأنه وجدها تشرب من ثَدْي الناقة وهو فعل البخلاء ، فلما قيل له: لم طلقتها على ذلك والنساء لا يُنعتن بالكرم؟ ، قال:خشيت أن تلد لي ولدًا بخيلًا !

وبعض الناس يعلِّمون أبناءهم البخل والشح ، ومنذ نعومة أظفارهم يقولون لهم:

- لا أحد ينفعك .
- لا أحد يعطيك .
- انتبه إلى ما في يدك .
- لا تكن عبيطًا تعطي غيرك ما في يدك .
- إن ضيعت ما في يدك عذبناك .
- إن الزمن أكثر .
- إن الزمن قاس .
- إن العبقري من يأخذ لا مَن يعطي .
- لا أسمع منك أن أحدًا أخذ منك شيئًا .

وبعض النبلاء يصحب ولده في السيارة إلى المدرسة ، فإذا لمح زميل ولده قال له :

- ناده ، أليس هذا زميلك ، ادعه إلى الركوب فهذا لا يصح .

وينادي هو زميل ولده ، ويقول له :

- عمر يدعوك إلى الركوب معنا (مثلًا إن كان اسم ولده عمر) .

وبعض الأثرياء في بعض البلدان يدفع مصروفات الفصل كله تكرمة لولده الذي يكون في هذا الفصل ويدعوهم جميعًا إلى بيته وإلى رحلات خارج وطنه تتكلف المبالغ العالية لصحبة ولده ، فولده بالنسبة إليهم حظ طيب وفرصة عظيمة .

وهم يعلمون أنهم بصحبة سيِّد كريم ، يعرفون قدره ونبله ، ومنزلته ، ويظلون عمرهم مدينين لهذا الفضل ، بل إن الصنيع يرفعهم إلى الاستذكار الجيد حتى لا يتخلفوا عن ركب الغنيمة .

وأما الصلاح ، فله عدة معان ، منها عدم حمل الناس على المشقة بدليل قوله -تعالى- في سورة القصص : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص :27] .

ومن الصلاح ، أن يكون المرء ذا مال ، بدليل قوله - تعالى - في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف :82].

فالصالح ترك كنزًا لأولاده تحت جدار ، وما عابه الله - عز وجل - . ولا شك أن ماله الذي تركه لأولاده كان من حلال ، وإلّا كان فاسدًا لا صالحًا ، فالصلاح لا يتعارض مع جمع الثروة .

وقد قال العلماء في الكنز : إن الكنز الذي تؤدي زكاته ليس بكنز .

ويجب أن نعلم أبناءنا معنى الصلاح وفق هذه الأضواء الربانية لا وفق ما هو شائع من مجرد العبادة الخالية من الروح .

وأما العلم ، فإنه كما جاء في الحديث الصحيح بالتعلم ، لا بد أن نحسن اختيار معلم الأولاد ، وأن نُعنَى بمدارسهم ومتابعتهم . وهناك خطأ شائع رأيته في مراحل التعليم الأولى فضلًا عن الشائع فيما بعدها من الاكتفاء بالمذكرات الضعيفة وغيرها .

رأيت أن العلم بالنسبة إلى الصغار معناه أداء الواجب ؛ حيث يكلف المعلمون تلاميذهم بكتابة بعض السطور والإجابة عن بعض الأسئلة ، فإذا عاد التلميذ إلى بيته وفعل ذلك ظن أنه انتهى .

فإن قال له أحد والديه :

- هيا استذكر .

أجاب :

- لقد فرغت من أداء الواجب .

والصواب أن يعلم أنه يجب أن يستثني أمور حياته من الكتاب ، لا أن يستثني الكتاب من أمور حياته ؛ ولذا قال الله - تعالى - في سورة مريم : ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم : 12] .

ووجود الطفل في بيئة تشجع على العلم وتحفز عليه ،غير وجوده في بيئه لا تقيم للعلم وزنا .

وأما الحكمة في حياة الأطفال ، فكما يعرفونها من الكبار.

والله - عز وجل - يقول في سورة النساء : ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء : 6] .

والابتلاء يعني الاختبار ، والله - عز وجل - يقول : ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ ، علق دفع الأموال إلى أصحابها الذين كانوا يتامى على رشدهم حتى يحسنوا التصرف فيها ، ولا يضيعوها ؛ فإن المال عصب الحياة وقوامها .

فمن أين يأتي الرشد؟! يأتي بالنمو المطرد للعقل ، والوقوف على بيان الفروق. ونحن نخطئ خطأ لا يغتفر حين نربي أبناءنا على عدم الفرق بين الأشياء ، وذلك عين الجنون !

فالمجنون لا يفرِّق بين جيد ورديء ولا بين آمن وخطر ، ولا بين ستر وكشف ، ولا بين حلال وحرام ، ولا بين لون ولون ، ولا بين سليم وسقيم .

ومن ثَمَّ رفع الشرع الحنيف عنه التكليف .

والحق أنّ دين الله - تعالى - قائم من أساسه على بيان الفرق بين المعاني ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - في سورة النمل : ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل : 59- 64] .

فانظر إلى قول الله - تعالى - : ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ولا يجاب عن هذا السؤال إلّا بإدراك الفروق ، ومن ثم جاءت الآيات جوابًا صحيحًا مقنعًا .

فلا أحد إلّا الله خلق السماوات والأرض .

والله وحده الذي أنزل لنا من السماء ماء .

والله وحده الذي أنبت به حدائق ذات بهجة .

والله وحده الذي جعل الأرض قرارًا .

والله وحده الذي جعل خلالها أنهارًا .

والله وحده الذي جعل لها رواسي .

والله وحده الذي جعل بين البحرين حاجزًا .

والله وحده الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

والله وحده الذي خلقنا وجعلنا خلفاء الأرض .

والله وحده الذي يهدينا في ظلمات البر والبحر .

والله وحده الذي يرسل الرياح مبشرات .

والله وحده الذي يبدأ الخلق ثم يعيده .

والله وحده الذي يرزقنا من السماء والأرض .

وتُخْتَمُ الآيات بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ؛أي في دعواكم بأن هناك آلهة أخرى غير الله .

الحجر على الطاقة

يذكر التاريخ أن الشافعي -رحمه الله - ألقت به أمه بين يدي مالك عالم المدينة فتعهده ، وعلمه ، فكان شيخه ، وقد اكتشف فيه النبوغ منذ صغره .

وحين كان في السادسة عشرة من عمره أجيز في الإفتاء بسبب قصة الرجل الذي جاء إلى مالك وقال له إنه حلف بالطلاق أن الببغاء لا يسكت عن الكلام ، وهو بلا شك يسكت ، فرأى مالك أن الطلاق قد وقع ، ورأى الشافعي أن الطلاق لم يقع ؛ لأن الرجل قصد أغلب أحواله ، والببغاء في أغلب أحواله لا يسكت .

واستدل على ذلك بقول النبي - ﷺ - : «إِنَّ أَبَا جَهْمٍ رَجُلٌ لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ»[1] مع أنه بلا شك يضعها حين ينام ، ويضعها في غير ذلك ؛ لكنه قصد أغلب أحواله ، فُسرَّ الإمام مالك به وأعجبه فكره وأجازه في الإفتاء ، وهو لم يزل بَعْدُ صغيرًا .

إننا في حاجة إلى استثمار مثل هذه القصة في تربية أولادنا ، واختيار عقولهم ، ونحن مأمورون بذلك ؛ لقول الله - عز وجل - في سورة النساء : ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء : 6].

وهيهات أن تأنس من الصغير رشدًا إلّا عن طريق المعاملة والقرب والتجربة وغيرها من الأمور التي يثبت بها أنه بلغ رشده ، وأنه قادر على استثمار أمواله . ولو أن الإمام مالكا قال للشافعي :

- اسكت أنت ، فأنت ما زلت صغيرًا ، وبينك وبين هذه المسألة عشر سنين على الأقل لما كان من حل سوى ما يراه ، ومعروف أن الرجل - رحمه الله - أبى أنْ يحمل الناس في جميع الأمصار على كتابه الموطأ ، وكان للرشيد رغبة في هذا ، لكنه قال : إن صحابة النبي - ﷺ - قد تفرقوا في الأمصار ، وكلٌّ حكى بما سمع ، وهو إن وافق على فكرة الأمير فسوف يحمل الناس على ما قد يكونون سمعوا غيره ؛ فالأمر فيه اتساع ، فلا يضيِّقه هو بسبب حب لشهرة أو رغبة في ذيوع .

ونحن نخطئ عندما نقول لأطفالنا : اسكتوا ، عيب . فأي عيب في كلامهم ؟!

تقول الأم لطفلها :

- لما بابا يتكلم تسكت خالص .

صحيح هذا القول لو أضافت إليه : اسكت حتى ينتهي أبوك من كلامه ، ثم جاوبه وناقشه واسأله ، وقل له كل شيء .

(1) رواه مسلم .

وهي بذلك تثبت لزوجها ولوهم في نفسها أن هذه طريقة تربوية ، وأنها بذلك تعلم طفلها الأدب .

ومن الشائع عند الناس أنهم يقولون مباهاة وتفاخرًا : كنا (زمان) إذا نطق أبونا كتم كلٌّ منا فمه ، وبلع لسانه .

فماذا جنينا من وراء ذلك ؟!

نريد من صغيرنا أن يسكت فإلى متى يسكت ؟ ومتى يتكلم كما تكلم من قبله فأبدع وأسمع وحفظ ووعى ، ونبغ وتفوق ؟! وقصته مشهورة مع الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز ، وقد قام نيابة عن قومه ووفده لتهنئة عمر بن عبد العزيز بالخلافة .

فلما رآه عمر أصغر الناس ، وكان كما قال العلماء ابن عشر سنين ، وكان الوفد وفد الحجاز ، قال عمر بن عبد العزيز : يا غلام ، ليتكلم مَنْ هو أَسَنُّ منك ، فقال الغلام :

يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدًا لسانًا لافظًا ، وقلبًا حافظًا ، فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الأمور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك !

فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السحر الحلال .

فقال : يا أمير المؤمنين : نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة ولم تقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنّا قد أمنّا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا .

فسأل عمر عن سن الغلام ، فقيل : عشر سنين .

وقد رُوي أن محمد بن كعب القرظي كان حاضرًا فنظر إلى وجه عمر قد تهلل عند ثناء الغلام عليه[1] . وأنا أقف عند قول الغلام عندما أجاب عمر - رضي الله عنه - : « لو أن الأمور بالسن لكان هناك من هو أحق بمجلسك منك » !

(1) زهر الآداب 1/ 7.

لأنه قد يتصور أن الغلام قد حفظ خطبة ، وأنه جاء فألقاها وتخلى .

كما يحدث الآن ؛ حيث نرى أطفالًا يحفظون ما لا يفهمون كأنه شريط كاسيت ، يتباهى به مَنْ لقنه ، ويقدمه على أنه معجزة ، صغير السن يلقي خطبة منبرية يحفظها ولا يعي منها كلمة ، وقد قلت لمن تجولوا به ، واتخذوه معبرة للشهرة ، لو حفظ القرآن الكريم لكان أولى ؛ فليس شرطًا أن يحفظ معناه ، وإنما المهم أن يحفظه ، وأن تتربى فيه بواسطته ملكة اللغة . أما أن تُزْحَمَ ذاكرته بخطب منبرية طويلة فذلك من الإرهاق بمكان .

إن الطفل الذي وقف بين يدي أمير المؤمنين ليخطب نيابة عن قومه قال له ذلك القول الذي يكشف عن طاقة فكرية عالية ، واستيعاب للموقف وحضور ذهن ، وعبقرية .

إنه لم يكن مجرد بخاخة ، ولو كان لما استطاع أن يرد على عمر بن عبد العزيز حين قال له : ليتكلم من هو أسنُّ منك .

وهو طفل جريء مع أدب ، شجاع مع علم ؛ إذ كان من الممكن أن ينسى ما حفظ ؛ لأنه تعرض للإحراج ولكنه أجاب بما يعجز عنه كثير من الكبار!

وهو بين يدي خليفة عادل يُذعن للحق ، فما إن رأى جوابه السديد ، وقوله الرشيد حتى قال له : تكلم .

ولو أن شخصًا آخر قال له معقبًا على جوابه :

- أتتفلسف يا ولد ؟ اجلس . لجلس وما نطق ، ولقعد وما قام .

ومن هنا تأتي أهمية الحوار في تربية الصغار ؛ أن نحسن الاستماع إليهم ، وأن نحسن الظن بنبوغهم ، وأن نصوب لهم ، ونرشدهم برفق ورحمة لا أن نحجر على عقولهم وآرائهم؛ أو أن نعلق على كلماتهم بما لا يليق، فنرميهم بالسفه ونرميهم بالتخبط.

أو نحكم عليهم بضرورة الصمت الدائم ؛ لأنهم إذا نطقوا جانبهم الصواب ، عليهم أنْ يستمعوا فقط ، أما أن يتكلموا فذلك حرام عليهم ، وهو في الحقيقة حرام علينا!

إن الرحمة بالصغار كما تكون بالعطاء والشفقة ، تكون كذلك بحسن الاستماع إليهم ومحاورتهم واستثمار مواهبهم .

التطلع إلى المثل الأعلى

نوع من الاستفزاز ، يظنه بعض الناس إثارة للكامن في نفوس الأطفال من الهمة والنشاط ، وهو نوع بغيض ، وليس صحيحًا أن يسمع الطفل بأن فلانًا من أبناء الجيران حصل على مجموع تسعين في المائة ، فيقول :

- أنا سأحصل على أكثر من هذا ، فيرد عليه أبوه أو أمه بهمهمة قائلًا :

« أوه .. بس هات أنت 70٪ »!

فيضرب الأرض بقدمه ، ويقول : كونوا على ثقة ويقين بأنني قادر على الحصول على أكثر من ذلك .

وقد يعيِّره أحدهما بما حصل عليه في سنة سابقة من مجموع أقل ؛ ليؤكد له أنه من رابع المستحيلات أن يحصل على أكثر من الذي حصل عليه ابن الجيران .

إن هناك فرقًا بين قولك لطفلك :

فلان حصل على كذا ، وأنا أرى أنك أكثر منه ذكاء وفهمًا ، وإن شاء الله تحصل على هذا المجموع الذي حصل عليه إن لم تحصل على أكثر منه .. وبين أن تقول له على منوال هذه الطريقة الاستفزازية البغيضة :

فلان حصل على كذا ، وسوف ننتظر ماذا تحصل عليه أنت من مجموع ، غدًا ستأتينا بالنكسة والوكسة .. مثل هذا السلوك فيه إحباط للعزيمة وليس فيه تشجيع ، وقد روي أنّ رجلًا شجاعًا قال لولده:

- في شجاعة مَنْ تحب أن تكون يا ولدي؟

فقال :

- في شجاعتك يا أبي .

فضربه أبوه ، وقال له :

- كنت في مثل سنك أرجو أن أكون في شجاعة عليّ - كرم الله وجهه - فوصلت إلى ما وصلت إليه ، وأنت إذا رجوت أن تكون في مثل شجاعتي فلن تصل إلى شيء .

هكذا ينبغي أن يكون سلوكنا مع أبنائنا ونحن نتطلع بهم إلى الغايات المرجوة منهم ، وإن نأخذ بأيديهم إلى طريق المجد والنبل ، لا أن نحبط فيهم العزيمة ونكسر في قلوبهم الرغبة ، ونقتل فيهم الثقة .

ثم إن الكلام بهذه الطريقة يضع الكراهية في قلب الابن نحو هذا الذي أوهمناه أنه لن يصل إلى مستواه فهو يرى أنه عبقري دونه ، وأنه أفضل منه عند والديه فيكرهه ، فهل نحب لأبنائنا أن يكرهوا جيرانهم وزملاءهم وإخوانهم ؟!

وهذه الفكرة لها جذور في ثقافتنا ، ونحن دائمًا نرى البعيد أفضل ، هناك من بإمكانه أن ينجح في بلده ، وأن يَغْنَى بين أرجائها ولكنه يُؤْثِرُ السفر والغربة ، يقول : وعلى أي شيء يهين الإنسان كرامته ، ويبدأ من الصفر ، إن السفر أفضل ، وتراه يقدم على الغربة والمعاناة المنتظرة فيها ، ويؤثرها على الجهاد في بلده ؛ لأن أمامه مراحل متعبة، أما في الغربة فالراتب كبير ، وفي مدة وجيزة سوف يحصل على مبلغ كبير لن يحصل عليه في بلده وبين أهله وفي ربوع وطنه .

ونحن نرى الزوجة تمتدح زوج جارتها وتقول إنه يأتيها بكذا وكذا ، ويحسن إليها وإلى أهلها ، وهي لا ينقصها شيء أبدًا ، حتى وإن كانت سليمة النية والصدر وتقول : والله ربنا يفتح عليه ، فذلك الحديث يحمل زوجها على الغيرة ، وقد يظن أنها تهواه ، حتى وإن أضمر ذلك في نفسه ولم يقل لها شيئًا !

وسل المرأة عن هذا الإحساس حين يقول لها زوجها : إن زوجة زميله في العمل ملكة جمال ، وهي تلاطفه وحياته معها جنة وارفة الظلال ، يا سلام على السعادة التي هو فيها ، وعلى الهناءة والسرور ، هكذا تكون الحياة الزوجية .

هل تشعر المرأة بالرضا ، وهل تعلم وجهة الزوج التي يقصدها حين أخبرها بذلك؟!

إنها تشيط من داخلها ، وتشعر ببركان من نار حين تسمع ذلك ، وتظن الظن نفسه بأن زوجها غير راضٍ عنها .

فبمثل هذا يجب أن نتعامل مع أبنائنا ، نقول لهم : أنتم أحسن ، وأنتم أفضل ، ولو قال الولد أو البنت : إن فلانا حصل على مجموع كذا قلنا له : إن شاء الله تحصل على أعلى منه ، واعلم أنه ما حصل عليه إلّا بجهده وجهاده ، والله - تعالى - لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملًا .

أثر الأم في تربية الأطفال

عندما زوج النبي الخاتم سيدنا محمد -ﷺ- ابنته فاطمة من ابن عمه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- ، اتفق معه - ﷺ - على أن عليها داخل البيت، وأن عليه خارجه ؛ أي على سيدة النساء - رضي الله عنها - ما هو متصل بالبيت من الأعمال التي أطلقنا عليها أعمالًا منزلية مع رعاية الولد، وعلى الإمام علي ما يتصل بالكسب وتحصيل الرزق ؛ أي على الرجل أن يتعب خارج البيت وعلى المرأة أن تتعب داخله .

وهذا التعب تعب لذيذ ؛ لأنه يؤدي في خاتمته إلى خيري الدنيا والآخرة ؛ فالله لا يضيع أجر من أحسن عملًا .

إن دور الأم في تربية الأطفال أخطر من دور الأب الذي قد يخرج لكسب الرزق فيتأخر وقد يرتحل غازيًا وطالبا للرزق ، وقد يسافر ويظل أعوامًا متتالية في غربة تاركًا أبناءه في حضن أمهم ، إنهم يلازمونها باستمرار ، ومن ثمَّ يكون أثرها فيهم أثرًا عظيمًا .

حتى في الظروف العادية التي لا يسافر فيها الأب ، ولا يغيب الليالي أو السنين . تراه عائدًا من عمله آخر الليل مهدود القوى متعبًا ، يود أن ينام ويستريح ، بينما الصغار في منتهى النشاط والدأب والحركة .

بل إنه يريد أن يتخلص من ضوضاء أحدثوها ، ومن أصوات أطلقوها ، ومن حركة أثاروها من أجل أن ينام قليلًا .

والأم الواعية الرحيمة تحتوي أبناءها في تلك الساعة وتلاطفهم وتعلمهم الهدوء .

إن الأم في جميع الأحوال شهيدة في سبيل الله بما تقوم به من أعمال خطيرة أهمها تربية الأولاد على مكارم الأخلاق .

إنها القادرة على صناعة الرجال والنساء .. هي التي حملت وولدت وأرضعت وفطمت وأطعمت وأنامت وأيقظها ولدها من الغفوة اللذيذة ، فقامت في نشاط منقطع النظير ، تطعم وتسقي وتواسي وتعالج ، وتدلل ، وترحم ، وتقسو أحيانًا .

ومن ثَمَّ جعل لها الإسلام الحق في حضانة الصغار عند حدوث الطلاق ؛ لأنها أرفق بهم وأقوم لمصلحتهم .

وقد رأينا في الحديث المحفوظ أن ضيفًا أتى رسول الله - ﷺ - في المسجد ، فقال النبي - ﷺ - للمسلمين :

« مَنْ يُضيفُ ضَيفَ رسول الله»- ﷺ - ؟

إذ لم يكن في بيته - ﷺ - في تلك الساعة شيء !

فقال رجل : أنا يا رسول الله .

وذهب إلى بيته يخبر امرأته ، فسألها :

– هل عندنا من طعام ؟

فقالت :

– والله ما عندنا الليلة إلّا طعام الصبية .

فقال لها : ألهيهم واشغليهم عن الطعام حتى يناموا فيأكل ضيف رسول الله – ﷺ – وإذا جلسنا للطعام فقومي إلى السراج متظاهرة بأنك تصلحينه فأطفئيه ، ونقعد مع الضيف ولا نأكل وهو يزعم في الظلام أنّا نأكل حتى يشبع[1] ، ففعلت ونزل الوحي على رسول الله – ﷺ – بما حدث فسره ذلك ، وأخبر الرجل بما نزل ، وهو قول الله – تعالى – في سورة الحشر : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر :9] .

فالتي شغلت الصبية وألهتهم حتى تناسوا طعامهم وناموا في ثبات ونبات هي الأم، ولا شك أنها وحدها القادرة على ذلك بما أوتيت من صبر وحكمة ورحمة .

والأم يجب أن تُعَدّ كما قيل :

الأُمُّ مَدرسةٌ إذا أَعْددتَها   أَعْدَدتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأعْراقِ

ونحن مع الأسى والأسف نرى اليوم أمهات غير صالحات للأمومة ؛ وسبب ذلك معروف ، وهو عدم تربيتهن على معاني الأمومة ؛ أي على الإعداد ، إعداد البنات ليكُنَّ أمهات في المستقبل .

(1) رياض الصالحين.

إن الأم الملازمة للأبناء عليها أن تربي أبناءها على مكارم الأخلاق :

- وَصْلُ مَنْ قطع .
- والعفو عمن ظلم .
- وإعطاء من منع .
- والإعراض عمن جهل .
- والصبر والحلم .
- والمروءة والنبل .

وغير ذلك ..

عليها أن تربي أبناءها على حب الصلاة والمواظبة عليها ، فإن السادة من العلماء ما زالوا يذكرون أنهم تعلموا الصلاة على أيدي أمهاتهم .

وأثر الأم اليوم أخطر من أثرها بالأمس ؛ لأن الأب كان بوسعه أن يصحب ولده معه إلى عمله ؛ إذ كان معظم العمل يسمح بذلك ، سواء أكان رعي غنم أم تجارة في سوق قريبة ونحو ذلك . واليوم تشعبت الأعمال وتعذر على الأب أن يصحب ولده إلى وظيفته التي لا يكاد يجد فيها مقعدًا لنفسه فأين يضع ولده ، وهل هو ذاهب إلى عمله ليعمل أم ذاهب في فسحة متنزه لكي يصحب ولده معه ؛ فالأب معذور في عدم اصطحابه ولده معه في عمله .

وكثيرات من الأمهات يعملن أيضًا ، ومصير الأولاد إما إلى الحضانة وإما إلى الجدة أو غيرها مما تتأزم معه أوقات الأطفال .

ورعاية الأبناء عمل أيُّ عمل ، لكن ماذا يفعل المحتاجون إلى عمل الزوجين معًا ؟! إنه الفقر والحاجة اللذان لم يسلم من أثرهما البغيض كبير ولا صغير ، وعلى أية حال هناك مجاهدات شقيات يحصلن على إجازات لرعاية الأطفال ، وهناك من توفق بعد نفاد تلك

الإجازات بين العمل وتربية الصغار ، خصوصًا مَنْ لها أُمٌّ واعية قادرة على القيام بدورها في رعاية أطفالها زمن غيابها عنهم فترة العمل .

والجدة أُمٌّ كما نبه إليه الشرع الحنيف ؛ فالأثر واحد وهو مهم .

وما زلت أذكر ما كانت عليه الأمهات من سلوك في البيت ، ومن المهم أن أذكره :

لقد كانت الأم – وهكذا يجب أن تكون – تذكر اسم الله – تعالى – عندما تبدأ طبخها ، والأطفال ينظرون ويحفظون دون تلقين ، إنهم يشاهدون ، والمشاهدة والمحاكاة خير سبيل للتربية الصحيحة ، وهي مأجورة مرتين : مرة لنفسها وأخرى لتعليم أبنائها .

وكانت الأمهات تصلي على النبي – ﷺ – كثيرًا في مواضع شتى من حديثها خصوصًا عندما تنسى شيئًا أين وضعته .

تقول :

– أين هو ؟ اللهم صلِّ على النبي – ﷺ –.

– أين وضعته ؟ اللهم صلِّ على سيدنا محمد .

وكانت الأمهات يقمن بدور كبير في توثيق العلاقة بين الولد وأبيه . فما أحببنا آباءنا ونحن صغار إلّا عن طريق أمهاتنا اللاتي كن يقلن :

– أبوك يشقى من أجلنا .

– أبوك لا يدخر وسعًا من أجل إسعادنا .

– أبوك هو الذي اشترى لك هذا .

فإن قال قائل من أبنائها :

– يا أمي ، لقد اشتريتِ أنتِ ، وأنا رأيتكِ بعيني ، قالت :

– ومن الذي أعطاني النقود أليس أباك ؟! فأبوك هو الذي اشترى في الحقيقة .

– أبوك يسرُّه ذلك ؛ عند النجاح وفعل الخيرات .

– وأبوك يغضبه ذلك ؛ عند التعثر وفعل المنكرات .

وهكذا ..

وغير منسي أن أنبه إلى ما يحدث الآن من بعض الشابات التي تقوم بعكس ذلك .

من إثر العجلة وعدم التريث ، فلا تذكر الله إلّا قليلًا ، وتقول :

– لا وقت لنا عند أبيك .

– أبوك لا يعمل إلّا على مزاجه .

– أبوك رفيق نساء .

– أبوك يرمي لنا قرشين ويصرف هو على نفسه وملذاته الملايين .

– وأبوك لا يخرجنا ولا يفسحنا .

– وأبوك كل شيء عنده مهم ما عدانا .

وقد رأيت في بعض المواقف أُمًّا شابة رأت زوجها يؤدب ابنتها ، فرفعت صوتها في وجهه وقالت له :

– لِمَ كل هذا العنف ؟! ولِمَ تقسو على الصبية كل هذه القسوة ؟! ماذا فعلت ؟! وأي ذنب ارتكبت ؟!

ثم جذبت البنت من ذراعها ، ودخلت بها غرفتها وهي تصيح قائلة :

« تحملي .. ربنا يرحمنا منه ... تعالي تعالي حظك من حظ أمك »!

فما حظ أمها ؟! أليس حظها سوء زوج ؟!

وما حظ ابنتها ؟! أليس حظها سوء أب ؟!

فما أثر هذه الكلمات على نفسية الابنة الصغيرة .

إن الأم الرشيدة تسلك في مثل هذا الموقف سلوكًا آخر ؛ حيث تكون واسطة خير بين الأب وابنته ، فتنصح للأب في غياب البنت أو الولد بالرفق ، وتنصح الولد أو البنت في غياب الأب بحسن السمع والطاعة ، فتقول للأب :

- إنه أو إنها ما زال صغيرًا فارفق به ، ولا تقس عليه ، وتقول للولد :

- إنك قد أغضبت أباك ، فاعتذر إليه ، واسمع كلامه ، فمَن في الدنيا يحرص على مصلحتك غيره إنه يحبك ، ويجلب الخير لك ، ويشقى من أجل إسعادك ، فاحرص على بره وإرضائه يَرْضَ ربُّك عنك ويسعدك ويوفق خطاك إلى خير مسعى ونحو ذلك .

وقد رأينا الأم وقد نصحت لابنتها عند زواجها بما يكفل لها حياة زوجية كريمة ، من حسن السمع لزوجها والطاعة ، والقناعة ، والتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منها على قبيح ولا يشم منها إلّا أطيب ريح ، وعليها أن تدبر بيتها وترعى خدمة زوجها وأولادها ، وألا تكون مسرفة في الإنفاق ، وألا تسعد وهو حزين ، وألا تحزن وهو سعيد ، وغير ذلك من الوصايا النافعة التي كانت من الأم .

والله - عز وجل - يقول في أهل النار : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات :69 - 70] .

يقول الآلوسي - رحمه الله - : « والبناء للمجهول إشارة إلى مزيد رغبتهم في الإسراع على آثارهم كأنهم يزعجون ويحثون حثًّا عليه »[1].

(1) روح المعاني 15/ 324.

الفصل الثاني

مآسي الأطفال

قد تستحيل الحياة بين الزوجين وعندئذٍ يكون الطلاق هو الحل ؛ وذلك بعد نفاد سبل الإصلاح الواردة شرعًا ، ماذا بعد الموعظة والهجر في المضاجع والضرب الذي لا يؤذي وإرسال حكمين عدلين قبل حدوث الشقاق إن رَأَيا استمرار الحياة استمرت على صلح ووفاق ، وإن رَأَيا استحالة استمرارها كان الفراق ؟!

قال - تعالى - في سورة النساء : ﴿وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء :34] .

ثم قال - تعالى - : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:35] .

وقد شاع بين الناس أن أولاد الطلاق مشردون وأنهم ضحايا وأنهم .. وأنهم ..

والحقيقة أنه لا يوجد شيء اسمه أولاد الطلاق ؛ فالأولاد ليسوا أولاد طلاق وإنما هم أولاد زواج . إنهم أولاد ناس لم يتقوا الله - تعالى - في زواج ولا في طلاق ، وكم من

الأولاد يتشردون وآباؤهم وأمهاتهم ما زالوا أزواجًا ، ولم يطُلَّقوا ؛ فالعبرة ليست في أثر الطلاق وإن كان له بلا شك أثر على الدنيا جميعًا على المطلِّق والمطلَّقة والأولاد وأهل الأول وأهل الثانية وعلى الشهود ، وعلى الجو كله المحيط بحل العقدة .

إنما العبرة في معرفة حدود الله - عز وجل - وأن التفريط فيها هو سبب ضياع كل شيء لا سيما الأطفال .

وأنا أُسمي المآسي التي تلحق بالأطفال اسمها الصحيح وهو الحرب بالأولاد ، أو الانتقام بهم ، فالذين يعاملون أطفالهم معاملة طيبة إذا صفت الحياة الزوجية ويعاملونهم على عكس ذلك إذا حدث الكدر .

أشبه بمن يعبد الله على حرف ، إن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ؛ قال الله - عز وجل - في سورة الحج : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج :11] .

والقضية ذات أطراف فهي مركبة تدل على عوج في الخُلق العام الذي تندرج تحته ، وهو الإمعة الذي يقول : إن أحسن الناسُ أحسنت وإن أساءوا أسأت .

هذا العوج في الخُلق سائد في الحياة معروف ومضاده الذي هو -بحق- خلق التقوى.

قيل لرجل - قيل إنه علي كرم الله وجهه - ممن أزوج ابنتي ؟

فقال : «زوجها ممن يتقي الله ، إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها » .

وهو إن كرهها لم يظلمها بهضم حقوقها جميعًا أو بعضها ، ومن باب أولى لا يظلم أولاده منها .

أما غير التقي ، فهو يقول : ما دمتِ قد فعلتِ كذا وكذا فلأذيقنكِ الويل أنتِ وأولادك .

وغير التقية تقول : ما دمت قد طلقتني فلن ترى أولادك ، وتبدأ الحرب بالأولاد .

مطلقة تنتقم من مطلقها بالحرب بالأولاد ؛ وذلك من عدة سبل ؛ منها :

1- حجبهم عنه بكل الطرق .

2- وبث روح كراهيته في نفوسهم .

3- وقطعهم عن الدراسة حتى يراهم فاشلين .

ومطلق يحارب مطلقته عن طريق الأولاد بعدة سبل ؛ منها :

1- عدم الإنفاق عليهم .

2- بث روح كراهيتها فيهم .

3- أو بضمهم إليه وهم دون السن التي تسمح بذلك .

لو رحم الرجل الأم ، لكانت رحمته بها رحمة بأولاده ، ولو رحمت المرأة الأب لكانت رحمتها به رحمة بأولادها .

والإسلام ليس لغزًا ، ولا فيه تعقيد .. يمكن أن نلخص المسألة في كلمات :

رجل طلق امرأته وله منها أولاد فلها حق المطلقة من نفقة العدة والمتعة والصداق إن لم تكن قَبَضَتْهُ قبل الطلاق . ولها حق حضانة الأولاد حتى يكبروا ، وعليه النفقة عليهم كأن أمهم تحت ذمته إلى أن يستقلوا بحياتهم ؛ يراهم متى شاء ، ويرونه ، وذلك في بيت الحضانة ؛ أي عند أهل المرأة لا في الشوارع والحدائق ولا في أقسام الشرطة ولا مراكز الشباب ولا الأحزاب السياسية ولا غيرها !

ولا يمنع أن يبيت الولد عنده ، الأمر فيه اتساع . خلاصته المحافظة على صدور تتفتح وعقول براعم نرجو أن تثمر ، دون تأثير بفراق ، ولا بحرب نفسية .

فعن ضُميرة بن أبي ضُمَيرة « أن رسول الله - ﷺ - مرَّ بأمِّ ضُميرةَ وَهي تَبْكي ، فقال: مَا يبكيكِ ؟ أَجَائعةٌ أَنْتِ ؟ أَعَارِيةٌ أَنْتِ ؟. فَقالت يا رسولَ الله : فُرِّق بَيني وَبَين

وَلَدِي ؛ فقال رسولُ الله - ﷺ - : «لا يُفرَّقُ بين والدة وَوَلَدِها» ، ثم أرسلَ إلى الذي عنده ضُمَيْرة ، فدَعاه ، فابتاعه منهُ بِبَكْرَة [1] .

فانظر إلى رحمة النبي - ﷺ - بالناس ، خصوصًا بالأم والولد ، دفع جملًا ثمنًا لطفل كي يرده إلى أمه . والله - عز وجل - يقول : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:13] .

وقد طلق عمر بن الخطاب جميلة بنت ثابت بن أبي الأقدح أم ولده عاصم ، وقد خاصمت فيه أمه أباه إلى أبي بكر الصديق وهو ابن أربع سنين ، فقضى لها بحضانته ، ودفعه عمر إليها دون إثارة ولا ثورة ، فهذا حقها ، لم تبث فيه كراهية أبيه ولا إخوته . وكان عاصم قد ولد قبل وفاة النبي - ﷺ - بسنتين ، نشأ نشأة طيبة ، وكان طويلًا جسيمًا خيِّرًا فاضلًا ، وكانت كنيته أبا عمر .

ومات سنة سبعين قبل موت أخيه عبد الله بنحو أربع سنين ، وقال فيه عبد الله بن عمر :

وَلَيتَ المنايا كُنَّ خَلَّفنَ عَاصِمًا ... فَعِشْنَا جَمِيعًا أَوْ ذَهَبْنَ بِنَا مَعا

قال ابن سيرين حدثني فلان ، وسمَّى رجلًا :

« ما رأيت أحدًا من الناس إلّا وهو لا بد أن يتكلم ببعض ما لا يريد غير عاصم بن عمر » .

وروى ابن المبارك عن أسامة بن زيد عن عبد الله بن سلمة عن خالد بن أسلم قال : آذى رجل عبد الله بن عمر بالقول ، فقيل له : ألا تنتصر منه ؟

فقال : إني وأخي عاصم لا نَسابُّ الناس [2] .

(1) الاستيعاب: 2/ 303.

(2) المصدر السابق: 2/ 334.

لم يكن لك إن بحثت عن اسم يمثل تلك الفكرة ويدل عليها أيما دليل إلّا أن تقول :

النبل عند الخصومة

هناك أناس يعرفون النبل خُلقًا عند الخصومة ، يحملهم هذا النبل على العدل والإنصاف ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

والسواد الأعظم من الناس لا يعرفون هذا الخلق . إنهم نبلاء عند الاتفاق ، وأشد ما يكونون لؤمًا عند الفراق والاختلاف !

حتى في الطلاق ، وهو فك عروة الزواج ، انتهى الزواج ، وكما دخل الاثنان بكلمة الله -تعالى - خرجا بكلمة الله - تعالى - ، فما ذنب - بلغة من يقول بذلك - الأطفال الذين يضيعهم مَنْ لا يعرف النبل في الخصومة ؟! وإليك من واقع الحياة تلك الصور :

1- رجل طلق زوجته وله منها ولد واحد ، وأهملها ورماها ورماه ، وتزوج بمن أحب واختار ، ولعن الأيام الخالية ؛ أيام النكد ، والشقاق ، وأنجب بنتًا وولدًا من الزوجة الجديدة ، عاشا معه طبعًا في شقته الجديدة بأرقى أحياء القاهرة وترك لولده وأمه -زوجته الأولى - الشقة الكائنة بحي من أحياء القاهرة العشوائية .. لم يتصدق عليها بها ولا عليه .

وإنما كانت شقة جدته أم أمه ، تزوج فيها ورحب به الناس أو عايروه وأذلوه ، أيًّا مَّا كان الأمر ، المهم أنه جمع ملابسه ، وترك وراء ظهره كل شيء ، حتى ولده !

لم يسأل عن هذا الولد ، بحجة أن أمه قالت :

- لو كان دواؤك فيه ، ووصفه لك الأطباء ، بعينك لن تراه !

فقال وقد أظهر الفروسية وأعلى راية الرجولية :

- كليه واشبعي بيه !

وانطلق إلى ذات العلم والغنى والأنوثة ، وسكن الحي الراقي ، ومرت الأيام .. وفي إحدى كليات جامعة عين شمس ذهبت ابنته ذات صباح إلى الكلية ، وجلس إلى جوارها

زميل لها ، كانا يضحكان معًا ، ويتلامسان بالأيدي وفجأة هجم شاب عليهما رديء الثياب ضعيف الحال ، وأمسك بالشاب ورمى به بعيدًا ، وقال له :

- لو رأيتك تكلمها مرة أخرى لذبحتك !

واشتبك معه الشاب ، وقال له :

- وانت مالك يا أخ ؟

قال : أقول لك ما لي ، وأخرج كارنيه الجامعة وقال :

- اقرأ ، واعرف مَنْ أنا .. أنا أخوها !

قال الشاب موجهًا حديثه للفتاة :

- أحقًّا هذا أخوك ؟!

قالت : لا ، إن أخي في الثانوية العامة وليس لي أخ غيره .

فضَّ الشاب القصة ، وذهبت الفتاة إلى أبيها وهي تعلم أن لها أخًا أكبر منها ، ولكنها لم تره إلّا اليوم ، فماذا كان موقف الأب ؟

ذهب إلى ولده المحروم ، وهدده بالقتل والحرق إن هو تعرض لابنته مرة أخرى في الجامعة أو أخبر أحدًا مرة أخرى أنه أخوها ، وألقى عليه محاضرة في الفرق بين التربية العفنة التي نشأ عليها وبين التربية العظيمة التي نشأت ابنته عليها ، وقال له : إياك أن تتعرض لها ولحبيبها بسوء ، إنه خطيبها وهو ابن ناس ، وليس من الغجر مثلك .

قال الشاب في أسى :

- كنت أظن أن حضرتك جئت لتشكرني على ما فعلت ؛ فإنني أحافظ على أختي !

فنهره من جديد وختم كلامه بقوله :

- ليست أختك ، ولست ابني أصلًا ، واسأل أمك ، قولي له يا حاجة : ألم تقولي مائة مرة ، إنه ليس ابنك إنه ابني وحدي ... أسمعيه قد تكونين مريم أخرى ، أو أنت بلا شك تعرفين مَنْ أبوه ، فاهْدِهِ إليه تحصلي على ثواب عظيم .

ومضت اللحظة العنيفة ، وأقسم الولد ألا يذهب إلى الكلية من جديد ، إلّا أن أمه قالت له : اعمل في أمك معروفًا ، وأكمل تعليمك ، وانس أن لك أبا ، لقد كسرت شبابي عليك ، وحرمت نفسي متعة الدنيا من أجل أن أراك يومًا رجلًا ملء السمع والبصر .

فمضى منكس الرأس مهزوم الشخصية ، يتوارى من أخته إذا رآها وهي تملأ حرم الجامعة أنوثة وجمالًا وسيارتها الفارهة حديث الطلاب ، بينما هو ذو أمراض وعلل بسبب الفقر والجوع ، وقتل الأمل .

فما هذا الذي يجري ؟ وما هذا الذي يقوله الأب وهو يعتمر كل موسم : « لبيك اللهم لبيك » . فهل أمر الله بهذا ؟! وهل أمر رسوله - ﷺ - بهذا ؟!

2- وهذا رجل آثرت زوجته أن تطلق ، ورجته أن يفعل هذا قالت :

- لا أستطيع .

قال :

- وابنتنا الوحيدة ؟

قالت : لا تشغل بالك ، سوف تُربَّى أحسن تربية .

قال : بدوني .

قالت : أنت تعلم أن وجودك في حياتها ضرر عليها فأنت رجل سكير ، وذو نساء وعلاقات مشبوهة ، أنت تعلم أنني بنت ناس ، وقد تزوجتك رغمًا عن أهلي حاربت من أجلك ، ولكنك خيبت أملي .

قال : أعطني فرصة .

قالت : أنت تعلم أنني أعطيتك ألف فرصة ، ولكن دون جدوى.. كانت طفلته صغيرة رضيعة ، وتم الطلاق ، واختفى الرجل .

وتزوجت من بعده رجلًا مناسبًا عظيمًا غنيًّا ، كفاها ولم تكن في حاجة إلى مال .

وشبت البنت على أن زوج أمها هو أبوها ، بينما أبوها ما زال على قيد الحياة .

قالت : علمتها أحسن تعليم ، ودخلت مع زوجي الجديد في شركة باسمها ، أعطيته كل مالي ، باسمها ، فابنتي الآن تخرجت في الجامعة الأجنبية ، وتمتلك شركتين وشقتين وسيارة ولها رصيد بالبنك ، وتقدم لها عريس مناسب جدًا . فمن يكون وليها ؟

هل يزوجها خالي ؟

أم يزوجها الرجل العظيم الذي عشنا معه معًا أسعد حياة ، والجواب شرعًا :

لا ولاية لغير الأب مع وجود الأب .

قالت : أعوذ بالله ، هذا يحضر فرح بنتي ؟ هذا .. هذا ؟

وتأتي فلسفة الدراما : هل الأب الذي وضع البذرة ، أم الأب (زوج الأم) الذي ربى واهتم ، ونمّى الثروة وحافظ على المال ؟!

إنه برغم أنف كل الفلسفات ، والمذاهب نقول :

إنّ الذي وضع البذرة هو الأب .

3- وهذه امرأة طلقت ، ولم يكن أمامها من بد إلّا أن تتزوج برجل له أولاد من مطلقته ، وقد ضمهم إليه بعد أن تنازلت له عنهم ، تزوجته وكان لها ولد من مطلقها ، واتفقا على أن يضم الولد إلى الأولاد وأن يعيشوا جميعًا معًا .

وبعد سنة واحدة قال : لقد قررت السفر إلى السعودية ولن أسافر بولدك . فاضطرت إلى ترك الولد مع أمها ، وسافرت مع زوجها ومع أولاده من غيرها .

كانت تقوم بخدمتهم وتحسن إلى الأولاد وتعاملهم معاملة طيبة ، ولكن حنينها إلى ولدها كان بمثابة الشوكة التي تجرح صدرها ، كلما قدمت شيئًا لأولاد زوجها تذكرت ولدها . حاولت معه وقالت :

- هذا ولد يتيم ، اتق الله فيه ، واعطف عليه ، وارحم ضعفه .

قال : بصراحة ابني الكبير يكرهه ، وأنا لا أُكره ابني على تحمل ابنك .

أرسلت إحدى الجارات لها رسالة ، وقالت :

إن ولدك رسب في امتحان الفصل الدراسي الأول وحالته صعبة ، وقد سمعه ابني يقول :

يارب ريحني من الدنيا وخذني إليك فقطع كبدي وأسال دمعي ، فكتبت إليك أرجوك أن تنقذي ولدك وارحميه ، إن أمك عجوز ضعيفة لا تتحمل مؤونة ابنك ولا تقوم بخدمته ، اللهم قد بلغت اللهم فاشهد .

بكت عندما قرأت الرسالة وتسلمها زوجها . سحبها من يدها وقرأها فازداد غضبًا ، وقال :

- امرأة مجنونة ، فاعلة خير هي ؟

إنها حاقدة عليك ... وتريد طلاقك .

اسمعي ، سوف أقوم بترحيلك إلى مصر ، وسأترك لك فرصة هذين الشهرين لاتخاذ القرار ، إما أنا وإما ابنك . حمدَت الله على ذلك ، وقبيل سفرها عاودته ، وحاولت أن تثنيه عن عزمه ، وأن الحياة تتسع للجميع فأبى .

نزلت ، وضمت إلى صدرها ابنها البالغ من العمر عشر سنوات .

مسحت دمعه ، وطبخت له ما يحب ، وخرجت معه إلى حديقة من الحدائق ، وشاهدت ابتسامته ، وقال لها :

- بالله عليك ، لا تتركيني يا أمي ، إني أموت كل يوم !

عرضت عليه أن يعيش مع والده ، لكنها لا تعرف له عنوانًا .

أحاول أن آتيك بعنوان أبيك ، ومهما يكن من أمر فإن الرجل أبوك ، إن أمك فقيرة بائسة وأنا إن طلقني هذا الرجل فلن يكون لي معاش إلّا من أبي وهو ضعيف ، لا يكفيني ولا يكفيك ، قال لها :

- أبي .. مَنْ أبي ؟ .. أنا لا أعرفه يا أمي ولا أحبه .. أنا ليس لي في الدنيا سواك !

اعملي معروفًا يا أمي ، أنا أترك المدرسة والتعليم وأعمل في أي عمل ، أبيع مناديل كالأطفال الموجودين في إشارات المرور ، أتعلم صنعة أي شيء يا أمي .. المهم أن نكون معًا .

هي في حيرة ، وهو في حيرة ، والقرار الخيار بين زوج وولد .. بين حياة كريمة ماديًّا، وحياة فيها معاناة ، ولكن فيها لم شمل وجماع أمر طفل لا عائل له .

والخيار الذي لا شك فيه أن تختار الأمُّ ولدها ، وأن تطوي صفحة ذلك الزوج الذي لم يتحمل يتيمًا حُكمِيًّا هو أشد حاجة إليه من اليتيم الحقيقي الذي مات أبوه !

فإن لهذا اليتيم الحقيقي ألف يد بالخيرات تمتد ، لكن اليتيم الحكمي لن يلتفت إليه أحد ؛ لأن أباه لم يزل موجودًا على قيد الحياة ، فهو مظنة أنه ينفق عليه .

وما دام لا يصرخ ولا يشكو فهو في خير ، حتى وإن شكا وصرخ واستغاث فسوف يقال له : عليك بأبيك .

ماذا لو مضت الحياة على منهج الله - عز وجل - فكان الطلاق إذ استحالت الحياة، وكانت الحضانة مع الإنفاق وفق شرع الله - عز وجل - ، فإذا تزوجت الأم ، وهذا حقها لأي سبب من الأسباب ، ومن هذه الأسباب أن تكون في حاجة إلى مَنْ ينفق عليها نقلت الحضانة منها إلى غيرها .. وغيرها في المقام الأول أمها ، فإن لم تكن أمها موجودة أو كانت ضعيفة عاجزة عن رعاية الطفل نقلت إلى أم أبيه وهكذا ، فالمهم أن يتوفر الجو الصحي الصحيح لكفالة مَن لا يستطيع أن يستقل بنفسه .

أما أن نترك طفلًا بائسًا ضعيفًا عند عجوز تحتاج إلى من يعينها على أمور الحياة لتساعدها جارة ، أو تعطف عليه خالة بين الحين والحين ؛ لأنها مشغولة أيضًا ببيتها وأولادها وهي بعيدة عن أمها ، فهذا من قبيل الجناية على الطفل والمجتمع كذلك الذي سيَخْرُجُ إليه لا بد أنه ضائع .. لا أحد إلّا الله يعلم أثره وخطره وهو مجروح ، فلم يجد قلبًا يحميه ولا دفئًا يحتويه .

4- وهذا أب ، معه ثلاثة أطفال من مطلقته ، كان يشك في زوجته - التي هي أمهم قبل أن يطلقها - بأنها على علاقة بالميكانيكي الذي كانت ورشته أسفل البيت الذي يسكنونه .

وأكدت له ذلك ؛ فلم تهتم .. كانت تصنع له الشاي ، وتناوله الماء البارد ، وتضاحكه وتتبادل معه النكات .

بيئة فقيرة ، أدى بها الفقر إلى مسايرة أصحاب الأموال ، الذين يبرزون الأوراق الحمراء والخضراء .

- أنت تغار منه لأنه كسيب ..

بالمناسبة ، كوب الشاي الذي صعب عليك أن أناوله إياه جعل الرجل يهديني هذا ، وهذه هدية منه إليك ، انظر إليها ، عمر أهلك ما رأوا مثلها ..

وبالمناسبة أيضًا ، أنا أرجوك أن تدعوه إلى غداء عندنا بعد يومين ، لا يصح أن يهدينا الرجل ، ولا نرد له الهدية . وبما أنك عاجز عن رد الهدية فلا أقل من أن تدعوه على عزومة غداء .. أكلة محشي ، فرخة ، بطاطس .. ولا تخف ، فسوف أرفع رأسك !

- لا حاجة لي فيه ، ولا في هديته ، وأنا لم أطلب منه شيئًا ، أرجعي إليه أشياءه .

- لا تكن كالذين لا يرحمون ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل .... وكفاك ما أنت فيه من غرور (على الفاضي) .

- اعملي معروفًا حتى نربي الأولاد .

- أنا لا أعرف إلّا المعروف .

- وآخرتها ..؟!

- شيل ده من ده ..!

- طلاق ... هيا بنا ، والأولاد معي!

- معك ومعهم ألف سلامة !

وبعد العدة تزوجها الميكانيكي .

هل كانت بينهم علاقة ؟!

هل أحس الرجل بأنه كان سببًا في طلاق القمورة ، وعليه أن يجبر كسرها ويداوي جرحها ؟!. المهم أن الزواج قد تم ، بعد أن تم الطلاق ، لكن المسألة أن الأول الذي طلق كان يتتبع خط سير العروسين ، يعرف الأماكن التي يترددان عليها ، فكان يصحب الأولاد الثلاثة وأكبرهم بنت ، ويريهم أمهم من بعيد وهي في ذراع زوجها ، ويقول لهم :

- انظروا ، هذه أمكم مع عشيقها .

هذا الذي من أجله رمتكم ، وطلبت مني الطلاق !

كانت أخته تسكن إلى جوارها ، وتملي عليه الأخبار ، وكان يأمر أولاده بأن يستمعوا إليها وهي تحكي لهم أخبار الغرام !

حاولت المطلقة أن ترى أولادها ، فمنعها ، فأخذت تستعطفه ، وهو يقول :

- انسينا من فضلك وانسي أن لك أولادًا . ذهبت إلى مدرسة ابنتها الكبرى ، وانتظرتها ساعة خروجها من المدرسة ، وكانت تحمل معها هدية لها ، ورأتها الفتاة فولت مدبرة ، وكأنها رأت عدوة فجرت وراءها وناداتها ، وقالت :

- أنا أمك يا حبيبتي ، جئت كي أراك فانتظري فوقفت ، وقالت الابنة:

- أن أكرهك ... ولا أريد أن أراكِ . وما هذا الذي معك ؟

- هدية تحبينها .

- من عشيقك ؟!

- لا ، أمك ليس لها عشيق .

- أمك طاهرة يا حبيبتي ... أنا تزوجت .

- وهل تسمين هذا زواجًا ؟ هذا الذي بعتنا من أجله .. اذهبي إليه .. ارجعي ارجعي حتى لا يغضب أو يضربك . ومضت كالسهم ، وعادت أمها باكية .

منتهى السوء أن نزرع في نفوس أبنائنا البغض والكراهية والسوء .

5- وتلك قصة أخرى عنيفة ، حدثت الخيانة ، ومضت الخائنة إثر طلاق حمد الزوج ربه عليه ؛ إذ ملكه عقله ورشده فلم يقتلها .

قال لأمه :

- بركة دعائك يا أمي ، أني لم أرتكب جريمة القتل ، وأذهب إلى داهية في حشرة لا تستحق أن تكون زوجة ولا أن تكون أمًا !

كانت في حضانته ابنته وولده .

فكان يضم الولد إليه ، يُقبِّله ، أما البنت فكان يكويها بالنار ، ويقول لها :

سوف تكونين مثل أمك ، لا فائدة سوف أحرقك كلما رأيتك تنظرين من النافذة أو تكلمين ابن خالتك ، هذا الجرثومة القذر ، لم تشفع لها عنده دموعها ، ولا جسدها الذي صار بقعًا سوداء ، ولم يعرف معنى الندم ولا التوبة إلّا بعد أن خرجت البنت ولم تعد .

كان يقول : أود أن أراها ولو فعلت كل منكر ضيعها .. وهي طاهرة لا تدري الحلال ولا الحرام . ورغب في عودتها ولو على نجاسة ، ولكن هيهات ، ذهبت مع الريح؛ لتنضم إلى أطفال الشوارع كما يحلو للناس أن يسموهم ، لتكون زوجة أحدهم وهي دون العاشرة ولتكون أما وهي دون الخامسة عشرة ، تنام في المجهول وتصحو على المجهول ، والله وحده الذي يعلم أين ذهبت بها الريح !

فقد تكون الريح ألقت بها في حضن رحيم ، قام يتعهدها بعطفه ويتخذها ابنة صالحة يرجو بها ثواب الله وفضله .

وقد تكون الريح ألقت بها تحت سيارة أو قطار فلفظت آخر أنفاسها وودعت حياة الخيانة والبؤس والانتقام وقسوة القلوب !

وكأنها جاءت إلى الدنيا ضيفة ثقيلة مع قلة مؤونتها واقتصاد طلباتها ، لم يكن لها من حلم إلّا بلعبة ثمنها زهيد ، وابتسامة لأدنى كلمة تسمعها ، وحضن لا يكلف مالًا ، وجرامين من حلوى تبل بهما ريق الصبا العذب !

فلما لفظتها تلك الدنيا تلقفتها يد الأذى وهي بها رحيمة .

6- أما هذا الرجل الذي أنجب عشرة من الأولاد من زوجة واحدة ، ذهب جمالها ، وذبلت أوراقها ، وصارت كالدُّمْيَة لا تملأ له عينًا ، ولا تحرك فيه قلبًا ، ولا تجذب منه نبضًا .. فكان يقول كلما دخل :

- بلاوي ... رجعت إلى البلاوي .. نجني يارب .. من أين أطعمكم ، ومن أين أكسوكم ؟ ومن أين ومن أين ...؟ واحد فقط من العشرة لم يطق الذل ، نبض فيه عرق وخرج مثل هذه الطفلة الصغيرة ولم يعد ، ذهب مع الريح كذلك .

كان قبل الأخير ، ابن ست سنوات ، وجد نفسه في مدرسة أقل التلاميذ مصروفًا ، بل إنه معدم ، لا قرش في يده ، ولا غذاء في حقيبته ، رمى بالحقيبة والحذاء البالي الذي آثر أبوه أن يأخذه من أخيه الأكبر منه ، وانطلق ، وعلى ناصية الطريق كانت سيارة نصف نقل تنتظر قائدها الذي عرج على المقهى الكائن بالطريق الزراعي ركب من الخلف ، ونام بين أشياء متفرقة .. وانطلقت السيارة .

رأته إحدى الجارات ، وأخبرت والديه فقالت الأم : أين ذهب ؟

وقال السيد الوالد : العقبى للآخرين يا رب !

وفقدت الأم عقلها وقالت: يا ليته مات ودفنته . أين ذهب ؟

ويرد عليها الأسد : في داهية يا ليتك تلحقين به . وانتهت القصة !

العدل بين الأبناء

عُرِفَ الإسلام بالعدل ، ودخل فيه الناس أفرادًا وأفواجًا ؛ لأنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . وقد حث الإسلام

أتباعه على العدل بين الأبناء في كل شيء ؛ حتى قال العلماء : العدل بين الأولاد واجب حتى في القُبَل ، وقد علل النبي - ﷺ - العدل بينهم برغبة الوالد أن يكونوا جميعًا في البر سواء ، وتلك العلة قائمة مثمرة حتى مع غير الأولاد ؛ فالإمام العادل يحظى بحب رعيته جميعًا ، والأستاذ العادل يحظى بحب تلاميذه جميعًا إلّا من شذ من هؤلاء وهؤلاء .

وقد أراد أحد الصحابة أن يُشهد رسول الله - ﷺ - على عطية نحلها (أهداها) ولده دون إخوته فسأله النبي - ﷺ - :

- أَلَكَ غيرُه ؟

- قَالَ : نَعَمْ .

- قال : هَلْ أَعْطَيتهم مثلَ مَا أَعطيتَهُ؟

قال : لا .

قال عليه الصلاة والسلام : لا أَشْهدُ عَلى جَوْر[1] .

والظلم بين الأولاد يأتي فيما أرى من ناحيتين :

الأولى : المادية ، وقد رأينا ما جاء فيها من امتناع النبي - ﷺ - عن الشهادة عليها .

وبرغم أن الحديث صحيح ، والأمر واضح إلّا أن الناس ما زالوا يعطون بعض الأولاد ويمنعون بعض ، والأولاد بذلك يشعرون ، ويتألمون ، ومنهم الذي أُعطي دونهم فقد رأيت أخًا يقول لإخوته :

والله ما رغبت في عطاء أبي ، ولا طلبت إليه أن يميزني عنكم ، وما أخذته منه فهو لكم .

وبعضهم يرفع صوته في وجوه إخوته قائلًا لهم : كل إنسان يُعطى ما يستحق ، ولولا أنني خير منكم ما ميزني أبي أو أمي ، وما فضلني عليكم .

(1) صحيح مسلم.

وبعض الأولاد يسعى إلى هذا الظلم عن طريق التودد المصطنع ، للوالدين أحدهما أو كليهما ، بحيث يستولي على عطاء أبيه أو أمه دون إخوته !

وفي الغالب يكون الجو الأسريّ حوله مشجعًا له على ذلك ، فهو يعلم أن مثل هذا النفاق ينطلي على الوالد أو الوالدة ، فيبالغ فيه ويحصد ثمرته الظالمة . إنه يجد أباه أو أمه على هذه الشاكلة ، فيتأثر بهذا الخلق ، وينتهجه .

ويرى عندهما ارتياحًا له ، فيمتطيه وصولًا إلى بغيته .

وقد تأتي عوامل خارجية كذلك مؤثرة في ذلك ، ومن تلك العوامل الخارجية تشجيع الوالدة زوجها الذي هو والد الصبي أو الغلام أو الشاب ، تقول له :

- إنه في حاجة إلى كذا ، أو إنه أصغر إخوته ، والزمن والظروف قاسية وكذا صعبة عليه فهلّا آثرته بشيء ؟

ومن العوامل الخارجية زوجة الولد إن كان شابًا ، تقوم بخدمة والديه أكثر من زوجات الآخرين ، وهي ماكرة ، تسعى إلى ما ليس لها ، وهكذا .

ومن تلك العوامل الخارجية الاعتقاد في الوجه ، يقولون : الصفقة التي رزقنا الله -عز وجل- إياها ، جاءت على وجه فلان أو بشرنا به فلان ، أو هي من رزق القادم ، وهو لم يزل جنينًا في بطن أمه ، يعني « وشه وش خير علينا » ، فإذا هبط من بطن أمه إلى الأرض حصد الصفقة جميعًا أو بعضها لأنها جاءت رزقًا له .

ولست أدري : أطلع هؤلاء على الغيب أم لهم كتاب فيه يدرسون ؟!

فمن الذي أخبرهم أن هذا الرزق رزق فلان دون إخوته ؟!

ومن الذي أعلمهم أنَّ هذا الفيض ما جاء إلّا من أجله أو من أجلها ؟!

ومن تلك العوامل : اختلاف التعليم ؛ فقد يكون الولد الموهوب غبيًّا ، لم يتعلم نوع التعليم الذي تعلمه أخوه فتوقف في منتصف الطريق ، أو لم يكن طالب طب كما كان أخوه إنما كان طالب آداب أو حقوق ، وعندئذٍ يقولون :

- لقد أنفقنا على فلان في دراسة الطب كذا وكذا وكذا . أما فلان فمسكين ، فمن حقه أن يأخذ كذا أو كذا ونحوه .

والحق أن لكل ولد ظروفه ، وقد ينفق الوالد على ولده المريض أموالًا ، وبقية إخوته بفضل الله أصحاء ، فهل يعطي الذي لم يمرض مثل ما أنفقه على الذي مرض؟! وهكذا التعليم ، وغيره .

ومن الآباء والأمهات من يوصي أو يكتب وصية لولده الذي لم يتعلم ، أو الصغير ، أو المريض ، ولا وصية لوارث ، والولد وارث . صحيح أن تلك الوصية جائزة بشرط أن يجيزها الورثة ، ولكن الورثة لا تصح إجازاتهم إلّا بعد وفاة الموصي بكسر الصاد وهو في الغالب لا يجيزون بعد الوفاة ، إنما يجيزون قبلها حياء من الموصي ؛ فهي إجازة غير مقيدة ؛ إذْ إن الذي يجيز إنما يجيز في شيء يملكه ، وما دام الموصي رب المال حيًّا فلا أحد من الورثة يملك شيئًا .

والثانية : الناحية المعنوية ، ومنها يأتي البغض للآباء والأمهات والإخوة الذين هم على الحجر دون غيرهم ، إن بعض الناس يعلن في أولاده أنه يحب فلانًا أو فلانة دونهم ، وأنه كان يتمنى أن يرزقه الله إياه ، وبعضهم يقولون ما نسمعه جميعًا إذا مرض الحبيب : يا ليت الباقين هم الذين مرضوا أو ماتوا ، وبعضهم يقول لأولاده : إن ظفر فلان الذي يطيره المقص بكم جميعًا ، أو على حد تعبيرهم : برقابكم جميعًا !

وبعضهم خصوصًا النساء يقلن في الطفلة الحسناء :

- فلانة قمر منور ، وليست مثلكم يا زُرْق إنكم دميمون ، أصحاب دمامة ، وإن كن بنات . قالت الأم :

- فلانة هذه أختكم سوف يختطفها الخطاب خطفًا وهي ابنة الخامسة عشرة ، لن تنتظر ، أما أنتن فلن ينظر أحد في وجه إحداكن ، قابلنني إن أحدًا عبركن أو طلب واحدة منكن ، لكن هذه ، الله على هذه ، يا جمال هذه ! يا حسن هذه ! وهكذا تكون التفرقة بين الأولاد ، ويكون التمييز على ظلم .

تقول إحدى الفتيات : إن أمي تشعرني دائمًا أنني لست ابنتها ؛ فهي تؤثر فلانة وفلانة عليَّ ، إنها تدخر لي الغم ، والهم ، وتدخر لهما الحب والحنان . إن أمي - سامحها الله - تقتلني حتى في النظرة ، فما نظرت إليّ ذات يوم بعين رحمة ، وإنما - والله - تنظر إليّ دائمًا على أنني العدو ، أما فلانة فحبيبة قلبها ، وأمّا فلانة فقرة عينها ، وهكذا .

قالت : إلى درجة أنني قلت لها يومًا :

- ألا أكون لقيطة جئتِ بها من على باب مسجد من المساجد وربيتها ؟! لقد شككت في أنك أمي ، وأنني ابنتك .

فإن سألتَها وقلت :

- وما قالت لك أمك عند ذلك ؟.. هل رق قلبها ؟ واعتذرت لك ، وضمتك إلى صدرها وقالت : معذرة ، يا حبيبتي أنت قرة عيني وسكن أحشائي ، وأنت ابنتي .. لا تقولي ذلك .

قالت : أبدًا ، إنما قالت :

- لقيطة ! يا ليتك كنت لقيطة ، على الأقل كنت سأكسب فيك ثوابًا ، وعلى الأقل كنتِ ستشكرين صنعي ، وإحساني إليك ، إنه طول لسانك وسوء أدبك .

وأذكر أنَّ إحدى الأمهات قالت لابنتها هذه العبارة نفسها ، فما كان من ابنتها إلّا أن أساءت حيث قالت :

- ومن الذي علمني ؟ ومن الذي رباني ؟

عرضت بأمها ، أي أنني إذا كنت طويلة اللسان فمنك ؛أي أن لسانك أطول ، وإذا كنت عديمة الأدب سيئة التربية فالأمر مرجعه إليك ، فأنت التي ربيتِني ، وأنت التي علمتِني فأنا لم أستورد ذلك من الخارج ، ولم آت به من بعيد ، وإنما أتيت به منك ، لا من عند غيرك .

وهكذا يحمل الظلم الأبناء على الظلم ، وتحمِل الإساءة من الآباء والأمهات الأولاد على الإساءة ، وكما أقول : إن كل شيء نثبته في هذا العمل يؤكد فكرة التأسي والمحاكاة ، والمشاهدة . فالظلم الذي يشاهده الأبناء يحملهم على الإساءة ، وهكذا .

تحزين الأطفال

أن تُذهِبَ الحزن عن محزون خير لك من أعمال كثيرة ، ألست متدبرًا قول النبي - ﷺ - : « **مَنْ نفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُربةً من كُرُباتِ الدُّنيا نَفَّسَ الله - تعالى - عنه كُربةً مِنْ كُرباتِ يومِ القيامةِ** »[1] والدنيا بما فيها لو كانت ثمنًا لتنفيس كربة من كربات يوم القيامة لكان قبولها منًّا من الله - عز وجل - وتيسيرًا ورحمة ؛ لأن كُرَبِ يوم القيامة عظيمة ، والأهوال التي فيها خطيرة ؛ حيث لا يغني مولى عن مولى شيئًا ولا هم ينصرون إلّا من رحم الله ، والأقربون أولى بالمعروف ، وأطفالنا أولى من الأقربين لأن أولادك أقرب الأقربين إليك .

فكيف تحزنهم ، وأنت سبب إسعادهم ؟! وإذا كنت أنت الذي يحزنهم ، فمن الذي يسعدهم ويفرحهم ، ويأتي بصنوف السعادة إليهم وألوانها المختلفة .

(1) رواه مسلم.

وإذا كنت ذا أولاد ، وقربت إليك أحدهم أو بعضهم وأبعدت غيره فقد أحزنت مَنْ أبعدت ، وذلك إما أن يكون عن طريق العطاء المادي ، وإما أن يكون عن طريق النجوى. وفي الحديث : « **إذا كُنتُمْ ثَلاثةً فَلا يَتَنَاجَى اثْنانِ دُونَ الآخَرِ مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُحزِنُهُ ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا** » . أي إذا كنتم ثلاثة في مكان ، أو في طريق ، فلا ينفرد أحدكم بصاحبه ويتناسى وجود الثالث ، كأنه غير موجود ، فإن هذا الانفراد ، وما يتبعه من نجوى وهمس كأنه يَبُثُّ سرًّا يحزن الثالث ، وسبب حزنه أنه يشعر بأنه غير مرغوب فيه ، أو أنه غير مؤتمن ، أو أنهما يتفقان عليه ، أو يتناجيان بما يضره ، ونحو ذلك .

وذلك يجعل نفسه كما يقول العلماء تذهب كل مذهب ، وإذا كانت النفس تذهب كل مذهب في مجال النظم والبلاغة فتسعد ، ولا تشقى ؛ لأن كل ما تذهب إليه وجميع ما تفكر فيه صحيح مقبول ، يتسع له المعنى ، فإن ذلك لا يسعد ولا يطرب إذا ذهبت النفس كل مذهب في محيط الأحزان ، وما تخفيه النجوى من الأسرار .

فأنت إذا قلت :

إن الله - عز وجل - يقول في طلع شجرة الزقوم: ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ** ﴾ [الصافات :65] . إن أحدًا لم يَرَ الشياطين ، فكيف يقف على حقيقة رءوسهم ويتمثل ذلك حتى تبدو له شجرة الزقوم على وجهها المذموم ؟!

والجواب : ما عسى أن يسفر عنه التخيل لرءوس الشياطين ؟! كبيرة ، صغيرة ، الحجم ليس مهمًّا . وإنما المهم أن رأس الشيطان رأس غير طيب . لقد كنا نتخيل رأس أبي جهل وناصيته التي قال الله - تعالى - فيها في سورة العلق : ﴿ **كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ** ﴾ [العلق :15، 16] . ونقول ما أبشع هذا الرأس وما أقبحه ! وهو بعدُ إنسان ، فما بالنا بمن استكبر وكان من الكافرين!

إبليس اللعين وذريته أجمعين الذين عصوا أمر ربهم وتكبروا ووسوسوا في صدور الناس من الجنة والناس .

مَنْ ذا الذي يقول : إن رأس الشيطان جميل الشكل والمنظر ، فما عسى أن تذهب إليه النفس في أي مذهب ؟! إلى عينين جاحظتين ، وأنف كبير ، وفم معوج كبير ، وأسنان كأسنان مصاصي الدماء التي يشاهدها الناس في أفلام الرعب ؟!

هل يتصور إنسان أن رأس الشيطان في طياته نور ؟!

وهل يتصور إنسان أن رأس الشيطان يسفر عن بشرى وخير ؟!

لا أحد يتصور ذلك ، فلتذهب النفس كل مذهب وهي سعيدة آخر الأمر بما وصلت إليه من صورة ، وقد كان أحد الفضلاء -رحمه الله - يقول :

لو أعطينا كل إنسان ورقة وقلمًا ، وقلنا له : ارسم صورة لرأس الشيطان كما تتخيل .

وبعد فترة أتى كُلُّ إنسان بما رسم فلن تتفق الصور جميعًا إلّا في شيء واحد هو القبح ، ولكنها تختلف بلا شك من إنسان إلى آخر حسب تصوره وعمق خياله ، وما وقف عليه من تصور لرأس الشيطان !

وإذا قال معلق على تلك المجموعة من الصور : الله ، هذه أجمل صورة . فإن الجمال هنا المراد به جمال الإبداع في تصوير القبح ، وليس المراد به جمال رأس الشيطان .

وكذلك إذا قلت لولدك أو لأي إنسان : سوف آتيك بهدية وأنا قادم من السفر ، ولم تخبره بها ؛ أي لم تُسَمِّهَا له ذهبت نفسه كل مذهب في تلك الهدية :

أهي شيء يؤكل ؟!

أهي شيء يلبس ؟!

أهي شيء يستعمل ؟!

وما عسى أن تكون ؟!

- ساعة ؟!

- كاسيت ؟!

- موبايل ؟!

أهي من ذهب ؟ أهي من فضة ؟!

أهي من كذا ؟!

أهي غالية ؟!

لا شك أنها غالية ؛ لأن الواعد بها لا يأتي إلّا بالغالي لأنه غنيّ قادر ، أو متوسط الحال ، لكنه على الهمة والنفس .

- ألا تكون هذه الهدية كذا؟ .. صحيح ، فقد سمعني ذات مرة أذكره .. هي هكذا بلا شك .

لا .. لا ، إنه قد نسي ، فهذا شيء مر عليه زمان طويل ... إنها شيء آخر .

وقد يَرْبط بين وعدك وما قدمه من عمل لينظر أيضًا بم تأتيه به .

وفي آخر الأمر ينتهي إلى شيء جميل ..

أما أن تذهب النفس كل مذهب في الأحزان فما ذلك بشيء جميل ؛ لأنه كما تذهب إليه النفس كل مذهب في تصور رءوس الشياطين ، ما عسى أن يكون ذهابها كل مذهب في الأحزان !

من أجل ذلك قال - ﷺ - من أجل أن يحزنه ، فقد يفكر الإنسان (الثالث) في أنه غير مرغوب فيه .

وقد يفكر كما قلت في أنه غير مؤتمن على سر ، وقد يظن أنهما يمكران به ونحو ذلك، فما بالك وهذا المحزون ولدك !

إذا كنت بين ولدين لك ، وملت إلى أذن أحدهما دون الآخر وهمست فيها ، فضحك ولدك هذا ؟ فهل تستكثر أن يضحك الآخر ، وهو ولدك ، وأخوه ؟!

ما عسى أن يسفر عنه فكره وأنت تنادي أخاه وتسر إليه بحديث ، وأخوه يرقبكما من بعيد ، ويقول في نفسه :

ما هذا الذي يحدث ؟!

وماذا وراء ذلك من نتائج ؟!

من أجل ذلك وجدنا في جميع القصص القديمة أن الأب الحكيم كان يجمع أولاده ، ثم ينصح لهم جميعًا ؛ كالذي أراد أن يعلمهم درسًا في الاتحاد والتعاون ، فجمعهم وأعطاهم حزمة من الحطب وطلب إليهم أن يكسروها معًا فلم يقدر واحد منهم على ذلك ، فلما فرق الحزمة وأعطى كل واحد منهم عودًا واحدًا كسره بسهولة ، فقال لهم: هكذا أنتم إذا اتحدتم صرتم كحزمة الحطب ، لا يقوى أحد على كسركم جميعًا ، أما إذا تفرقتم صرتم مثل هذه الحزمة التي تفرقت وصارت أعوادًا ، وكسركم الناس بسهولة !

فمثل هذا الرجل قد جمع بنيه جميعًا .

وقد تحتاج إلى أن تسر بحديث لواحد من ولدك ، ولا بأس بذلك إذا لم يكن هذا أمام أحد من إخوته ، لأن القاعدة ألا تحزن أحدًا منهم .

الأذى المادي

يكون إيذاء الطفل بدنيًّا بضربه وتعذيبه وتجويعه وحبسه . كل صنوف النكال يلقاها كثير من الأطفال على يد مَنْ ليس في قلوبهم رحمة ، من الذين يظنون أن نتيجة ذلك أن يتوب الطفل توبة نصوحًا عن شيء ارتكبه وقد نبه إليه مرارًا .

- يبكي ولا رقة .
- يصرخ ولا رحمة .
- ينتظر ولا صدى .
- يتوسل ولا شفاعة .

• يعتذر ولا قبول .

• ينادي ولا يجاب .

لقد شاهدت رجلًا علق سوطًا على الجدار وخنجرًا وسيفًا .

كان يجلد صغاره ، وإذا حان وقت التعذيب أغلق الباب ؛ وذلك حتى لا يمنعه أحد الجيران .. نصحه كثير من الناس :

– اتق الله في صغارك .

فكان جوابه :

– لو تركتهم لفسدوا وساعتها سيقع اللوم عليَّ وحدي ، وسوف تقولون جميعًا إن كنت على وجه الدنيا :

– أنت لم تربِّ أولادك .

وإن كنت من أهل الآخرة صببتم عليَّ اللعنات . منطق غريب !

ورأيت امرأة بركت فوق صدر طفلتها وقالت : لابد أن تموتي ، أين كنت يا بنت ؟ لم تأخرتِ يا بنت ؟ .. ماذا تريدين أن تفعلي بي يا حلوة ؟! لازم أكتم أنفاسك !

رفعتها جارة قوية ، وقالت للبنت :

– قومي يا مقصوفة الرقبة ، أنت تستحقين هذا وأكثر ، إن أمك تعمل هذا لمصلحتك ثم توجهت إلى أمها ، وقالت لها :

– عايزه تودي روحك في داهيه .. بالراحه حبه . قالت : لقد أرسلتها منذ ساعة لشراء صابونة فلعبت مع الأطفال .

أذكر في هذا أن النبي – ﷺ – قد أرسل أنس بن مالك في حاجة ، فلعب أنس مع الأطفال ساعات حتى خرج النبي – ﷺ – بنفسه ليبحث عنه .

ووجده يلعب ، فما كان منه إلَّا أن سأله :

– ألم تذهب ؟

قال وجدت الصبية يلعبون فلعبت .

فما كان منه إلا أن قال له :

– اذهب .

إن الأب السابق والأم السابقة من الشذوذ بمكان ، ولكن علينا ألا نهمل مسألة الشذوذ هذه ؛ لأن الشاذ كما عرفه العلماء ليس اطرادًا .. الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه .

وهؤلاء يقاس عليهم ، فَهُمْ كثير كثير كثير ، إلى درجة أنك يمكن أن تقول : لقد صارت الدنيا شذوذًا لكثرة ما نجد من أمثال هؤلاء !

إن لدينا أطفالًا عوقهم أهلوهم ، صنعوا لهم عاهات مستديمة ، فهم مجرمون وإن كانوا آباء أو أمهات ، وعلى الدولة والجهات المعنية والأئمة والإعلام القيام بدور نحو هؤلاء .

ومَنْ الذين يعذبون الأطفال ؟مدرسو المرحلة الابتدائية منهم من يمسك العصا ، وينزل على الأطفال (حش) العاطل على الباطل ، لا يدري المحسن من المسيء ولا يفرق ، ولا يدري أين تقع العصا على أذن ، على عين ، على رجل ، على أي مكان لمجرد أنهم أحدثوا صوتًا !

وقد سرتني عبارة كتبها مفتش اللغة العربية في سجل زياراته لإحدى المدارس قبل أن يكون اسمه موجهًا ؛ فقد ذهب المفتش لزيارة المدرس في فصله ، فوجد المدرس قد فرش (مصلية) على باب الفصل ووقف يصلي ، بينما تلاميذه في حيص بيص يضرب بعضهم بعضًا ، فلما فرغ من صلاته دخل الفصل ووراءه المفتش وسكت الأطفال ، وبدأ في شرح الدرس وكان أستاذًا متمكنًا من مادته ، ضابطًا عباراته ماهرًا في عمله .

وقد سجل له المفتش ذلك ، وختم بقوله : « إلّا أن الأستاذ أراد أن يرضي الله فأغضبه »! نعم أراد أن يرضي الله بالصلاة فأغضبه بترك الأولاد الصغار يضرب بعضهم بعضًا ويجرح بعضهم بعضًا !

إن لوقت الصلاة متسعًا ، لكن ليس هناك متسع للجراح ، وليس ثمة مستشفى قريب من المدرسة ، وهؤلاء لا يتركون هكذا بدون مدرس فليسوا بكبار عقلاء يتحاورون في هدوء ، ويعرف بعضهم قدر بعض .

وقد حدثني أحد الأطفال ، وقال :

– هل خلقني الله من أجل أن يميتني أحد ؟!

قلت له : ماذا تعني ؟

فقال : أبي في البيت يقول لي : أموتك .

والمدرس في المدرسة يقول لي : أموتك .

قلت له : معنى ذلك أنهم ينصحون لك بأن تكون ممتازًا وإلّا عذبوك ، إنهم يطلقون الموت على العذاب ، لكنك غال عند أبيك وعند مدرسك ، نحن في حاجة إلى اختيار الكلمة المناسبة التي نلتزم فيها الدقة من أجل سلامة أطفالنا وصحتهم النفسية والمعنوية .

والعبارة التي يطلقها المعذِبون من الآباء والأمهات :

– ابني وأنا حر فيه ..!

فهل أعطاك الله ابنا لتمارس عليه الحرية الظالمة فتفعل به ما تشاء من الإيذاء ؟!..

أهو نعمة جاءتك أم بلية تتصرف فيها وفق ما يمليه عليك هواك الأسود حتى تحطمه !. إنه ابنك ، هذا صحيح ولكنك لست حرًّا فيه ؛ لأنك مسئول عن رعايته .

أنت سبب في إحيائه ، فلا تكن سببًا في هلاكه .

وأنت تحفظ الحديث الشريف : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[1] .

(1) صحيح البخاري.

الأذى المعنوي

لو سألت هذا السؤال لأي إنسان :

ما أصعب ألوان الأذى الذي تشعر به وأنت في ولاية إنسان أو في عمل عند إنسان ؟

لما اختلف اثنان في أن الجواب : « تسميم البدن » !

وهو في الحقيقة ليس تسميم البدن ، إنه تسميم الروح ، فينتقل السم إلى البدن !

أصعب شيء في الدنيا أن تأكل مع أبيك ، فيقول لك سافرًا :

« كل .. كل .. واملأ بطنك .. ليس وراءك إلا الأكل .. لا تعرف شيئًا سواه ، ولا تجيد شيئًا غيره » !

كلمات بغيضة تنشر السم في الروح ، فينتقل منها كما قلت للبدن .

إن المتصدق في دين الله – تعالى – مأجور إذا لم يتبع صدقته منًّا ولا أذًى ، وفي هذا حديث طويل متتابع في سورة البقرة ؛ حيث يقول الله – تعالى – : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ

وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : 261 - 266] .

وقد روى البخاري في صحيحه أن اللقمة يضعها المسلم في فم زوجته صدقة .

والعلماء على أن المسلم إذا نوى أن تكون نفقته على عياله صدقة كان له ثواب الصدقة .

ولا يقولن أحد إن الخطاب في آيات البقرة السابقة في شأن الصدقة على الأجانب ، فيكون متصدقًا طيبًا عظيمًا لا يُتبع صدقته منًّا ولا أذى ، أما أولاده وأهله فمن حقه أن يسمم أبدانهم ؛ فهذا من سوء الفهم والخلق !

فإذا كنا مأمورين من قبل الشرع الحنيف بالمعروف مع الأجانب ، فإن الأقربين أولى بالمعروف .

وعجيب أمرنا في هذه المسألة ، وهي متصلة بثقافة الغرب ، فنحن مع الأباعد في منتهى الذوق ، ومع الأقارب على عكس ذلك . والقاعدة لا تتخلف ؛ فالأقربون أولى بالذوق وأولى بالإحسان وأولى بكل شيء.. فيه تزكية النفس والسمو بها فوق الأذى من أي طريق . فعجيب أمر الإنسان السخي مع الأجانب إلى درجة الإسراف ، البخيل مع أقاربه إلى درجة الإمساك !

الذي تراه يقدم الغالي إلى الأجانب ، ثم يقول :

- أنا ما قدمت شيئًا ، إنني في حرج وفي نصف هدومي ؛ لأني لم أوفكم حقكم .

ويقدم التافه إلى أقرب الناس إليه ، ثم يقول :

- هكذا أنتم تأخذون كل شيء ، ولا تعطون شيئًا ، والأمر بالنسبة إلى البنات أشد خطرًا ؛ حيث إن البنت التي أخبرنا ربنا - تعالى- في سورة الزخرف ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] . لا تنشأ في حلية ولا كرم ولا في عطاء ، تكون عرضةً للضياع ؛ حيث إنها إذا شبت وجدت ذئاب البشر على الطريق ، كل ذئب يبتغي رضاها بصنوف من العطاء ووابل من الكلمات الرقيقة ؛ لكي يغرسها في الوحل ثم يتركها فريسة جريمة تعيش بالعار ما بقي لها في الحياة ليل ونهار .

فلتتشبع البنت في بيت أبويها بالعطاء والحب ، حتى لا تكون ظمئة إلى ما عند الذئاب . وهذا - كما يقولون - جرس إنذار .

الأبناء وسفر الآباء

وهذا دليل على سرعة تأثر الأبناء بالآباء ، ومن أجل ذلك أقول :

إن الولد إذا ألفى أباه على طاعة هُرِعَ أيضًا على آثاره ؛ أي كان - في الغالب - طائعًا كأبيه .

كما أن الولد الذي ألفى أباه على ضلال هُرِعَ على آثاره ؛ أي كان - في الغالب - ضالًّا .

فعلى الآباء والأمهات أن ينتفعوا بما يتعلمون لذواتهم ولأبنائهم بعد .

فإن صلح الآباء والأمهات صلح الأولاد والبنات .

وقد شوهد أعرابيٌّ مقيم مع ضعف الحال فقيل له : لم لا تضرب في الأرض بحثًا عن سعة الرزق فقال : يمنعني من ذلك طفل بارك ، ولص سافك ، ثم إني لست مع ذلك واثقًا بنجح (نجاح) طَلِبتي ، ولا معتقدًا بقضاء حاجتي ، ولا راجيًا عطف قرابتي [1] .

(1) زهر الآداب 2/ 917.

إنني أتأمل في ضوء هذه العبارة فطنة أعرابي قديم إلى مأساة الاغتراب وطول الغربة على الأهل خصوصًا الطفل الصغير الذي هو في حاجة إلى متابعة دقيقة وملازمة صريحة وتأديب مستمر ومراقبة مصحوبة بالرحمة والتعليم ؛ فالطفل إن غاب أبوه كان هو ومن معه من أم وأخت وغيرها عرضة للص السافك الذي ينتظر غياب الراعي ، وكم أدى سفر الرجال إلى انتشار الذئاب حول أسرة الغائب ما بين مدعي حرص وحنان ، ومدعي رعاية وأداء أمانة ، وهو رب تفريط وأخو خيانة .

إن الرجل كان على يقين من أن وجوده إلى جانب طفله غير القادر على الحركة والكسب فيه خير للأسرة جميعًا .

وأما سفره فمظنة الحصول على الخير ومظنة العودة بخُفَّي حُنين ؛ فالكسب في الغربة شك ، والربح في الإقامة يقين ، والعاقل مَنْ باع الشك واشترى اليقين ، لا من اشترى الشك باليقين .

صحيح أن هناك مضطرًّا للاغتراب ، لا عمل له في بلده ، ومثل هذا ننصح له بقول النبي - ﷺ - : « إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ غُرْبَتِهِ فَلْيُعَجِّلْ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَهْلِهِ »[1] ولا أزيد.

ذلك أن هناك من تغرس الغربة أنيابها فيه فلا يتخلص منها أبدًا ، حتى يعود من غربته آخر عمره ميتًا في صندوق إن عاد .

وقد حكى لي أحد المسافرين الذين طالت بهم الغربة أنه ينزل كل سنتين أو ثلاث وقد نزل مرة وقد ولدت امرأته طفلًا تركه وسافر وعاد وهو فطيم يتحدث ، فلما رآه أنكره . قال :

- هذا الرجل لا ينام عندنا .

(1) متفق عليه.

وقالت أمه :

- هذا بابا يا حبيبي !

قال :

- لا ، لا أعرفه !

وأخذ يجذبه من ثيابه ، ويقول :

- اخرج .. اخرج من عندنا !

والرجل يحاول أن يضمه ولكن الصغير يفر صارخًا ، وما هدأ إلّا بعد ليال ، وسافر وهو ما زال على نكرانه . إن الذي يجعل الغريب يستطيب الغربة وإن كانت غير طيبة أنه يجعل نصب عينيه حديث النبي - ﷺ - السابق إنه لا يضع خطة لعمره ولا يقضي من غربته نهمة ، وصار كما قال ناجي :

وَإِذَا مَـــا التَـــام جُـــرْحٌ جَـــدَّ بِالتَّـــذكَارِ جُـــرْحُ

فهذا كلما قضى شيئًا إن قضاه جدت له أشياء فلن ينتهي أبدًا ، وهل حاجات مَنْ عاش تنقضي ؟!

بنى أحدهم بيتًا ، لكنه مضطر إلى السفر من أجل تشطيبه ، وفي كل سنة ينتهي من تشطيب طابق ، حتى وصل إلى الطابق الخامس ، والله يشهد أنه عاد ميتًا قبل بلوغ ذلك - والله يرحمه - .

وحين نصح له بعض المخلصين بالبقاء ، وقال له :

بارك الله فيما رزق ، واستمتِع بما جهزت ، وانتبه إلى بناتك وصغيرك . قال الرجل لزوجته :

- ما رأيكِ في كلام فلان ؟

فقالت :

- مَنْ كانت يده في الماء ليس كمن كانت يده في النار . وفلان هذا غير مدرك لحقيقة الأشياء ، قل لي ماذا تعمل هنا ؟

وما قضى الليل حتى كانت حقيبته على استعداد للرحيل ، ورحل إلى غربته حتى رحل عن دنياه ، ولو حسب مدة إقامته مع بناته وولده الصغير لوجدها عامًا واحدًا ، باعتبار أنه ينزل إجازة ، شهرًا كل عام وبقية أعمارهم معه مكالمة ورسالة بالبريد تحمل الشوق وتصور آلام البعد ، وتعد بشراء ما هم في حاجة إليه .

كان يصله خبر نجاحهم إن نجحوا ، فيرسل ابتسامة الرضا في الفضاء العريض ، تحملها الريح إلى كل مكان ، عدا المكان الذي بناه والذي تعمق في غربته بسبب تجهيزه وإعداده ، لكل صبية من الصبايا الثلاث شقة وللصبي شقة ، أكبر البنات في الثالثة عشرة من عمرها ..

ماذا لو ترك كل شقة بلا تشطيب ، والسيد المحترم العريس القادم يقوم بتشطيبها ويحمد الله أن وجد شيئًا يشطبه ؟!

وماذا لو تسلم الولد شقته هكذا بلا تشطيب وعمل هو حتى يشطبها بعرقه ، الذي لمع على جبينٍ لم يحرم النظر إلى جبين أبيه مدة سفره ؟!

لقد كانت حياة الرجل عمارة بيت لم يسكنه ، وسكنه اليتامى من بعده !

فهل هذه حياة ؟!

وهل شعر بنعمة الولد ، أم كان الولد بالنسبة إلى أبيه نقمة وعذابًا ؟!

وهل أحست الزوجة بدفء الحياة الزوجية ؟!

إن كل ما كان يهمها أن تحافظ على المستوى المعين من العيش الذي اعتادوه وثمنه الغربة القاتلة . إنها كانت تنفق ما يقرب من ألف جنيه في الشهر في ذلك العام سنة 1985، فماذا تقول التي تحتاج إلى هذا المبلغ في كل أسبوع الآن ؛ زمن تحرير هذا الكتاب ؟!

وأذكر أن أحد الغرباء كتب رسالة إلى زوجته من السعودية إلى قريته بمصر ، وكان مما كتبه : «وإني أفكر في النزول نهائيًا والحصول على تأشيرة خروج نهائي ، وأسأل الله أن يجمع شملنا ، وأن يعوضنا خيرًا عما مضى من أيام الغربة التي أرجو أن تكون ذكريات » .

وكان العجب أن اتصلت به زوجته وهاتفته ، وقالت له :

- لقد اتصلت بك لأن المكالمة أسرع من الرسالة فقد وصلتني رسالتك اليوم .

وكاد قلب الرجل يقفز من بين ضلوعه فرحًا وهو يظن أنها سوف تقول له : عجِّل بتلك العودة .

لكن المفاجأة أنها قالت له :

- ما هذا الذي كتبت لي ؟ نهائي ؟! قل أستغفر الله العظيم ، هل جننت يا رجل ؟!

ماذا تفعل هنا يا محترم ؟!

إنك بهذا القرار تخرب الدنيا جميعًا ، إننا ما زلنا في حاجة إلى كذا وكذا وكذا ، والأولاد ، وابنتك المقبلة على زواج ، من يجهزها يا حاج ؟! أخوك الذي لا يسأل عنا ؟!

أم أمك التي لا ترى تحت رجليها ؟..

هل ستجهزها من ميراث المرحوم أبيك ؟!..

وحد الله يا حاج وضع عقلك في رأسك ، واحذر أن تكون صارحت عمك الكفيل بتلك النية السوداء .

وعاد الرجل منكس الرأس مهزوم الفؤاد ، ورأيته يبكي ويمسح بيده دمعه وهو يقول:

معها حق ، والله معها حق ، ربنا يسهل .. ربنا يستر ، الحمد الله ، ثم عاد وقال :

ما أكثر الذين يبحثون عن فرصة عمل بالخارج ، على الأقل أنا في عمل (وهي ماشية).

وأذكر في هذا السياق أن هناك زوجات يتمنين عودة أزواجهن ، لكن الأزواج راغبون في الاستمرار في الغربة .

ولكم نشدت الزوجة زوجها الحاصل على مؤهل عال والذي له وظيفة في بلده ، وكفاه سفر عام أو عامين والحمد لله ، لكنه طماع ؛ هناك عنده سيارة وفيديو ، ويدخن

أفضل أنواع الدخان ، والحياة في غربته أفضل عنده من الحياة في بلده ، كل شيء هناك (عال العال) ، فما الذي يدفعه إلى العودة براتب ضعيف ، وإلى الشوارع المزدحمة ، وإلى تحكمات العمل وقوانينه ، وإلى أقل ماركات الدخان المحلية ؟!

فالغربة في كل الأحوال لها آثارها السيئة على غريب يرجو العودة ، وعلى أهل أبى رجلهم إلا الغربة .

وهذا الأعرابي قد ذكر من مساوئ اغترابه أنه لا يرجو عطف قرابته ؛ أي لا يرجو عطفهم على ولده في غيابه .

وهذا مشاهد اليوم عند كثير من الناس ، ألست ترى بعض الأهل يشتدون قسوة عند غياب القريب ، ولا يعرفون الصلة ولا البر إلّا عند نزوله ، لنيل الهدايا والصلات؟! فإذا سافر سافروا معه ؛ فهم لا يحضرون إلّا مع حضوره فإذا انصرف انصرفوا كذلك !

ومنهم من يتصل بولده إبان سفره ليؤرق عليهم ليلهم ، وينغص عليهم عيشهم ، ويعرف ساقط الأخبار ويرسل بها إلى الغريب ليكرر عليه الكدر ، وكل ذلك يدركه الأطفال ويشربونه ، ويعرفون ما وراءه ، فما عسى أن تكون أحوالهم ، وماذا يرجى منهم في مستقبل أيامهم ؟

لذلك كان من السوية والطريقة المرضية أن يلزم الرجل بيته ووطنه إن كان حاله في وطنه يوفر له حياة كريمة وعيشة راضية .

فإن جمع الشمل أمل ، وليس في الحياة ثمرة ألذ من تحقيق الأمل ، الذي يوجب العمل .

اليتيم حُكمًا

حديثي هنا في هذا المبحث ليس عن الوصية باليتيم وسرد الآيات والأحاديث الواردة في هذا الشأن ، وترقيق القلوب نحو اليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار دون

البلوغ ، وإنما حديثي عن دلالة تلك الوصية ، ودلالتها بيان أثر الأب في حياة أولاده ، فهو يكفيهم ، ويمنعهم القهر والذل ، ويحجب عنهم كل أذى .

ومن ثَمَّ كانت الوصية ، فلما فقد الصغار تلك الحماية وجبت الوصية بهم .

ونحن أمام أطفال يتامى في الحقيقة وأطفال يتامى في الحكم ؛ أي أن اليتيم كما قال العلماء إما أن يكون يتيمًا حقيقيًّا وهو مَنْ مات أبوه فعلًا ودفنوه ، وإما أن يكون يتيمًا حكميًّا وهو من يعيش أبوه ، ولكن حياته والعدم سواء .

فهو من ناحية العطاء المادي بخيل حريص ممسك كالميت ؛ يمسك ؛ لأنه لا يملك شيئًا ، وهذا كأنه لا يملك شيئًا .

وهو من ناحية العطاء المعنوي لا ينصح ولا يربي ولا يعلم ولده شيئًا .

وذلك أيضًا كالميت ؛ لأن الميت لا ينصح وهو تحت التراب ، ولا يوجه ، ولا يقول هذا خطأ ، يجب اجتنابه ، وهذا صواب يجب اتباعه ولكن المأساة في اليتيم الحكمي أعمق وأوضح لأن من الناس من لا ينظر إليه ؛ لأنهم يزعمون أن عنده ما يكفيه .

كالجاهل بحال المسكين الذي لا يسأل ، يحسبه الجاهل غنيًا من التعفف .

ثم إنه ينظر فيجد أباه أمامه ، يتحرك ، ويقبض ويعد الأموال ويجمعها ، ويدسها ، ولا ينفق منها عليه .

وبعضهم يود موت أبيه ورحيله ، لأنه يعرف أنه وارثه ، وسوف تنتقل هذه الثروة إليه . أما غير المحروم من الأطفال فيرجو لأبيه الحياة لأن أباه وجوده خير له من عدمه ، فهو ينمي الثروة ويرعاها ، ويزيدها من أجل ولده ، وولده يتمتع بهذه الزيادة ويستفيد ..

ولو مات الوالد لتدهورت ، ونقصت وما زادت ، ومن ثَمَّ فهو يرجو له الحياة .

وعلى الجانب الآخر كذلك هو يستفيد منه عطاء معنويًّا يتجدد كل يوم إن لم يكن كل ساعة ، إنه يأتيه دومًا بالجديد المفيد من علم ونصح وتوجيه ويغمره بالجانبين حبًّا وعطفًا وحنانًا .

الفصل الثالث

الأسرة في زمان الشدة

معاناة الأسرة

جرّب الناس الشدة كما جربوا الرخاء ، وعرفوا آفات الشدة ، وأنها خالية من الحسنات والمحاسن إلّا من حسنة واحدة عبر عنها الشاعر بقوله :

جَـزَى الله الشَّـدائدَ كُـلَّ خـيرٍ عَرَفْتُ بِهَـا عَـدوي مِـنْ صَـديقي

وإذا كانت معرفة العدو من الصديق ثمرة من ثمرات الشدة ، فما قيمة هذه المعرفة إذا استوى الضدان في المنع ، فلا صديق يعطي ولا عدو ؟!.. ولا شك أن معرفة الصديق تبينت من عطائه ، ومعرفة الصديق التي تبينت من عطائه تؤدي إلى أن يحفظ له صديقه الود والمعروف ، فقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه قال : «مَنْ أَسْدى إِليكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئوهُ» ومكافأة من أسدى إلينا معروفًا تكون بمعروف مثله إن لم تكن بمعروف أكثر منه ، قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء : 86] .

والشدة قد تكون معنوية ، وقد تكون مادية ، وقد تكون المعنوية أشد خطرًا من المادية ؛ لأن انهيار الكيان قد يؤدي إلى انهيار كل شيء ، ومن ذلك المال والتجارة وحركة الحياة . ومما وعد الله - عز وجل - المؤمنين به وبرسوله وبكتابه - وهو الحق - إصلاح البال ، قال - تعالى - في الآية الثانية من سورة محمد : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد :2] .

ومن الشدة المعنوية ما كان لرسول الله - ﷺ - في بدء الوحي ، فقد حبب إليه - ﷺ - الخلاء وكان يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد ، فلما نزل عليه الوحي ، وهو حديث عهد به ، لم ير قبله من وحي ولم يخاطبه ملك إلّا ما رُوي أنه كان يراه قبل ذلك في الأفق فلما صار واقعًا ، وخاطبه : اقرأ ، خشي على نفسه - ﷺ - وسلم ، وللعلماء في ذلك أقوال أهمها أنه خشي على نفسه الهلاك .

فلما قال ذلك لأم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - بعد أن زمَّلته كما طلب ، وذهب عنه الروع ، قالت له : «والله لَنْ يُخْزِيَكَ الله أَبدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتُكْسِبُ المعدومَ ، وتُقْري الضَّيفَ ، وتُعينُ عَلى نَوائِبِ الحَقِّ»[1] .

كلمات ثبَّت الله - تعالى - بها قلبه ، وجعلها له بردًا وسلامًا ، ومن تلك الكلمات استنبط العلماء جواز القسم على ما يرفع الله - عز وجل - به البلاء من فعل الخيرات والتحلي بمكارم الأخلاق ، خصوصًا إذا كانت ثابتة في المخاطب ، خالصة من الرياء والسمعة .

وأنا أذكر في هذا السياق الطيب ما نحن عليه من مفارقة بين هذا الجمال الذي في أيدينا وهو من أنفس ما ورثناه من علم ومن واقع حياتنا .

فإن بعض النساء تزيد الرجال هلعًا وفزعًا إمّا لجهلن ، وإما لضعفهن ، وإما لهوى في نفوسهن . والحديث عن هذا الهوى جد مهم ، ألا ترى المرأة لا هوى لها في زيارة زوجها أهلَه ، وصلته رحمه ، فإن عاد مكتئبًا حزينًا - وتلك شدة معنوية - قالت له :

- هذا ما نجنيه في كل مرة تذهب فيها إلى هؤلاء !

(1) رواه البخاري.

اسمع نصيحتي ، وامنع نفسك عن هؤلاء الذين لن يرتاحوا حتى يقضوا عليك ، إنّ أعينهم مدوّرة ، ونفوسهم مريضة وليس وراءهم إلا الأذى ، يحسدونك ، ويحقدون عليك ولا يرجون لك الخير !

وغاية ما ننصح به هؤلاء أن نقول لكل زوجة مسلمة ترجو الله واليوم الآخر :

إذا رأيت زوجك في تلك الشدة ، فعليك بأن تثبتيه بأن تقولي له :

- هذه وساوس شيطانية ، إنك واصل رحمك مؤد حق الله عليك ، مبتغ بذلك وجهه الكريم ، فلا تبتئس ولا تحزن ، ولا يكن في صدرك حرج ، إنما يريد الشيطان أن يحزنك ؛ لكي تتخلف عن واجب تؤجر عليه ، وطهر كساك الله إياه ، ونبل رزقك ثمرته ، فإن قال لها شيئًا قالوه فضايقه تعقبته بقولها :

- إذا كان عملك خالصًا لوجه الله - تعالى - فلا تنظر في وجه أحد ولا تسمع لإساءة مَنْ أساء ، فذلك يضاعف أجرك وثوابك ويزيدك إقبالًا على مولاك ، الذي أعطاك فشكرت ، وأعانك فما قصرت ، وأكرمك فما بخلت .

ولتذكره بحديث النبي - ﷺ - الذي رواه البخاري في صحيحه: « **لَيسَ الوَاصِلُ بِالمكافِئِ ، وَإِنَّما الوَاصِلُ الَّذي إِذا قُطِعَتَ رَحِمُه وَصَلَها** » .

ومعنى الحديث الشريف مضاعفة أجر من هو حريص على صلة رحمه برغم الأسباب التي يضعونها في طريق تلك الصلة من جحود جاحد ، وحسد حاسد ، ومنع آخذ ، وإساءة محسن إليه . أما الذي يكافئ أهله الكرام ، فيحسن إلى من سبقه بإحسان ويرد معروف من أسدى إليه معروفًا فهو مأجور بلا شك ، ولكن أجر الأول أتم وأعلى ؛ لأنه وُقِي شح نفسه ، وآثر هدى ربه على هوى نفسه التي تود أن تسيء إلى من أساء ، وأن تقطع من قطع ، وأن تعتزل من يؤذي ، فليس في وصاله من خير ، ولا في صحبته من منفعة .

لا شك أنّ وقوف الزوجة هذا الموقف يحط عن كاهل زوجها حملًا ثقيلًا ، يهلك إن ظل يحمله ، ولا خير له إلّا في إلقائه عنه ؛ ففي التخلي عنه خفة واستمرار على الطاعة ، ولن يكلفها ذلك إلّا كلمات ، لكن هل كل الكلمات نافعة ؟!

كلمات نافعة .. وضارة

الكلمة بلا شك عنوان معنى ودليله ، وهي تعبير عما ينطوي عليه القلب من معان مجسدة في تلك الكلمة التي يقولها الناطق بلسان ، لكن الذي أود بيانه ، وأحرص على تسجيله هنا أنّ الكلمة قد تكون في ذاتها نافعة ، وقد تكون ضارة مع أنها هي هي ، لم تتغير ، كلمة واحدة ، ترسلها من فمك عبيرًا يملأ الدنيا مسكًا وعطرًا ، وهي هي ترسلها من فمك لظى تملأ الدنيا نارًا ودمارًا .

وقد يتبادر إلى الذهن أني أود الحديث عن مسألة لغوية معروفة وهي المشترك اللفظي الذي يُستعمل في المعنى وضده ، والحق أن هذا ليس مقصودًا ، وليس ههنا مجاله ، إنما أقصد الطريقة التي تساق بها الكلمات .

فقد تقول الزوجة لزوجها المبتلى بسوء خلق أهله وأرحامه :

- هؤلاء هم أرحامك ، وواجب عليك أن تصلهم .

جملتان قصيرتان ، تستعملان بحق ، وقد تستعملان بباطل ولو أنني أمام كاميرا يراني القارئ لبدا الأمر يسيرًا في توضيح الحق والباطل فيهما ؛ لأن مرد ذلك إلى كيفية النطق بهما ؛ فالمشاهدة في ذلك توفر الجهد والعناء ، وتصل بالمشاهد إلى بيان المقصود من أقصر طريق ، لكني سأحاول هنا أن أستبدل بالكاميرا القلم ، وبعين المشاهد عقله وفطنته إلى مقصودي فأقول :

إن التواء اللسان عند النطق ، وجحوظ العينين ، وما يشبه الخضوع بالقول عند النطق يفاد من ذلك أن العبارة مقصود ضد معناها ، وقد رأيت أن ذلك يحدث بأحد أمرين :

الأول : طريقة التعبير على النحو الذي وصفت فلا تخرج الكلمة صافية ، ولا معبرة عن حق ، وإنما تخرج بزفرات الأسى وما ظاهره الإشفاق ؛ الإشفاق على هذا الزوج

المخدوع الذي يقدم الأبيض وينال الأسود ، ويزرع المعروف ويجني المتلوف ، ويقدم السبت مع الأحد ، ولا يجني خيرًا من أحد !

والثاني : يكون بزيادة كلمة ، تكشف عن المراد ، وكأنها بمثابة المسَّاحة التي تمسح الجمال السابق ، وتترك مكانه فارغًا تملأ النفس الأمارة السوء مكانه ما تراه من شتى العبارات السيئة والمعاني السوداء ، كأن تقول الزوجة :

- أهلك ، وعليك أن تصلهم (فماذا تفعل) ؟!

فعبارة الزوجة (فماذا تفعل ؟!) من الزيادات التي تنسي الجمال السابق في قولها : أهلك وعليك أن تصلهم ، وهي بالعامية المفهومة بسرعة (ح تعمل ايه يعني؟!).

ومعنى ذلك أنها تترك لنفسه وشيطانه أن يمليا عليه :

- اعمل كثيرًا كثيرًا .

وهذا الكثير معناه :

اقطعهم ، واضربهم ، وعاملهم وفق أعمالهم ، فإني ذهبت إليهم واصلًا غير قاطع ، ومعطيًا غير سائل ، ومحسنًا غير مسيء ، فما الذي يجبرني على ذلك ؟! وما الذي يحملني على تلك الإهانة ؟! إن البعد عنهم غنيمة وتجنب شرهم من حسن الفطن .

ومن الزيادات كذلك أن تقول لزوجها :

- أهلك ، وعليك أن تصلهم (مش بيقولوا كده) ، وهذه الزيادة (مش بيقولوا كده؟!) دون نسبة قول إلى قائل ثقة أو معتمد ، من الزيادات التي قد تكون بتعبير المفسرين المدققين أقرب إلى تلك العبارة ، وذلك حين يقولون (وقرئ)بالبناء للمجهول ، فذلك معناه عندهم أنها قراءة شاذة ، أي غير متواترة عن رسول الله - ﷺ - والقراءة الشاذة وإن ثبتت بها اللغة إلّا أنها لا تصلح بها الصلاة .

وما يثبت بهذه الزيادة الشك والريب ، يزرعه القائل في قلب من يخاطبه عن عمد وسبق إصرار ليكون بقطيعته من المسرفين أصحاب النار إلّا أن يتوب الله - تعالى - فيصل ما قطع ولا يصح بها معنى ولا تستقيم على طريق .

وهناك أمر ثالث هو إلى شبه الاعتراض على الخير أقرب منه إلى التثبيت على البر ، وهو قول القائل فضلًا عن الزوجة المنوط بها الوقوف إلى جانب زوجها والزوج المنوط به الوقوف إلى جانب زوجته ، ومن أمثلة ذلك أن يشكو الزوج إلى زوجته سوء معاملة من أحسن إليه خصوصًا من أرحامه ؛ فتقول له :

- « أنا عارفة » .

ومع قلة حروف هذه الجملة إلّا أن صداها جليل الخطر سيِّئ الأثر على نفس من يسمعها ؛ فإن صوت الشر ينبعث من داخله قائلًا له ، أرأيت ؟ إنك الوحيد الجاهل في هذا الكون ، الذي يقبل على السوء غرًّا ، لقد كنت تظن أن الخير لاقيك وأن معروفك سيقابَل بمعروف ، لكنك واهم ، وسبب وهمك جهلك ، والدليل على ذلك أن زوجتك تعرف هذا المصير الذي صرت إليه من جرّاء معروفك .

وقد تقول له :

- ألم أقل لك ؟

وربما صاحت ونادت ابنًا لها أو بنتًا ، فحضر ، وقالت له :

- بربك ألم أقل إن والدك سيعود حزينًا مهمومًا ؟!

قل لأبيك ماذا قلت ، تؤكد له أن النتيجة معروفة ، أو أن قلبها كان يشعر بتلك المأساة ؛ فتزيد بذلك شدته شدة ، وهمه همًّا ، وصدره وجعًا والتهابًا .

الظن عند الشدة المعنوية

من حديث عبد الله بن سرجس - رضي الله عنه - الذي رواه النسائي وغيره أن النبي - ﷺ - كان يقول عند السفر : « **اللَّهُمَّ إِني أَعُوذُ بِكَ مِنْ كَآبَةِ المنقَلَبِ وَسُوءِ المنْظَرِ في المالِ وَالأَهْلِ والوَلَدِ** » .

وكآبة المنقلب تعني الهم والحزن عند الرجوع إلى الوطن أو إلى الأرض التي قصدها ، وكان قبل أن يصل راجعًا أو مقبلًا على أمل أن ينقلب سعيدًا راضيًا ، على أطيب عاداته وخير صفاته ، فهو أسعد لحاله وحال من يعاشرهم ؛ فقد يخرج الرجل على أطيب صفة ويعود على غير ذلك ، قد يخرج سعيدًا ويرجع مكتئبًا ، فماذا على أهله من واجب تحوه ؟

ترى ما الذي غيره ، وأثر فيه فأحزنه بعد بهجة وأمرضه نفسيًّا من بعد عافية ؟

لقد رأيت عبارة شائعة جديرة بالذكر والمعالجة ، وهي ظن الزوجة بزوجها سوءًا إذا رجع على غير عاداته ، فليس يستحوذ عليها غير شعور واحد أنه صادف في طريقه امرأة قلبت موازينه ، وغيرت أحواله ، والشائع قولهن :

- مالك هكذا راجعًا مقلوبًا !

وهناك عبارة بغيضة على نفس الرجل وهي « شايف لك شوفة » والمعنى واحد ، ولا ثاني له عند كثير من النساء وهذا حكم مبني على الظن ، والظن لا تُبنى عليه قاعدة ، إنما تُبنى القواعد على اليقين ، ولا يقين ، وعلى المسلمة أن تنظر في وجه هذا العائد على غير مظنة الخير التي كانت في حسبانها قبيل خروجه مبتعدة عن هذا الوهم الذي قد يكون بالفعل حقًّا ، ولهذا حديث آخر ، لكن طرح تلك الفكرة يؤدي بها إلى أن تُمعِنَ النظر فيه ، أي شيء قلبه مكتئبًا ؟!

فهناك من الأسباب الكثير ، ومنها أنه قابل سيئًا ، أو صادف موجعًا ، أو جلس إلى جليس سوء ، أثر فيه ، فأحزنه ، أو سوَّأَ من حسن فعله ، أو كما يقولون : مسح عقله . لقد عاد أحد الفضلاء حزينًا ذات يوم ، فلما جلس وحيدًا ، وقد آثر الصمت لم تذهب النفس من زوجته أي مذهب إلّا مذهبًا واحدًا ، هو هذا :

جمعت بناتها وكُنَّ أربعًا ، وقالت لهن :

- انظرن ما بأبيكن .

فلما قالت الكبرى :

- وما له ؟

قالت أمها :

- أكيد (شاف له شوفه)!

حاولت الوسطى أن تثني أمها عن تلك الفكرة قائلة :

- وهل والدي من هؤلاء ؟

قالت :

- من هؤلاء ونصف !

فلما دنت الفتيات منه علمن أن زميلًا كريمًا له مات فجأة وكان قد سمع قول زوجته التي جاءته معتذرة عما كان منها إلّا أن الرجل لم يجد في صدره قبولًا لاعتذارها ، فقد زادته ألـمًا على ألمه بسبب وداع زميله ورفيق عمره ، وشعر بأن المرأة التي كان يظنها مختلفة عن كل نساء العالم مثلهن إن لم تكن أقل بكثير ، كان يعتقد أن امرأته تعلم قدره وشرفه وصدقه ، وأنه ما قال لها ولو على سبيل المداعبة : إني أعرف امرأة ، أو إني أنوي الزواج بامرأة صفتها ونعتها كما يفعل كثير من الرجال على هذه النية ، ولا داعي إلى ذلك.

ومع أنها صارحته بأن قصدها من هذه العبارة مداعبة بناتها ولم تقصد رميه بتهمة إلّا أنها جرحته ، ولأنه كان رجلًا فاضلًا لم يكبر الموضوع ولم يرتب عليه نقيصة ، ولكنه كظم غيظًا ، وطوى الضلوع على ألم .

وقد يكون رجلٌ غير هذا لا يستطيع كظم غيظ ولا كتمان جرح فيزيد الطين بلة ، والجرح دمًا ، والمصيبة كارثة . فيقول :

- نعم ، وماذا تريدين ؟ وهل عندك من خيل فتركبي؟ وإن وجدت فأعلاها اركبي.

وبناء على تجاريب الحياة وواقع الناس أقول : قد يكون هذا الذي تزعمه المرأة خاطرًا في صدر الرجل فيحدث كلامها هذا استقرارًا له وتحكمًا فيه ، فإذا به يصبح حقيقة

بعد أن بات طيفًا ، ويضحى واقعًا وقد أصبح فكرة ؛ لأن ذلك تحريك لعجلة الجرأة فيه ، ولهذا المعنى وحوله حديث يطول سوف نذكره في موضعه .

ومن النظر الجيد في نفس الذي عاد مكتئبًا ألا تطارده الزوجة بأسئلة متوالية منها :

مالك ؟ ورد عليّ ... وكلمني ... وماذا وراءك ؟ وأي خطب أَلَمَّ بك؟ ونحو ذلك.

والنصيحة أن تلاطفه برفق ، وتصبر عليه بحلم حتى يتحدث وحده ، ويصف ما به من تلقاء نفسه ، والدليل على ذلك ما جاء في الصحيح من قول النبي - ﷺ - حين عاد من غار حراء : «زَمِّلوني» فزملوه فلما ذهب عنه الروع قال من تلقاء نفسه : «خَشِيتُ عَلى نَفْسِي يا خَديجةُ» ولم تقل له - رضي الله عنها - : مالك ولا ماذا جرى لك ، حين قال : «زمِّلوني زمِّلوني».

لسان الحال ولسان المقال

لسان المقال معروف ، كلمات معبرة ، وجمل تامة أو ناقصة مفيدة أو غير مفيدة ، نثر كالدر مسطور أو شعر موزون مبذور ، يبث في نفس السامع أو القارئ تجربة منشده ، وصورته الفنية وجرسه العالي الذي اصطفاه وزنًا متناغمًا وموضوعه وقافيته مؤثرة محكمة مطلقة أو مقيدة .

والعناية بلسان المقال عناية عظيمة ، فنحن نرى موروثات العربية كلها في خدمة لسان المقال ، من نحو وصرف وبلاغة ، ولدينا كتب مؤلفة في الأخطاء الشائعة في كل زمان ، وإصلاح تلك الأخطاء ، والتي يعبر عنها بإصلاح اللسان ، ونظل نعلم أبناءنا منذ نعومة أظفارهم أصول الكلام ، وضبط الألفاظ . ونتسع في ذلك مرحلة بعد مرحلة حسبما تطيق أذهانهم ، وتسمح مداركهم التي تتفتح شيئًا فشيئًا ؛ فنحن نبدأ بمكونات الجملة وأركانها ، ونُتْبعُ ذلك بعدد معين من الأدوات الداخلة عليها ، والتي لها أثر في تغييرها ككان وإن وأخواتها ، ثم نزيد هذا العدد في مرحلة أخرى ، هكذا .

والملح الذي يلح علينا أن نهتم بلغة الوجدان ، أو لسان الحال ، لأن للوجدان لغة قد يعبر عنها على اللسان ، وذلك في نحو قول الله - عز وجل - من سورة المائدة :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة :31] .

فقوله : ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ نداء يدل على ما يلاقيه من شعور بالويل والعذاب .

وكذلك قوله – تعالى – من سورة يوسف : ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف : 84] .

فقوله : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ نداء يدل على ما يعانيه من حزن على ولده .

وفي فتح خيبر عندما فتح الله - عز وجل - على رسوله - ﷺ - خيبر ، وعاد من الحبشة ابن عم رسول الله - ﷺ - جعفر ، - رضي الله عنه - قال النبي - ﷺ - : « لا أَدْري بِأَيِّ الأَمْرَيْنِ أُسَرُّ ، بِفَتْحِ خَيبرَ أَمْ بِقُدومِ جَعفر ؟ » فَهُو - ﷺ - لا يدري بأي الأمرين يسر ، وهذا يدل على عظيم سروره ، وتوفر أكثر من سبب لهذا السرور ، فهو تعبير منه - ﷺ - على تزاحم سببين من أهم أسباب السرور ، وهما الفتح وعودة المهاجر من رَحِمِه والمؤمنين برسالته - ﷺ - جعفر بن أبي طالب الطيار - رضي الله عنه - .

ومن الناس من يعبر عن حزنه وسروره ، ومنهم من هو عاجز عن التعبير عنهما ، لكن لا يكون عاجزًا عن التعبير عن واحد منهما بلسان حاله في الأعم الأغلب من الناس.

فعند السرور تتفتح ملامح الوجه ، وتبرق العينان ، وتخف الحركة ، ويعظم النشاط، وغير ذلك مما ينطق عن تلك الحال بلسان المشاهدة .

وعند الحزن يكون الانقباض في كل شيء والوجوم وتثقل الحركة التي كانت قبله خفيفة ، وحال الحزين لا يخفى على أحد .

ولسان الحال يحتاج إلى بلاغة كما يحتاج إليها لسان المقال ، وأعني بذلك ضبط الحال على قدر الوجدان ، وكما أنّ البلاغة في لسان المقال تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، فإن البلاغة المنشودة في لسان الحال أرجو أن يكون معناها مطابقة الحال لمقتضى الوجدان مع صدقه ، فالصدق يقابل الفصاحة ، ومطابقة الحال لمقتضى الوجدان تقابل مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

فكم من بلاغة يجيدها الناس في لسان الحال ، فيترتب عليها من الأمور ما لا يسر ، وبمزيد من التفصيل أقول : إن حدثا قد يكون ضئيلًا لكنه نزل منزلة الحادث الجلل ، ومثال ذلك ما تقابل به الزوجة زوجها من كآبة منظر ، وسوء حال ، وتغير هيئة إلى درجة أنه يتصور أن ولدًا لهما مات في حادث خطير، فإذا به يكتشف أي شيء لا يُتصور نتيجة بلاغتها في التعبير عنه بلسان حالها .

وهيهات أن أذكر ذلك ولا أذكر نقيضه ، وهو ما كانت عليه أم سليم زوج أبي طلحة - رضي الله عنهما - حيث كان أبو طلحة غائبًا ، خرج وابن لهما مريض ، فلما عاد كان الولد قد مات قبيل عودته ، فلما دخل عليها سألها : ما حال ابننا ؟ فقالت : هو في أسكن حالاته ، وفهم من ذلك أنه هادئ النفس مستريح الصدر والبدن ، وأعدت له العشاء وأعدت له نفسها حتى باتا وكأنهما عروسان ، فلما أصبح قالت له : لو أن رجلًا أعطاك أمانة ثم جاء ليأخذها أو يغضبك ذلك ؟!

فقال : لا .

قالت : وقد استرد الله أمانته والولد قد مات .

روى البخاري ومسلم هذا الحديث ، ومنه يستفاد أنّ هذه المرأة المسلمة قد ضبطت نفسها مثلما ضبط الأديب المعرب لسانه ، وأحسنت السيطرة على أعصابها ، فلم يبد منها شيء يدل على أن ابنها قد مات ، وموت الولد مصيبة كبيرة بلا شك ، والمرأة عاطفتها معروفة ، وسلوكها في ذلك الموضع غير منكر ، فهي الثكلى وبكاء الثكلى ليس كبكاء المستأجرة ؛ أي يؤثر فيمن يراها باكية ولا شك أننا لا نطلب من كل أُمٍّ أن تسلك هذا

السلوك العالي ولكنا نطلب الاقتصاد في التعبير ، والذي جاء فيه قول النبي - ﷺ - : «إِنَّ العَينَ تَدمَعُ والقَلْبَ يَحزَنُ ، وَلا نَقولُ إِلّا مَا يُرضي رَبَّنا».

لقد سمعت صرخات الرجال في وجوه نسائهن قائلين : ماذا هنالك ؟ وفي نهاية الندب والثورة والانهيار تكون النتيجة شيئًا تافهًا ، فهل يعقل هذا ؟!

بلاغة لسان الحال

لقد أثنى الحق - تعالى - على الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض ، فقال في سورة البقرة : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : 273] ، ومعنى ذلك أن طائفة من الناس هم فقراء مساكين ليسوا أغنياء ، ومع ذلك يحسبهم من ليس لهم بهم سابق علم أنهم ليسوا فقراء ، وإنما يحسبهم أغنياء من التعفف ، فهم لا يسألون الناس إلحافًا .

فكيف يتعرف الأغنياء عليهم حتى يكفوهم حاجتهم إلّا بقراءة لسان الحال ، فسيماهم معناها : آيات دالة على حقيقة حالهم من الفقر ، ثياب بالية ، وهيئة غير طيبة أو أمارات تدل على الجوع ، وقد قرأ ذلك جابر - رضي الله عنه - في وجه النبي - ﷺ - فقال : عرفت الجوع في وجه النبي - ﷺ - وصنع له شويهة ودعاه إليها فدعا النبي - ﷺ - الناس جميعًا معه ؛ فأكلوا وشبعوا ببركته - ﷺ - .

وبعض الزوجات لا يُجِدْنَ هذه البلاغة ، أي لا يُسكتن لسانهن ، ويتركن المجال للسان الحال يتحدث بلسانهن عما يحتجن إليه من الأزواج ، وعلى الزوج كذلك أن يحسن قراءة زوجته الصامتة التي لا يعبر لسانها عن حالها إنما ينطق حالها أمامه ، من ثياب لا تتغير ، ومن لوازم في البيت تقول له : آن الأوان لكي تجددنا ، وتتصدق ببالينا ، بل إن من الرجال من يدخل حمامه ويجد بقية من صابونة ألف منظرها وقد صارت مثل العدسة،

حبة صغيرة لا تُرى بالعين المجردة من بعيد ، ومع ذلك ينسى أنْ يأتي بصابونة جديدة بل إن منهن من تلبس صغيرها ثيابه المقطعة وتخرجه إلى أبيه لكي يرى حاله ، ومع ذلك لا تتأثر ملامحه بما يرى من ولده وسوء حاله وهيئته ، ومن هذا يتبين أن هناك من لا يفهم لغة الحال وبلاغته ، فيكون اللسان في ذلك ضرورة ، ولكن هل كل من يخاطب بلغة اللسان يسمع ؟!

صحيح هو يسمع ، ولكنه لم يسمع ؛ فالذي يعطيك أذنه فتصب فيها كلماتك ولا يعطيك قلبه فإنه لا يسمعك وإن ظللت تصب في أذنيه الكلام ساعات طويلة؛ فالكفار سمعوا الذكر فلما أعرضوا عنه قال الله -تعالى- فيهم في سورة الأنفال :﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال : 23] .

فالذين يسمعون هم الذين يستجيبون ، أما الذين لا يستجيبون فلم يسمعوا وإن سمعوا ، قال الله - عز وجل - في سورة الأنعام : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : 36] .

والزوجة إما طالبة بإسراف وعندها ما يكفيها ، وإما طالبة باعتدال ، وإما ساكتة منتظرة ، والزوج إما معطٍ بسخاء ، وإما ممسك على حرص ، وإما معتدل . والاقتصاد مطلوب في الأمور كلها .

وما أود بيانه هنا أن هناك فرقًا بين طلب بلسان المقال وبين طلب بلسان الحال البليغ الذي يكون له الأثر الأكبر من أثر لسان المقال ، ولن يكون له هذا الأثر إلّا إذا صادف عينًا قارئة ، وقلبًا واعيًا ، ودمًا متدفقًا بمشاعر الإنسانية .

لقد كتب أحد الفضلاء عن زوجته الراحلة مقالًا ذكر فيه أنه رأى في منور بيته ؛ حيث نظر إليه على غير عادته ملابس زوجته الداخلية منشورة إثر غسيل وهي مهلهلة،

فما طاب له طعام ولا شراب ، وصحبها دون أن يقول لها كلمة ، فلم تعرف إلى أين يصحبها حتى وصلت معه إلى بائع هذا الصنف من الملابس ، وهناك أدركت سر هذا الخروج المفاجئ ، وشعر بيدها على يده ، فلما نظر إليها قالت له :

– لا تشتر من أجلي شيئًا ، فأنت أولى بالجديد مني ، فأنا أقيم بالبيت ، ولا يراني أحد، وأقل شيء يكفيني . أما أنت فتخرج وتعمل ويراك الناس ، ولا بد أن تكون في أجمل صورة تليق بمثلك .

عندئذٍ اغرورقت عيناه ، وفاضتا بالدمع والدمع غالٍ واشترى لها المزيد ، وعادا سعيدين إلى بيت سكنته المودة ، وغشيته الرحمة ، ونشأت فيه أسرة قوية ، ولم تكن لها من الدعائم المادية الكثير ، ولكن دعائم الوجدان ، والحب ، والمودة قد شكلت وجدان جيل كان امتدادًا لتلك المعاني العليا ، وهي خير وأبقى .

وتبقى القضية قائمة ، وهي صدود من يصد عن اللغتين فضلًا عن بلاغتهما ، فلا تؤثر فيهم كلمة ولا تؤثر فيهم هيئة ، وعلاج ذلك كلي غير جزئي ، وشامل غير خاص ؛ فنحن في حاجة إلى تربية الأجيال على منهج الإسلام ، وإذا كان من هذا المنهج إجابة ذي الحاجة الملهوف ، فإن الزوجة أولى بالإجابة ، والولد أولى ، وإذا كان للسان لغة نعرفها فإن للوجدان لغة يجب أن نعرفها خُصُوصًا وقد تقطعت منه -حبال كثيرة ، وتفرقنا أيادي سبأ عنه ، وبات ينادي ولا يلبي نداءه أحد إلّا من رحم الله . غلبت المادية بمصالحها على المشاعر ، وطغت ، وصرنا نسمع أولادًا يدعون الله – تعالى – أن يتوفى آباءهم وأمهاتهم رحمة بهم إذا زَمِنُوا ودام مرضهم ، وهم في الحقيقة يرجون لأنفسهم راحة من تعب الخدمة وعناء المتابعة ، فهل في صدور هؤلاء قلوب أم أنها هواء ؟!

المرأة في حال الشدة

صور شتى ، ومظاهر متعددة للمرأة الأصيلة في زمان الشدة ؛ فإذا كانت النسوة من بني سعد قد خرجن في سنة رمداء عصيبة ، وقصدن مكة طلبًا للرُّضَعاء ، وخروجًا من الأزمة ، فإن نسوة كثيرات يجدن بأشياء ، ويتبرعن بالغالي ويبذلن النفيس خروجًا

بأزواجهن من الشدة المادية ، فالمعنى واحد وإن اختلفت الصورة من زمان إلى زمان ، ومكان إلى مكان ، فهذه التي خلعت ذهبها ، وباعته منقوصًا ، وأعطت ثمنه زوجها ليتصرف فيه ، فواسته حتى انفرجت الأزمة ، وفكت الكربة ليست بأقل من أختها التي خرجت مع زوجها تبحث عن رضيع تغذيه بلبن حياتها من أجل الخروج من الشدة ، فلو أنَّ التي خرجت طلبًا لرضيع كانت ذات حلي ومتاع لآثرت بيعه والتصرف فيه على طلب الرضيع وحضانته وتحمل تبعته وعناء صحبته .

ولو أن المرأة في زماننا لم تجد بدًّا من طلب رضيع لطلبته لكن البيئات تختلف وكذا العادات ، ولكن يبقى المعنى موجودًا قاسمًا مشتركًا بين المرأة في الزمن القديم وبين المرأة في كل زمان بعده ، وهو التضحية والمشاركة .

والمرأة كأنها مخلوق خلق من أجل التضحية والعقبة الكؤود التي تقف في طريقها هي الجحود والنكران ، وسوف نعرض في هذه السلسلة نماذج من المآسي التي لقيتها المرأة في زماننا بسبب هذا الجحود والنكران .

إنني على يقين أنّ التضحية دم يجري في عروق النساء ، وهن لا يطلبن أكثر من كلمة طيبة ونظرة امتنان ، فهل ذلك عسير ؟!

إنّ الذين نشأوا في القرى ، يعلمون جيدًا ما قدمته الزوجة من جهد خدمة لزوجها ورعاية لأولادها خصوصًا في زمان الشدة ، في القرى ترع ومصارف يطلق عليها اسم «المشروع» . نعم كان مشروعًا ذات يوم ، نودي الفلاحون لحفره ثم سيقوا إلى حفر قناة السويس مع اختلاف النداء والدعوة ، وكانت النساء أسبق من الرجال تلبية للدعوة وجلبًا للرزق .

والمرأة التي ضربت الأرض الصلبة بالفأس ، وتطاير شررها في وجهها ، ونزفت حبات العرق على حفرها في صباها وشبابها ما كانت إلّا امتدادًا لأختها في الزمن القديم التي خرجت تنزف قطرات اللبن في فم الطفل الغريب الذي صار ابنها من الرضاعة ،

تعبتا وشقيتا ونزفتا ، لكن صاحب الأولى حدثها فقال : لقد أخذت نسمة مباركة ، نسب الأخذ إليها ، والعمل إليها شاهد حق ، ومعترفًا بفضل ، لكن زوج الثانية قال لها : وماذا فعلتِ يا هذه ؟ هل كنت الوحيدة التي حفرت الأرض وحملت الطين ؟ هكذا المعيشة وغيرك أفضل منك ، ومن الرجال من شكر فاستقامت الحياة ولم يضع الجهد هدرًا ، كما شكر الأول .

ومن هؤلاء من رأيته ينهر ابنه ، لعصيانه أمر أمه قائلًا له بصدق :

- إن مثلها أولى بأن تخضع لها ظهرك تركبه ؛ فقد كانت حين حملت بك تعمل وتشقى وتتعب وتعرق ، وكانت تعود آخر اليوم في المساء وقد انكسر ظهرها ، واعوجت رقبتها تصنع لنا الطعام ، وتسقينا ، وتملأ الأواني كلها بالماء العذب من مكان بعيد ، تأوهت وحدها وما تبرمت ، وانكسرت فما اشتكت ، وأعطت وما أخذت ، إنك عاق وابن عاق . يا أخي ارحم ، وتعلم ، وقبِّل قدمها قبل أن تقبِّل يدها حتى يرحمك الله . واستمر على هذا النحو من العتاب الشديد حتى بكى ولده ، واتجه إلى أمه يمطرها بدموعه ويرجو عفوها وصفحها ، فعفت عنه ، ثم استطرد أبوه قائلًا : يا ولدي ، إن أمك هذه كنز ، بل إنها والله أعظم من كنز وأغلى ، لقد تزوجتها صغيرة ، كانت صواحبها بنات يلعبن في الشارع ، فما إن حلت بيتنا حتى رأيناها أكبر من صاحباتها وأعقل من كثيرات غيرها ، لم تر أمك يومًا فيه راحة ، وكان جدَّاك كبيرين فما حملها أحد غيرها ، كانت ابنة حقيقية بالنسبة إليهما وحين نادى المنادي للمشروع قالت : ألست تسمع ؟ قلت : بلى أسمع . قالت : لا نضيع هذه الفرصة ، إن أجر العامل في هذا المشروع في اليوم الواحد أكثر مما تعطيه (الوسيّة) ، قلت : وما شأنك أنتِ ؟! غدًا بإذن الله أذهب إلى المشروع وأعمل مع العاملين ؛ فقالت : رجلي على رجلك !

قلت : إن هذا العمل للرجال ، لا تصلح النساء فيه ، فهو حفر في أرض صلبة .

قالت : فليكن الحفر لك ، والحمل عليَّ.

قلت : تتعبين .

قالت : أوتعد هذا تعبًا ؟ إن التعب الحقيقي أن نمسي وجيوبنا خلو من المال ، وحد الله وصل على النبي .

قلت : لا إله إلّا الله ، واللهم صل عليك يا نبي ، نامي نامي ، وعند الصباح يفعل الله ما يريد .

وما نامت لها عين ، كانت تنتظر الصباح كأنه صباح يوم عرسها ، أو كأنها مسافرة فيه إلى نزهة جميلة ورحلة طيبة ، ولم تكن جاهلة بما سوف يكون ، لكنها كانت سعيدة بسبب ساقه الله إلينا من أجل كسب مشروع . وحين طلعت تباشير الصباح أيقظتني ، وذهبنا معًا ، وكنت أمشي على استحياء إلى جوارها ظانًّا أن رئيس العمل بالمشروع سوف يقول لها : ارجعي يا امرأة .

لكن سرعان ما تبدد هذا الاستحياء حين وجدت غيرها وسمح لهن بالعمل ، ففضلها كبير وجميلها لا ينسى !

وإذا كانت المرأة في زمان الشدة قد سعت من أجل الحصول على رضيع ، وارتحلت مع زوجها إلى مكان بعيد ، تحرس الخيام ، وتبيع وتشتري ، وعملت خياطة ، تقص وتخيط ، وتتحمل وجوه النقد من أجل النَّقْد ، وتوسع الضيق ، وتضيق الواسع ، وتقصر الطويل ، وتطيل القصير ، فهناك التي لم تجد فرصة للإرضاع ، ولا محلًّا للارتحال ، ولا ماكينة للخياطة ولو وجدتها لما أسعفتها بها خبرة ، لكنها وجدت سبيلًا مهمًّا ، بل إنه من أهم السبل في مقاومة الشدة ، ومعالجة الأزمة ، ألا وهو سبيل التدبير والاقتصاد ، فهذه زوجة علمت حال زوجها وما يعانيه فلم تقف مكتفة الأيدي ، وإنما قامت بالتدبير على قدر ما علمت واجتهدت ، وللتدبير طرق ، مَن أحسنها فقد اهتدى ، ومَن أساء فيها فقد أفسد من حيث نوى الإصلاح .

لقد كانت تذهب إلى السوق بمبلغ زهيد ، تشتري الرخيص من الخضر ، تجتهد في اختيار أفضله ، فإذا رأيته بين يديها حسبته من الغالي ، وما من شك في أنها بذلت في ذلك جهدًا ، وأنفقت وقتًا ، كانت تستغل كل شيء ، وتدبر كل شيء ، إلى درجة أنها كانت

تجمع لقم العيش إثر تناول أسرتها - المكونة منها ومن زوجها ومن ولدين - الطعام، وتقوم بتنظيفها، وتصنع منها في يوم قريب وجبة شهية من (الفتة) وذلك إذا اشترت دجاجة، وكانت كما قالت تكتفي بجناحيها تأكلهما وتناول زوجها فخذًا، وتطعم صغارها كبدتها وأجزاء ناعمة منها.

وكانت تلبس صغيرها ملابس أخيه الكبير، إذا شبَّ عنها؛ بحيث لا تكلف زوجها شراء ملابس للاثنين، وكانت أحرص ما تكون على وقاية ولدَيها من الأمراض، قائلة وهي حريصة:

- يا رب الأرض والسماء يا فعَّال لما تشاء، احفظ ولديَّ من العلل والأمراض، فأنت سبحانك تعلم أنَّا لا نملك ثمن الدواء، وأعتقد أن دعاءها كان من الدعاء المستجاب؛ حيث أخذت بالأسباب، ودعت رب الأرباب، فحفظ الله - عز وجل - ولدَيها.

لم تكن من اللواتي هن حريصات على المناسبات والمجاملات بل كانت ترد بذوق رفيع هدايا الجيران والأقارب حتى لا تكون مدينة برد تلك الهدايا، وحين صارحتها أختها بأنها تنوي شراء لعبة لولدها في عيد ميلاده قالت لها: لا تفعلي؛ فإن والده يرى ذلك بدعة، وهو يرغب في أن يربي ولده على السُّنَّة، وكل يوم يمر بدون مشكلات يعتبر عيدًا، فلا تكبري المسألة.

وكانت تحتفظ في دولاب ملابسها بطاقم خروج لها ولأولادها إذا عزم الزوج على زيارة أهله، فيراهم الناس في أبهى صورة، ونشأ أولادها على القناعة والتدبير دون أدنى معاناة، فكل شيء مع التدبير متوفر، وكل أمر مع الاقتصاد ميسور، كانت تقول لولديها:

- إن أباكم لا يبخل عليكم بشيء، فهو يأتي بالخيرات، وهذه الخيرات من كبرى النعم، والنعم تريد مَنْ يصونها، وصون النعم يكون بحسن تناولها والتعامل معها، فَمَنْ

أحسن أحسن الله إليه وزاده من نعمه، وأجمل هدية أهدتها تلك الزوجة ولديها أن قالت لهما:

- إن رأيتما من هو أحسن منكما لبسًا ومظهرًا فلا تنظرا إليه، وإنما انظرا إلى من هو دونكما.

يقول زوجها لولديه وقد شبَّا عن الطوق، وقد تغيرت الأحوال ومعها تغير البيت، وجاء من الله - تعالى - فتح:

- لم أكن أتصور الحياة بدون أمكما، هيهات هيهات لقد بدأنا حياتنا وكل شيء أمامنا ينطق بمأساة، كان دخلي قليلًا، ولم أشعر بنقص ما في أي شيء، كان طعامنا لذيذًا وكافيًا، وكان فراشنا نظيفًا، وكنت أراكما طفلين كلؤلؤتين جمالًا ونظافة ونضرة، ومن رآكما ظن أن أباكما من الوارثين الكبار، أو من ذوي الوظائف الكبيرة؛ فالفضل لا بد أن ينسب إلى أصحابه، وأمكم صاحبة فضل كبير عليَّ وعليكما. والجميل الذي يثلج الصدور أن الزوجة أجابت زوجها وأسمعت ولديها، فقالت:

- هذا تهويل من أبيكما يدل على مكارم خلقه؛ فقد تزوجني فقيرة، ورضي بي، وأنا في الحقيقة لم أفعل شيئًا، لقد كان أبوكما يشقى ويتعب، لقد كان زملاؤه يرتاحون إذ يحصلون على إجازاتهم وكان أبوكما لا يرتاح يومًا، وكم تحمل المشاق والمتاعب من أجل إسعادنا جميعًا، والله لقد كنت أقيم في الظل وكفاني أبوكما عناء البرد والحر، ولا يستوي مَنْ يقيم في الظل مهما قدَّم ومن جاهد في الحر ولقي الصعاب.

ولا أتصور هذا الجواب إلّا رد فعل لحسن فجاء حسنًا. أما لو قال الرجل لولديه: لقد تزوج الرجال بالعاملات وتزوجت قعيدة، وتزوجوا غنيات وتزوجت فقيرة، وأنا الذي فعلت وفعلت وعملت واجتهدت، بل إن بعض الرجال في هذه المواقف يقول: إن زوجته هي سر فشله وتخلفه، وعندئذٍ يسكب في حلقها جمرات من نار، هيهات تطفئها مياه البحار والأنهار؛ فالجحود خلق المفسدين والعرفان خلق المتقين!

الفصل الرابع

حسن معاشرة الأهل

حديث أم زرع بين الأصل والواقع

ربما قالت امرأة اليوم زوجي العشنَّق فيضحك القوم خصوصًا النساء اللاتي لا عهد لهن بمثل هذه اللفظة « العشنَّق » ومعناها المفرط في الطول ، أو طويل العنق ، لقد شاع استعمال كلمة « طويل » واختفى استعمال كلمة « العشنق » ولا بأس ؛ فاللغة في تطور وانتقال من حال إلى حال ، وقد جاء لفظ طويل في القرآن الكريم ، ولم تأت العشنق ، والله - عز وجل - يسَّر القرآن للذكر ، ومن آيات هذا التفسير سهولة لفظه ووضوح معناه ، فهل من مدكر يسير على هداه؟!

ليست هذه هي القضية ، إنما القضية التي أود أن أعالجها هنا هي قضية المفارقة بين خُلق وخُلق كما هو حال المفارقة بين لسان ولسان ، وأقول : هل يختلف الخلق باختلاف اللسان ، بمعنى أنّ التي كانت تستعمل « العشنَّق » كانت على خلق أسمى من التي تستعمل الطويل ، أو طويل العنق ، أو العكس ؟

والحق أن هناك فرقًا في كل شيء بلا شك ، وذلك مرجعه إلى اختلاف الظروف والأحوال والبيئات ، وكما أن اللغة تتطور ، وتضاف إليها جملة من الألفاظ التي لم تكن مستعملة في الزمن القديم بالنظر إلى حاجة المسميات المستخدمة التي لم تكن موجودة في الزمن الأول ، تختلف كذلك سلوكيات الناس بالنظر إلى عوامل كثيرة تطرأ على الناس ، فما راكب الناقة كراكب السيَّارة ، وما الذي ينطلق على الأرض كالذي يسبح في الفضاء ،

وما ساكن بيت الشِّعر كساكن شقة في غمرة أو في قرية تعاني ما تعانيه من ضيق الدار، والدرب، والمساحة الزراعية.

وليس مَنْ كان اقتصاده مرتبطًا بسوق الغنم والشعير وهو منه قريب وإن ارتحل في شهر ذهابا وفي شهر مثله إيابًا، بمن يعيش واقتصاده مرتبط بسوق الذهب والبترول والدولار وهو عنه بعيد، تتحكم فيه قوى خارجية، فعولمة الأول أرض معلومة وعشائر قريبة وعهود بين أخلاء، وعولمة الثاني طوفان زاحف وإن كانت الأرض معلومة إلّا أنها تبدو أنها أرض غير الأرض، والمجال هنا لا يتسع لمزيد بيان، غاية ما يقال إن هناك ما يعانيه الإنسان في هذا العصر والأوان ولم يكن مثله في زمان العشنَّق.

وقصة حديث أم زرع سواء أكان من عائشة - رضي الله عنها - أم من النبي - ﷺ - على الوجهين اللذين ذكرهما ابن حجر - رحمه الله - فقد روي مرفوعًا أن النبي - ﷺ - قال لعائشة - رضي الله عنها - : « كُنتُ لَكِ كَأَبِي زَرعٍ لأُمِّ زرع » فقالت : « بَأَبِي أَنْتَ وأُمِّي يا رسُولَ الله ومَنْ كَانَ أَبو زَرعٍ؟» فساق الحديث [1] - قصة حديث أم زرع كما جاءت في صحيح البخاري تدل على حسن معاشرة الأهل، وقد عنون له - رحمه الله - بقوله (باب حسن المعاشرة مع الأهل) ؛ أي أن من حسن المعاشرة مع الأهل أن تكون هناك مساحة للحديث، وللسماع، والمؤانسة، والملاطفة، وقد يكون ذلك بذكر قصة تطول، يُستسقَى الشاهد منها من أجل ما فيها.

والدليل على ذلك أن النبي - ﷺ - قال لعائشة - رضي الله عنها - كنت لك كأبي زرع لأم زرع، ولا بأس بأن يحكي الرجل لزوجته قصة مثل هذه القصة، فتقول له : كنت لك كأم فلان إلى أبي فلان ؛ إذ كانت أم فلان هذه بارة بزوجها حسنة العشرة معه، رقيقة الحاشية، حريصة عليه وعلى ولده. فالله - عز وجل - بعد أن ذكر عددًا من الأنبياء

(1) فتح الباري 9/ 165.

الصالحين قال الرسول - ﷺ - في سورة الأنعام : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : 90].

وقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه ذكر حلف الفضول الذي كان في الجاهلية لنصرة المظلومين : « لَوْ دُعيتُ إِليهِ في الإِسْلَامِ لأَجَبْتُ » ، فالإسلام لا يعرف التعصب، وإنما يدعو إلى محاكاة الخير، والمرافقة بالمعروف، وقد أمرنا ربنا - عز وجل - ببرّ مَنْ لم يؤمنوا بديننا ما داموا مستقيمين لنا، لكن أن نلفظ كل شيء وأن نكره كل شيء، لأنه ليس من ملتنا، فذلك أمر نحتاج إلى مراجعته خصوصًا مع الشباب الواعد الذي يرى أن في ذلك بأسًا ولا بأس فيه، ومهما اختلفت الظروف والأحوال والبيئات يبقى الإنسان هو الإنسان في حاجة إلى مَنْ يكلمه ويلاطفه ويؤانسه ؛ فالنفس البشرية يسعدها اليوم ما أسعدها من مليون سنة من حكمة طيبة وتقدير للعقل ورحمة بالمشاعر، تختلف وسائل العيش ويبقى الماء البارد نعيمًا، واللقمة الهنية الطرية تشتهيها النفس، وهكذا.

وكما يطيب الماء البارد ويلذ الطعام الشهي تطيب الكلمة الطيبة والمؤانسة بين الزوجين. فهل يسوق هذا الزوج تلك القصة بغرض مؤانسة زوجته وحسن معاشرتها أم أنه يسوقها تعريضًا بها ؟ وكأنه يقول لها : إن حالك مثل حال هذه المرأة التي مهما تكن فيه من بواعث السرور والبهجة ورغد العيش، فهي ملازمة للنكد عاشقة له، لا يؤثر فيها شيء من نعيم، ولا ينسيها ذلك النكد حسن معاشرة ولا اتساع رزق.

إن حديث أم زرع يكشف لنا عن اصطفاء النموذج الطيب، تستأنس به الزوجة، أو يستأنس به الزوج ليرى مكانته عند صاحبته، من خلال مثل يساق، أو قصة تُروَى، شريطة ألا تعطل هذه القصة مسيرة حياة أو تُلهي عن عبادة أو تُنسي موعدًا للصلاة.

حديث أم زرع والصمت بين الزوجين

قالت والدمع يسبق لفظها، وصوت النحيب يرتفع شيئًا فشيئًا، ويكاد يطبق على قولها الذي أرادت بيانه، وشكواها التي أرادت لها جوابًا، ولو أنَّ متسرعًا بالحكم اكتفى

بصوت النحيب لقال لها : كفى كفى قد فهمت ولا خير لك في صاحبك ، هدأت وما هدأت أنفاسها ، وراح صوت النحيب الذي انتصر عليه صوت المنطق برهة من الزمن يعود من جديد ، يرفع النبرة ، ويثير الدمعة ، وكأن المعركة سجال بين الشكوى التي يجملها صوت العقل ، وإبراز صوت الوجدان الذي يحمله النحيب والبكاء ، ثم قالت :

- زوجي رجل كريم ، وابن ناس ، من أسرة عريقة ، يعمل عملًا محترمًا ، ويحب أولاده ، ويغدق عليهم ، وهو يصلي ويصوم ويتصدق ، وقد حج بيت الله واعتمر ، وكل شيء فيه جميل لكنه أخو صمت مرعب ، إذا جلس لا ينطق ، وإذا نطق نفخ ، يضيق ذرعًا إذا فتح أحدنا فمه ، لقد كرهنا الكلام بسببه ، إنه أمام التلفاز يسمع ويشاهد الجميل وغير الجميل ، ولست أدري كيف يطيق ذلك يسمعه ، ولا يطيق سماعنا وسماع أولاده !

هل تتصور أننا على ذلك مدة عمرنا ؟.. اللهم في سنوات الزواج الأولى ، بعدها أصابه ما أصابه من هذه الحالة العجيبة من الصمت .

ونحن إذا أخذنا هذه الشكوى مأخذًا ظاهرًا قلنا إن هناك تفسيرًا من تفسيرين ، وتبقى بعد ذلك كلمة واجبة :

الأول : أن يكون ذلك الرجل مريضًا بمرض نفسي ، والعلاج يدعو إليه الدين .

والثاني : أن وراء الصمت قصة ، قد تكون الزوجة سببًا فيه ، فلم يجد عندها ما يدعو إلى محاورتها ، وفك حصار الصمت ، وذلك أقدمه بين يدي مَنْ يدرك ما وراء الشاكي من إلقاء التهم على غيره ، وتبرئة ذمته من أي عيب ، فإن قلنا للشاكية لعلك لا تجيدين لغة الحوار قالت : أبدًا ، وإن قلنا لها : لعلك لا تردين ردًّا طيبًا قالت : أبدًا . وأي سؤال يكون منا لها سيكون الجواب : أبدًا ، فلن نملك إذا أردنا تخلصًا إلّا أن نقول فيه إنه رجل سيئ ، أما وقد قالت الزوجة إنه كذا وكذا ؛ أي إنه رجل يعرف ربه ، ويؤدي حقه، ويصون عهده ، ويلزم بيته ، فقد عدلت في القول ، وخالفت كثيرات وكثيرين من الذين يشكون فيذكرون السيئات ويغفلون عن الحسنات ، وفي هذه الحالة تأتي الكلمة الواجبة ،

وخلاصتها أن نقول لمثل هذا الرجل : إن من تقوى الله - عز وجل - أن يكون الرجل مصلحًا بيته وأهله ، وقد قال الله - عز وجل - في سورة طه : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه : 132].

ولن يكون الأمر بالصمت ، إنما الأمر بقوله : « صلوا» ، ويقول - تعالى - في سورة التحريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : 6] .

ولن تكون وقاية النفس من هذا العذاب -أعاذنا الله منه - إلّا بلزوم التقوى لله - عز وجل - والالتزام بشرعه وآدابه ، ولن تكون وقاية الأهل من النار إلّا بالأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد ، وقد يكون ذلك بكلمة طيبة تواسي جرحًا ، وتزيل إبهامًا ، وتذكّر غافلًا ، وتعين عاقلًا ، وكل ذلك ذكره العلماء وهو من عزائم الأمور ، والقرآن الكريم حافل بالحوار ؛ بين رجلين كان لأحداهما جنتان ، فنصح صاحبه له أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلّا بالله ، وبين النبي - ﷺ - وزوجه ، وبين النبي - ﷺ - وزيد بن حارثة الذي لم يذكر من الصحابة في القرآن الكريم غيره في سورة الأحزاب ، بل بين خليل الله إبراهيم - عليه السلام - وبين النمرود الذي بهت في سورة البقرة ، وبين موسى - عليه السلام - وفرعون في أكثر من سورة . ولا بد أن يعرف المسلم أن الله - عز وجل - قد قال في مطلع سورة الرحمن : ﴿الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن :1- 4] .فهل علم الرحمن الإنسان البيان كتمانًا ؟! وقد قال النبي - ﷺ - : « إِنَّ مِنَ البيانِ لَسِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الشِّعرِ لَحِكْمَةً » . والسحر البياني سحر حلال إذا تحلى به المسلم وهو

يعلم حلاله من حرامه ، فكان بيانه في فلك الحلال وهو واسع ولم يكن بيانه تجسيدًا لحرام بغيض ، ومن نعم الله - عز وجل - على الناس نعمة اللسان ، قال - تعالى - في سورة البلد : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد : 8، 9] .

فلمن يكون بيانك ؟ ولمن تستعمل لسانك ، ونحن نعلم أنَّ مثل هذا الرجل الذي يلزم الصمت لا يكون صامتًا مع جاره ولا مع زميله في العمل ، وقد يكون السبب في ذلك واضحًا لمن تدبر في تلك المسألة على بصيرة ، فإن اللسان الحلو يعطيه المرء للأجانب ولا يعطيه للأقارب وهم بلا شك أولى من الأجانب ؛ لأن الأجانب يظهرون عليه في أكمل أحوالهم ، وأتم زينتهم ، إنه يراهم على تلك الصورة وكأنهم لم يدخلوا حمامًا ، ولم يكونوا في حالة دون تلك الحالة ، ولسانهم الذي يمطر السكر كأنه لم يسقط وابلًا من السوء قبلُ ، يراهم كالندى والزهر المتفتح وكأنهم لم يكونوا قبل ذلك كأوراق الخريف في نومهم وفي فترة إفاقتهم وتناول فطورهم ، قبيل خروجهم على هذه الزينة . وفقدان التصور لهذه الأحوال يجعل الإنسان في وهم ، وهو يحبه ، لأنه يرغب في المثالية ، ويود أن يهيم على وجهه في الخيال ، وقد عاشه يومًا أو سنة حين كان خطيب تلك المرأة، كان لا يعرف الصمت ، كان يقول كل شيء ، في كل شيء ، ويفتي في كل شيء وحين يعود إلى بيته يثرثر معها في الهاتف حتى مطلع الفجر : ماذا قال ؟ وإلى أي شيء انتهى ، لا شيء ، ولا نتيجة (سمك ... لبن ... تمر هندي) ، فلما تزوجها لزم الصمت أو لزمه كما قالت المرأة بعد سنتين أو ثلاث من الزواج بعدهن جف النبع ، وغار الماء ، وكان الصمت ، يا سيدي الأستاذ لتعلم أن دين الله علاج للحياة ، ومن الحياة أن يكون بينك وبين أهلك لغة وتواصل ، ولن يكون هناك تواصل بلا كلام إلّا إذا كنت أخرس ، فاقدًا نعمة السمع التي تتبعها نعمة اللسان ، ومن هؤلاء من تفوق إشارته لسان البلغاء، حين يخاطب زوجته بلغة تفهمها ، هي لغة الإشارة ، أما أنت فقد متعك الله بنعمتي السمع والنطق فاسمع أهلك وأسمعهم صدى حنانك قبل أن يودعنا السمع والبصر والكلام !

حديث أم زرع بين المدح والذم

في قرية من قرى اليمن ، وقيل بمكة اجتمعت إحدى عشرة امرأة تغيب أزواجهن ، وقلن : تعالين نذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب . قال ابن حجر : ويستفاد من هذه الرواية معرفة جهة قبيلتهن وبلادهن .

وقد جاء في رواية غريبة ذكر أسماء بعضهن ، فقيل إن اسم أم زرع زوجة أبي زرع عَاتِكَةُ ، واسم الثانية عمرة بنت عمرو ، والثالثة حُبّى بنت كعب ، والرابعة مِهْدَد بنت أبي هزومة ، والخامسة كبشة بنت الأرقم ، ولم يرد اسم الأولى ولا التاسعة ، ولا أزواجهن ولا ابنة أبي زرع ، ولا أمه ، ولا الجارية ولا المرأة التي تزوجها أبو زرع، ولا الرجل الذي تزوجته أم زرع [1].

وقد ذكر العلامة -رحمه الله - في هذا الموضع أن خمسًا منهن مدحن أزواجهن ، وخمسًا ذممنهن ، فالمادحات خمس والذامات خمس ، ومعنى ذلك أنَّ خمسة أزواج قد مُدحوا وخمسة أزواج قد ذُموا ، ونص الحديث يشهد بذلك ، ونحن نود أن نستثمر هذه الفكرة في بحثنا هذا فنقول : إنّ الشاكيات في زماننا عن طريق الذم هن الكثيرات ، وأذكر أنني كنت أقدم برنامجًا على الهواء في قناة عين التابعة للـ « ART» وكان خاصًّا بالأسرة ، وكانت تأتيني المداخلات والاتصالات من زوجات كل واحدة منهن تشكو شكوى أسوأ من أختها ، فزوجة تقول زوجي يهملني ويجلس أمام الشات ، وأخرى تقول : زوجي يكرهني ولا يطيق رائحتي ، وثالثة تقول : زوجي يكره أهلي ، ويمنعني عن زيارة أمي ، ورابعة تقول : زوجي تزوج زواجًا عرفيًّا بسكرتيرته وهو يقيم معها ولا يأتينا ، وخامسة تقول : إن زوجي أبخل من في الأرض ، يضيق علينا ، وسادسه تقول : زوجي يقول : (هذه حياتي وإن كان عاجبك) ، وسابعة تقول : زوجي هجرني وتركني معلقة ، وثامنة تقول زوجي يضربني على أتفه الأشياء ، وتاسعة تقول : زوجي منه لله ، أخذ ميراثي ، وفتح

(1) فتح الباري 9/ 167.

به مشروعًا ولما أغناه الله تزوج بأخرى وقال لي : لا شيء لك عندي ، وعاشرة تقول: زوجي يطلب مني لكي يعاملني معاملة طيبة أن أتنازل له عن جميع حقوقي ، ومنها مؤخر صداقي ، وقائمة منقولاتي .

فقلت وأنا في هذا الخضم من الشكاوي : اللهم إني أدعو أن ترسل إلينا على الهواء متحدثة تقول إن زوجها رجل طيب سويّ ، يعاملها معاملة حسنة ، وكانت دعوة مستجابة ؛ حيث اتصلت واحدة ، وقالت : أنا زوجي رجل طيب ، والعلاقة التي بيننا علاقة لا أقول طيبة ، فهي أكثر من ذلك ، ولا أجد شيئًا معبرًا عن عظمة هذا الرجل وحسن خلقه وكرمه غير الدعاء له بأن يستره الله في الدنيا والآخرة ، وأن يوسع عليه رزقه....

قلت على الهواء : الحمد لله ، لقد استجاب الله - تعالى - دعائي واتصلت أنت لكي يكون اتصالك هذا دليلًا على أن الخير باقٍ ، وأن البشرى قائمة ، وأن الحياة جميلة ، فبارك الله لكما وفيكما وعليكما .

أذكر هذا ؛ لأبين أن هناك خيرًا ، وإن كان قليلًا وأذكر كلام ابن حجر ؛ لأبين أن الناس من قديم فيهم الممدوح ، وفيهم المذموم ، وفي النساء من تمدح وفيهن من تذم .

وأول حديث أم زرع أن هؤلاء النسوة قد تعاقدن وتعاهدن على الصدق ، وما دمن قد تعاهدن على الصدق ، وإذا كنا نصدقهن ولا نكذبهن ، فمعنى ذلك أن الصدق أدّى إلى بيان الحقيقة ، وهي أن نسبة 50٪ من الأزواج رجال طيبون ومثلها دون ذلك .

وإذا اعتبرنا النسوة الإحدى عشرة في هذا الحديث عينة بحثية حصلنا على نتيجة تساوي الخير وضده ، والطيب وضده .

وإذا اعتبرنا مكالمات الحلقة وكانت 2007 عينة ، كذلك حصلنا على نتيجة تفوق الشر على الخير ، والخبيث على الطيب ، لكن هذه النتائج ليست مسلمات ؛ لأنا نعتبر هذه المكالمات صادرة عن مجروحات ، أو أن التي تتصل بنا هي التي بلغ بها الألم مبلغه ، أما

التي تعيش في نعيم مع زوج طيب رحيم لم يظلمها ولم يسئ إليها ، ولم يأكل مالها بالباطل فلا تتصل ، وإن اتصلت بنا واحدة من هؤلاء فهي كانت تشاهد البرنامج ، وربما كانت تشاهده لتحمد الله - عز وجل - على ما هي فيه من نعم وخيرات فليست مثل واحدة من هؤلاء الشاكيات ، وليس زوجها أحد هؤلاء المذكورين بالسوء على الهواء ، وأيضًا لتزداد علمًا وخبرة بما تذكره من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والطرائف ، ومعاني ذلك من خلال ردنا ، ومحاولتنا إصلاح ما بين الناس .

وقد عز عليها أن ترى أحد العلماء وهي معجبة بأسلوبه يعيش ساعة من الزمن مع المآسي ، وهي تؤثر فيه بلا شك . أما وقد رأته يدعو الله من قلبه أن تتصل به زوجة لا تشكو زوجها فأرادت أن يحقق الله دعاءه على يديها ، فاتصلت لكي تكون نسمة باردة في هذا الجو القاسي بشدة حرارته ، وقد كان ؛ فبالنظر إلى ذلك لا نقول : إن المجتمع كله قد صار إلى هذا المصير المعروض على الشاشة .

وقد يقول قائل : « لا تنس أن هناك صورًا من المآسي أشد مما يعرض عليك ولكن أصحابها لا يتصلون أو لا يتصلن إما حياء وإما خوفًا ، فكيف تتصل بك زوجة مقهورة وزوجها الذي قهرها قابع أمامها؟! وهناك من لا يملك ثمن المكالمة »! وأرد على هذا القول المتصور : وأنا لا أنسى ذلك ، وفي الوقت نفسه لا أنسى أن غير السعيدة التي اتصلت .. سعيدات كذلك لم يتصلن ، وغاية ما يقال : إن السعادة موجودة وإن بدا لنا منها طرف ، أو عبرت عنها حالة ، وأن الشقاء أيضًا موجود وإن بدا لنا منه أطراف ، أو عبرت عنه حالات كثيرة . ولن نكون مبالغين إذا قلنا إن الشر أكثر ؛ وذلك لاختلاف أنماط الحياة ، وتزاحم الأعباء النفسية ، ومعاناة الناس المادية والاجتماعية ، وسبيلنا إلى معالجة هذا السوء أن ننصح الناس ، وأن نأخذ بأيديهم إلى خير حياة !

اللحم الغث

تحدثت أولى النساء فقالت :« زوجي لَحمُ جَملٍ غَث ، عَلى رَأسِ جَبلْ ، لا سَهْلٌ فَيُرتقَى ، وَلا سَمينٌ فَيُنْتَقَلْ » .

ومعنى غث أنه يُترك ويستكره ، فهو مأخوذ من قولهم : غث الجرح غثًّا ، وغثيثًا إذا سال منه القبح واستغثه صاحبه ، وقولها : على رأس جبل معناه كثير الضجر ، شديد الغلظة يصعب الرقي إليه .

فقد شبهت زوجها باللحم الغث ، وشبهت خلقه السيئ بالجبل الوعر ، وقد قال العلماء : إنّ الشيء الغث قد يحصل عليه الإنسان ويتناوله إذا جاء بغير مجهود ، وهي تقول: إنه غث وعلى رأس جبل ، أي إنه لا يستحق الصعود إليه وبذل الجهد من أجله ، فلو أنه كان نفيسًا سمينًا لصعد إليه الناس بغية الوصول إلى خيره ؛ فهو أشبه بقول القائل قديمًا « أحشفًا وسوء كيلة » أي أتبعيني الحشف البالي الذي لا خير فيه ولا ثمرة منقوصًا كيلة ، إن المتصور أن يكون منقوص الكيل شيئًا ثمينًا غاليًا ، أما أن يكون منقوص الكيل شيئًا حقيرًا ففي ذلك نظر ، وهو وضوح الظلم والخطر .

ولذا قالت : لا سهل فيُرتقى ، ولا سمين فينتقل أي لِوعورتهِ لا يرتقي إليه الناس ، ولعدم سمنته لا ينتقل إليه الناس .

وهناك في كل زمان من هذا الوصف وعليه خلق كثير ، ويشترك فيه الرجال والنساء، ألست تسمع أن امرأة يقال : مهرها غال على أي شيء ؟! لا هي بجميلة ، ولا بمتعلمة ، ولا بغنية وارثة ولا .. ولا .. إلى آخر الصفات التي تقول : إنها ينبغي لها أن تحمد الله - عز وجل- .

وقد تزوجت امرأة من رجل كان من قبيلة غنية وكانت قبيلتها دون قبيلته في الثروة المادية ، وكانت لها جارة وضيئة على حد تعبير عمر بن الخطاب حين قال لحفصة : إن عائشة أوضأ منها . كانت جارتها في مستواها المادي ، وتزوجت من قبلها برجل في مثل مستوى زوجها ، وقد حظيت عنده وقربت ، فقالت لها أمها ليلة زواجها: « أي بنيّة اسمعي مني واحفظي ، إنك فقيرة وزوجك غني ، ولا تنظري إلى جارتك ، فإنها جميلة ، وأنت دونها في الجمال فاجعلي من خلقك سبيلًا تصلين به إلى زوجك وقلبه ، فإن فعلت آثرك على الفتيات ، ونسي بحسن خلقك الجميلات » .

وأنا أعرف جارًا لنا في القرية - يرحمه الله - كان رجلًا جميلًا شكله ، طيبًا خلقه ، لم يكن في زوجته مسحة من أنوثة ، كان وجهها وجه رجل دميم ، وقد أحبها هذا الرجل حبًّا ما عرفته ليلى في قيس ، ولا عزة في كُثَيِّر ، ولا بثينة في جميل .

وكان بيت هذا الرجل في آخر الحي ، وكانت امرأته هذه تجلس مع النسوة على عادة الفلاحات أمام باب إحداهن قبيل الغروب ، وقد أعدت كل واحدة عشاء زوجها وأولادها ، وهيأت دارها لاستقبال الخير القادم من الغيط ، والتي يأتي زوجها وتراه تقوم من هذا المجلس تسحب معه البهائم ، حتى تستقر في مكانها وتضع أمامه عشاءه ، وهكذا ، وكانت زوجة هذا الرجل تعرف وقع (حمارته) قبل أن تراها وتراه ، تقول : وصل ، فإذا به هو فعلًا ، لم تخطئ في ذلك يومًا واحدًا ، وكانت ذات مرة مندمجة في الحديث فقالت لها إحدى الجارات : قومي قومي ، وصل زوجك ، فضحكت وقالت : زوجك أنت الذي وصل ، يا حبيبتي أنا أراه بقلبي قبل أن تراه عيناي ، إياك أن تظني أن شيئًا ما ينسيني وقع حمارته ، ويصرف أنفي عن شم رائحته !

وأذكر أنه أصيب بنزلة برد عادية فقامت قيامتها ، وأخذت تسأل الصالحات من جاراتها الدعاء له بالشفاء ، وحين افتقدته في الصباح ؛ حيث غفت عيناها برهة إثر سهر مؤرق طويل ، نام ولم تنم ، وأخذت تصنع له الكمادات وتخفف من ارتفاع حرارته ، فلما أفاقت من غفوتها وافتقدته أخذت تناديه وهي تتطلع إليه هنا وهناك ، فلما لم تجده وقفت أمام الباب فرأته قادمًا من المسجد فسألته : هل صليت؟ .. قال : نعم ، قالت : وأنت واقف أم قاعد ؟ قال : وأنا واقف قالت : هل أنت بخير ؟ قال : الحمد لله ، فقالت : ألف حمد وشكر تصلي عند النبي إن شاء الله ، ثم راحت ترقص فرحًا بشفائه . كانت تقيم بيته، وتدبر عيشه ، وتحرص عليه ، ربت له ولديه ولم ترهقه يومًا فأحبها كل هذا الحب الذي كانت له أهلًا ووطنًا ، برغم أنها كانت فقيرة ، ولم تكن جميلة !

وأعرف شابة قد تزوجت رجلًا كان دون مستوى أزواج أخواتها ، فأخواتها متزوجات من رجل أعمال ، وطبيب ، ومهندس ، أما زوجها فكان موظفًا عاديًا، لكنها

كانت أسعد حالًا منهن جميعًا ، فقد كان هذا الزوج الموظف يحبها ، ويحب كل ما تحبه ، كان يعود إليها من عمله كأنه عائد من شقاء إلى نعيم ، ومن نار إلى جنة ، وكان يشعرها بذلك، يقول لها الكلمة الطيبة ، ويقدم إليها الطرفة ، يأتيها ببواكير الفاكهة وهي غالية ، ويقول لها :

كنت أود أن تكوني أول من يأكل منها ، لكن يبدو أن من قطفها من شجرتها قد ذاقها قبلك فاعذريني ، لو أعرف مكانه لذهبت إليه ورجوته أن ينتظر حتى تسبقيه ، ملك زمام قلبها ، قالت : شكوت ذات ليلة ، وطلبت إليه أن يتصل بأمي ، فقال :

– نعم أفعل ، ولكن هل قصرت أنا في شيء ؟ كنت أزعم أنني أقرب إليك منها ، وأنك تثقين بي ، فاعتذرت ، وقالت له :

– لا تفعل ، أنا آسفة ، ولكني تعودت كالأطفال حين يمرضون ينادون يا ماما ، فقال لي : قولي « يا ماما » ، فقلت : « يا ماما » ، فقال : نعم يا ضناي ، فضحكت ، ورأيت أن ما بي قد انكشف كنت أشعر أنني لن يهزمني المرض وأنا بين يدي هذا الفارس الذي قيضه لي الله – عز وجل – يرفع عني كل سوء حتى المرض ، وحين ذهب بي إلى الطبيب لمحت عينيه تفيضان ، حتى إن الطبيب الذي لم يكن يعرفني أو يعرفه قال لي إن زوجك يحبك قلت : أعرف يا دكتور ؛ فقال لي الطبيب : « يا حظك به » .. فعلًا أنا محظوظة بهذا الزوج !

فمثلما أحب الفلاح امرأته أحبت هذه الشابة زوجها ، والجامع الذي بينهما هو الرفق والرعاية ، وصدق الله العظيم القائل في سورة آل عمران : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : 159] .

الإمساك عن الشر خوف الفراق

يا ليت ما ذكرته المرأة الثانية يكون في سمع كل امرأة خصوصًا الشواب في زماننا ، اللاتي يسهل عليهن طلب الطلاق مع إمكانية الحياة ، وإني أذكرها مترحمًا على زمان كان ولم تزل منه بقية عند اللاتي يكرهن كلمة « طلاق » مع سوء خلق الزوج وضيق العيش في

جواره ، إني أترحم على هذا الزمان الذي كانت معاشرة الزوج فيه غالية عند الزوجة برغم ما كانت تعانيه ، فماذا قالت هذه الزوجة ؟

قالت كما روي البخاري – رحمه الله – : « **زَوجي لَا أَبُثُّ خَبرَه ، إِني أَخَافُ أَن لا أَذَره ، إِنْ أَذْكُرْهُ أذكُرْ عُجْرَه وبُجَرَه** » . كلمات موجزة ، معناها أنها تأبى أن يذكر كل ما فيه من الشر والسوء خشية فراقه ، قال ابن حجر : « كأنها خشيت إذا ذكرت ما فيه أن يبلغه ؛ فيفارقها ... فاكتفت بالإشارة إلى أن له معايب وفاءً بما التزمته من الصدق ، وسكتت عن تفسيرها للمعنى الذي اعتذرت به »[1] .

إننا في حاجة إلى أن نعلم بناتنا كيف يحفظن أسرار أزواجهن ، وكيف يكن مستودعًا أمينًا لكل كلمة تقال ، وكل خلق غير طيب يبدو أمامهن من أزواجهن ؛ فإن بنات اليوم منهن من تسرع بالاتصال بأمهاتهن وأخواتهن وصواحبهن لإبلاغهن بكل شيء من تفاصيل الحياة الزوجية ، فعل كذا وكذا وفعلت كذا وكذا ، وقال لي كيت وقلت له كيت ، ثم تقول : هناك شيء أُنسيت أن أحدثك عنه ، هل تذكرين عندما قلت لك كذا ؟ لقد أُنسيت أن أقول لك إن هذا بعد أن فعل كذا ، والموضوع قصته ضاربة في العمق من زمن؛ لأنه كان قبل أن يتزوجني يفعل كذا ، أو يعرف هذه ، فلما تزوجني قلت : خلاص، لقد نسيها ، لم أكن أدري أن حبل المودة موصول ، وأن العلاقة بينهما ما زالت قائمة ، بدليل كذا وكذا ... المهم يا ستي ، أنا كنت قد أخبرتك من قبل عن حكايته مع الأمريكية التي أرسلت إليه صورتها وأخذ يحاورها عن طريق الشات .. ساعتها كان الولد يصرخ ؛ فقمت لإرضاعه وانتهت المكالمة ولم أكمل لك القصة ، كان من أمرهما كذا وكذا،وقد كان يظن أنني لا أعرف الرقم السري لموقعه لكن أختك ذكية – وأنت تعرفين ، وحياتك عرفته ، ودخلت عليه ورأيت من البلايا ما لم يكن في حسباني ، وغير ذلك من إفشاء الأسرار التي ليست وقفًا على أولي النت والشات والموبايل !

(1) فتح الباري 9/ 169.

وإنما هي ضربة عامة أصابت أولى الحجرة التي فوق السطح ، والتي ما زال فيها جهاز التلفاز الأبيض والأسود كما يقولون . تذهب الزوجة إلى أهلها ، وتبدأ الحلقة الجديدة من حلقات إذاعة الأخبار المحلية : كم مرة جاءت أمه ؟ وماذا حملت عند قدومها ؟ وماذا حملت عند مغادرتها ؟وماذا قالت مدة بقائها ؟ كيف كان حاله بعدها ؟ وكيف كان قبل تشريفها ؟ وماذا فعل معها ؟ وهي لا تقول له بأنها تحكي ، وأهلها لا يظهرون له أنهم يعلمون شيئًا عنه ، والأهل في ذلك الشأن نوعان :

الأول : نوع يدخر المعلومات ولا يبديها ، بل إنه يقسم بالله العظيم أنه لا يعرف شيئًا ، وكم سمعت هؤلاء يقولون للزوج إن فلانة لا تحكي لنا شيئًا ، فماذا وراءك ؟ قالوا له ذلك عندما قال لهم :

إن أمامي مشروع سفر للخارج وطبعًا أنتم تعرفون وقد تكون فلانة قد قامت بالواجب وأخبرتكم ؛ فقالوا : معاذ الله ، ليست هذه أخلاقها ، ولا هذه عادتنا ، وهم في الحقيقة يعرفون تفاصيل التفاصيل ، لكنهم يكتمون ، والله يعلم ما يكتمون .

لكن هذا النوع من الأهل يبوح بما كتم ويظهر ما أخفى عند النزاع والشقاق ، يتبين للزوج أن عشه بلا باب ، وأن بيته كتاب مفتوح ، يقولون له : لا ، لقد قلت كذا وفكرت في كذا ، وأهنتها حين قلت لجارتها كذا ، وهكذا .

والثاني : يذيع ما يعرف أولًا بأول ، ولا يدخر شيئًا ولا يكتمه والزوج يضايقه ذلك ويؤلمه ، وكم من زوج علق طلاقًا على إخبار الزوجة أهلها أو أحدًا معينًا منهم بشيء ، يقول : إن قلت لأمك كذا أو أختك أو أخاك فأنت طالق ، ولطالما قالت الزوجة السائلة قال : كذا ولكني قلت ، فهل وقع الطلاق ؟!

والجواب : نعم عند جميع الفقهاء ، والطلاق المعلق على شرط يقع إن وقع الشرط ، من أجل ذلك كان لزامًا علينا أن نقول : إن التربية مهمة ، وعلى الأهل ألا يسمحوا لابنتهم أن تذيع فيهم سر زوجها . وأعلم أن هذا الأمر عسير ؛ حيث إنهم تربوا على ذلك حتى صار هذا عادة لهم .

وَمِنَ العَناءِ رِياضَةُ الهَرِمِ

لكن رياضة الهرم غير مستحيلة ، فهي ممكنة وإن كان فيها مشقة ظاهرة .

وكان لزامًا علينا كذلك أن ننصح للزوج بألا يتسرع في تعليق الطلاق على شيء هو يعلم أنه سيقع منها ، فهذه عادة أخواتها ، ألست ترى أخت المرأة تتحدث عن زوج أختها وكأنها تعيش معه ، تعرف كل شيء عنه عُجْرَه وبُجَرَه ؛ أي عيوبه الظاهرة ؛ وأسراره الكامنة ، والعادة صعب التخلي عنها . وللصوفية عبارة تقول : « قطع الوراريد أهون من قطع العوايد » ؛ أي أن يقطع وريد ذي العادة أهون عنده من قطع عادته ، وذلك محمود إذا كانت له عادة في طاعة الله – عز وجل – كقيام الليل ، وختم القرآن في مدة معينة ، وتعهد فقير أو يتيم ونحو ذلك . أما إذا كانت العادة سيئة كان التخلي عنها واجبًا ؛ ابتغاء وجه الله – عز وجل – فالزوج الذي يعلم أنها لا بد أن تصل أمها ، وأنها لا غنى لها عنها، لماذا يقول : إن ذهبت إلى أمك فأنت طالق ؟!

والزوج الذي يعلم أن زوجته لا بد ناقلة سره إلى أمها ، لماذا يقول لها : إن قلت شيئًا من ذلك لأمك فأنت طالق ؟!

وكان الأولى به أن يمسك هو لسانه ، ولا يحدثها بشيء لا يحب أن ينتقل إلى أحد ، هذا خير له من أن يقول وهو يعلم أنها ناقلة ثم يعلق طلاقها على نقلها ، فليصبر عليها وليمسك لسانه إبقاء على بيته وأولاده .

ورحم الله زمانا قالت المرأة لصواحبها : أخشى أن أذيع كل شيء من أسرار خلقه السيِّئ فيفارقني إذا علم ، اكتفت بالإشارة التي أغنتها عن ذكر عبارة يكون بعدها فراق !

شكاية بليغة

رحم الله الزمخشري حين قال في كلام المرأة الثالثة : «وهي من الشكاية البليغة ». قال ابن حجر : «ويؤيده ما وقع في رواية يعقوب بن السكيت من الزيادة في آخره ، وهو على

حد السنان المذلَّق أي المجرد بوزنه ، ومعناه تشير إلى أنها منه على حذر »[1] . فماذا قالت هذه المرأة الثالثة من اللواتي اجتمعن وتعاهدن على الصدق في الحديث عن أزواجهن ؟

قالت : « زوجي العشنَّق ، إنْ أنطق أطلق ، وإنْ أسكت أعلق » . سطر واحد ، بث فيه ما تعانيه ، والعشنق كما ذكرت من قبل «الطويل» وقد اختلف العلماء في معناه أهو على المدح أو الذم ؛ فهو محمول على المدح بمعنى أن العرب تتمادح بالطول ، وهو محمول على الذم بمعنى أنه طويل لا خير فيه ، وتلك قضية مهمة ، فما فائدة طولك وأنت غير فارس مغوار ؟! وما فائدة طولك وأنت لا تناولنا شيئًا لا يصل إليه إلّا طويل مثلك ؟!

وقس على ذلك الغني الذي لا خير فيه لأهله ، وإنما خيره لغيرهم ، ولو كان فقيرًا لهان الأمر ؛ لأن الفقر له عذر ولله در القائل :

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا   كَعَيْبِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

ولعل في هذه القضية ما يتصل بأمتنا العربية والإسلامية في مشكلاتها وتخلفها ؛ فهي تمتلك من مقومات التقدم ما لا تمتلكه الدنيا من حولها ، من أرض شاسعة صالحة ومستعدة للإصلاح ، ومن مياه بحار وأنهار ، ومن قوى الأيدي العاملة التي تعطلت ومن عقول جبارة تهجرت ، ولها دين يجعل المعروف كله صدقة ، ووقاية النار بشق تمرة ، يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يفتح الآفاق ، ويدعو إلى العمل والرحمة ويجعل الأرض لله ، ويأمر بالبدء بالنفس ثم الأقرب فالأقرب لا يقبل من العمل إلّا المتقين ، ولا يكلف فوق الطاقة ، القليل الدائم فيه خير من الكثير المنقطع ، والتقرب فيه إلى الله – عز وجل – يكون بأن تَلْقَى الناس بوجه طلق ، جعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، فإذا بالمسلمين يضعون الأذى في الطريق ويقطعون السبل ؛ سبل الخير بالنوم والكسل ، ينامون حيث استيقظ غيرهم ، ويسلمون خير ما عندهم لعدوهم ، جهادهم كلام ، والتفكر في الجديد النافع عند بعضهم آثام ، ولو

(1) فتح الباري 9/ 170.

كان لهم عذر من مرض أو ضيق لو سعهم ، ولكن ما عذرنا وكيف نلقى ربنا وقد أنعم علينا بما لا يحصى من نعم ولكنا كنا عنها غافلين .

إنّ الزوج الغني كالأمة الغنية التي آثر أغنياؤها أن يستثمروا أموالهم في أرض غيرهم ، نأوا بغيرهم عن أهليهم ، واطمأنوا لغيرهم أكثر من أنفسهم ، ذلك الذي ذهب فاشترى الغالي وأهداه إلى زوجة زميله مجاملة له ؛ لأن صاحبته ربة ذوق ، وأهمل زوجته ، وأكرم كل الناس وأهان أهله ، لذلك أثر بالسوء فيهم ، وجعلهم ينامون ليلًا كئيبًا ، وقد يكون غنيا بالبيان ؛ أعرف مدرسة – تحدت الدنيا جميعًا كما قالت ويقول الناس – من أجل أن تتزوج بمدرس لم يكن زميلًا لها في المدرسة التي تدرس فيها وإنما كان في مدرسة أخرى لسبب واحد ، هو أنه شاعر ، كانت تحب الشعر ولم تكن تدري هل أحبته أم أحبت شعره ، المهم أنها وجدت الشاعر . قال أهلوها:

إنه ولد « تلفان » لا يصلح لك ، فقالت : أيقال هذا على مثله ؟! إنكم قوم تجهلون الشعر ، إنه ملك الإحساس في هذه الدنيا الخالية من الإحساس ، وهي بفضل الله غنية وميسورة الحال ولا تحتاج إلى رجل يأتيها بمال ، إنما تحتاج إلى رجل ينشدها الكلام الجميل الموزون المقفى قصدًا ، إنه مبدع ، والمبدعون في الدنيا قليل ، يذهبون بها يمينًا ، ويذهبون بها شمالًا ، شرقًا وغربًا ولا فائدة ، أصرت عليه فوافق الناس ، وزفت إلى مَنْ زعمته ملك الإحساس ، عاشت معه ثلاثة أعوام قالت فيهن ثلاثة أعوام في أشغال شاقة ثمرتها ولد طرحه بذرة خفيفة وحملته حملًا ثقيلًا ، ولم يشعر ملك الإحساس أن له ولدًا كان يضربها ويضرب ولده وهو في سن الرضاع ، وخاتمة القصة أن ساومته على الطلاق ، فقبض الثمن ، ورمى اليمين ونالت حريتها وفقدت إحساسها بالشعر والشعراء ، وليس كل الشعراء مذمومين ، إنما كان حظها في ذلك الذي قال الله – تعالى – في جنسه في سورة الشعراء : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء : 224- 226] . لم يكن من الذين استثناهم

ربنا – تعالى – في آخر آية من سورة الشعراء : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء :227] .

أقسمت بالله أنها عاشت مع آدمي أطلقت عليه لفظ « حيوان » .. لا حس عنده ولا رجولة ولا كرامة ، كانت معنية في غمار أذاه بقضية المفارقة بين القول الساحر والفعل الفاسق ، كانت تقول له : أحقًّا أنت صاحب هذا الشعر ، من أين تأتي به وليس فيك ذرة منه ، كيف تصوغه عطرًا وأنت لا تغتسل ؟! كيف إلى الله تبتهل وأنت لا تركع لله ركعة؟! كيف تقول « حبيبتي أَنْتِ المنَى كُلُّ المنَى في رَاحَتَيْكِ » وأنت ما تناولت لي راحة يد ولم ترني راحةً يومًا ؟!

وقد دعاني صديق قديم إلى زيارته ولبيت دعوته في زمان كان فيه سعة للزيارة ، وكان قد تزوجها من بعد الدعيِّ وربى لها ولدها ولم يكن شاعرًا ، لكنني وجدتهما سعيدين ، وجدتها حامدة ربها شاكرة فضله أن هيأ لها هذا الرجل وأهداها إياه فهو ذو قلب كبير وإن لم يكتب بيتًا واحدًا من الشعر ، كان ينفق عليها وعلى هذا الطفل اليتيم حكمًا ؛ لأن أباه على قيد الحياة ، لكن لا صلة له به ! فما قيمة الشعر إن لم يكن في الحليلة ؟ وما معنى الراحة إن لم تكن في الظلال الظليلة ؟! وأين يكون الظل إذا ضنت به الخميلة ؟!

من أجل ذلك قالت المرأة إنه طويل ، ولكن ما قيمة نجاده وأهله مهزومون ، لا ينتصر لهم من نفسه ، إنه الجبار الذي يأبى أن يعاشر معاشرة حسنة ، فإن نطقت زوجته طلقت ، وإن سكتت تركها معلقة ، فلا هي بزوجة ولا هي بمطلقة !

وأسوأ الأحوال أن ترى نفسك بين بين ، ويا حسن بَيْن بَيْن إذا كانت وسطًا بين الغنى والفقر ، والصحة العاتية والمرض الفتاك . رحم الله عمر بن الخطاب – ورضي تعالى عنه – حيث قال له الأطباء في معيقيب : نستطيع وقف انتشار مرضه في سائر بدنه لكن لا نستطيع إبراءه تمامًا منه ، فقال : « عافية عظيمة » لكن ما أسوأ « بَيْنَ بَيْنَ» إذا

كانت حالة غريبة شاذة ، كحالة المعلقة التي لم تحظ بعيش كريم ، ولم تحظ بطلاق يفك قيدها لتنطلق إلى أمل جديد ، وعيش طيب كريم ولو كان بلا صحبة لرجل !

خير الأمور الوسط

تقول المرأة الرابعة من النساء المذكورات في حديث أم زرع : « زَوجي كَلَيْلِ تِهَامة ، لَا حَرٌّ ولَا قُرٌّ ، وَلا مَخَافةَ ولَا سَآمة » .

قال ابن حجر : أرادت وصف زوجها بأنه حامي الذمار ، مانع لداره وجاره ، ولا مخالفة عند مَنْ يأوي إليه ، ثم وصفته بالجود وقد ضربوا المثل بليل تهامة في الطيب ؛ لأنها بلاد حارة في غالب الزمان ، وليس فيها رياح باردة ، فإذا كان الليل كان وهج الحر ساكنًا فيطيب الليل لأهلها بالنسبة إلى ما كانوا فيه من أذى حر النهار ، فوصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال وسلامة الباطن ، فكأنها قالت : لا أذى عنده ولا مكروه، وأنا آمنة منه ؛ فلا أخاف من شره ، ولا ملل عنده فيسأم من عشرتي ، أو ليس بسيئ الخلق أسأم من عشرته ، فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل »[1] .

هذه المرأة الرابعة استمدت من البيئة تشبيهًا مدحت به زوجها ، والبيئة وطن ، والوطن عزيز غال ، له في نفس المواطن شأن أي شأن ، وقد ذكرني في هذا العمل أن هناك جنسية ورقية وجنسية وجدانية وهي أعلى من الأولى ؛ لأنها بمثابة الحياة ، والحياة إذا انتهت لا يعني الميت في أي أرض يدفن ، وقد رأيت في هذا التشبيه المستمد من بيئة المرأة بعدًا عظيمًا في علاقتها بزوجها ؛ فقد طابت هذه العلاقة وحسنت ، فلم تجد في الدنيا معلمًا تتجه إليه لكي تصور هذا الطيب إلّا الوطن الذي عرفته والبيئة التي كانت مسرحًا لحياة سعيدة ، لقد رأينا غيرها تشير إلى موضع كالتي قالت : إذا نام التف ، وسيأتي الحديث عنها –إن شاء الله – لكنها لم تقل لنا أين ينام فما ذكرت وطنًا ، وكيف تذكر وطنًا وهي لا ترى زوجًا ؟! وإنما ترى أسطوانة ملفوفة ، لا تخرج منها كفه لترى بثها ، وتقف على دمعتها ، وتجففها بشيء من الاهتمام والرعاية !

(1) فتح الباري 9/ 170.

لقد وجد الوطن مساحة عند هذه المرأة لما اتسع لها قلب زوجها وجدته كليل تهامة ، ولا حر ، ولا قر ، أي لا حر ولا برد ، وإن كان في تهامة حر بالنهار وبرد جميل بالليل ، فزوجها كذلك . وقد كانت بليغة ، حيث عبرت عنه في حالتيه ؛ فهو بالنهار لا شك يعمل ويجتهد ويبذل العرق ، ويتحرك ، وتلك حرارة ، فإذا عاد إليها بالليل فقد ذهبت حرارة العمل وآن الأوان لبرد الأمل .

إنه ليس ككثير من الرجال ينزل حرارة النهار ببيته ، وليس على لسانه إذا عاد إلى بيته غير اتهام زوجته وولده بأنهم يأكلون ويرتعون ولا يشعرون بشيء ، ولا يعرفون شيئًا عن جهده وما يقدمه بالنهار من جهد مضن ، وعرق ، إنه في الشمس وهم في الظل وهذا السلوك دفع بزوجته إلى أن تصيح في وجه زوجها قائلة :

- هل كنت وحدك في الدنيا ذلك الذي يعمل أم كان معك رفاق ، ربما قدموا أكثر مما قدمت ، وبذلوا أكثر مما بذلت ، ولكنهم لم يعودوا إلى أهليهم ليذيقوهم المر ، ويذلوهم باللقمة ! يا هذا اتق الله فينا ولا تجرعنا كؤوس المر كل ليلة ، ارحمنا يرحمك الله من سماع هذه الأسطوانة التي لا تملها أبدًا !

وهذا الوصف الذي وصفت به المرأة الرابعة زوجها يمكن إطلاق كلمة «الوسطية» عليه ، لا حر ولا قر ، وخير الأمور أوسطها ، ومن ثمَّ كان الإسلام دينًا قيمًا ؛ لأنه يمتاز بهذه الوسطية ، فلا تفريط ولا إفراط ، وقد قال النبي - ﷺ - فيما رواه البخاري في صحيحه : « إِنَّ هَذا الدِّينَ يُسْرٌ » فاليسر إنما يكون في تلك الوسطية ، والله - عز وجل - يقول في سورة البقرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 143] .

والوسط هو العدل ، ومعنى ذلك أن العدل وسط واستقامة ، والعدل مطلوب في جميع الأحوال ولو على النفس أو الوالدين أو الأقربين ، ومن العدل الذي هو الوسط أن يكون الزوج وسطا في معاملته زوجته ، فما هو بالذي يترك لها الحبل على الغارب وما هو بالذي يضيق عليها حتى الخناق ، وإذا أرادت أن تجده رجلًا جسورًا وجدته ، وإذا أرادت أن تجده قلبًا نابضًا وشعرًا ناطقًا ونسيمًا رقيقًا وجدته ، فما هو بالصلب وما هو بالماء الجاري ، وهذه الصفة أقرب إلى ما وُصِفَ به النبي - ﷺ - من أنه كان لا يغضب لنفسه أبدًا ، وإنما كان - ﷺ - يغضب إذا انْتُهِكَتْ حرمات الله . وأود أن أقول إنّ من انتهاك الحرمات أن يكون الزوج قاسيًا على زوجته ، وأن تكون الزوجة قاسية على زوجها وأن ينال كل منهما صاحبه بأذى ، وأن يقول فيه ما ليس فيه ، وأنْ يكون بوسعه التوسيع عليه فإذا به يضيق عليه ؛ لأن الزواج شرع الله ، وسنة رسوله - ﷺ - وقد قال الله -تعالى - في سورة البقرة : ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : 229] . ويقول - عز من قائل- :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 19] .

وكم من زوج ظالم لنفسه من حيث هو ظالم لزوجته ، يقسو عليها ويهمل شأنها ويجفف ريقها وريق أهلها ، يتسلط عليها ظالمًا إلى درجة أن زوجة قالت : والله إني لأشعر أن زوجي كأن بينه وبين أهلي ثأر قديم ، وما تزوجني إلّا لينال ثأره وينتقم ! فما هذه المعاملة بمعاملة يهود قساة فضلًا عن مسلمين يعلمون حدود الله ، أليس الزواج من حدود الله ؟! إنني يا سيدي الشيخ لم أجد تفسيرًا لمعاملته السيئة غير هذا الذي قلته لك ؛ لأنني تحت رجليه ، وخادمة في بيت أهله ، ومحسنة لكل أقاربه ولا تتصور مدى سوء

معاملته وفحش قوله ، وطول يده ، بالضرب والإهانة وأبشع الشتائم والسباب ، والعجيب يا مولانا أنه يصلي الفجر في المسجد ، وحج بيت الله أربع مرات ، وله في كل رمضان عمرة ويقرأ القرآن ، ولا يسمع الإذاعات إلّا إذاعة القرآن الكريم .. عنده انفصام في الشخصية ، من يراه على وجه العبادة يقول : وليّ صالح ، ومن يراه في المعاملة يقول : شيطان ! ومن الرجال مَنْ لا يعاتب امرأته على خلق ولا يسألها أين كانت ولا من أين أتت ؛ لذلك كان خير الأمور أوسطها ، ومثل زوج الشاكية لا يعاني انفصامًا في الشخصية وإنما فشل في تذوق روح العبادة !

داخل البيت وخارجه

قالت المرأة الخامسة في زوجها : « زَوجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ » . ومعنى هذا الذي قالته أن زوجها يكون بين الناس كالأسد ، فإذا دخل بيته عليها صار فهدًا .

والأسد معروف ، والفهد كثير النوم ، وكثير الكسب ، وقد ذكر الدميري في حياة الحيوان (الفهد) أنه يُصَادُ بالصوت الحسن ، ومتى وثب على الصيد ثلاث مرات ، ولم يدركه غضب ، ومن خلقه أنه يأنس لمن يحسن إليه ، وكبار الفهود أَقْبَلُ للتأديب من صغارها ، وقد ضربت الأمثال بالفهد ؛ ومنها : أثقل رأسًا من الفهد ، ومنها أوثب من فهد ، وأكسب من فهد ، قال الدميري : وذلك أن الفهود الهرمة التي تعجز عن الصيد لأنفسها تجتمع على فهد فتيٍّ، فيصيد لها في كل يوم شبعها [1] .

فسبحان من ألهم الفهود ذلك ، ولله در القائل :

وَفي كُـلِّ شَيءٍ لَـهُ آيَـةٌ   تَـدُلُّ عَـلى أَنَّـهُ الوَاحِـدُ

(1) حياة الحيوان 2/ 197.

والزوج الذي يكون بين الناس أسدًا وفي بيته فهدًا بما تعرفه أو تقصده المتحدثة بصدق عنه من وفرة الكسب أو من الوثوب عليها كما ذكره ابن حجر [1] ، هو زوج طيب العشرة ، استطاع أن يحقق المعادلة الطبيعية التي يجب أن تتحقق ، والرجل عندما يكون أسدًا بين الناس لا يعني ذلك أنه وحش كاسر ، يفتك بالناس ، وإنما معناه أنه فارس مجاهد ، أبيٌّ ، يخشى الناس بأسه ، ولا يظلمه أحد ، فهو قادر على أخذ حقه ، قويّ شديد ، وقد مَدَحَتِ ابنة شعيب موسى – عليه السلام – لأبيها ، فقال الله – تعالى -:﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26] .

وذكرت السِّيَرُ أن نصارى نجران لما جاءوا إلى النبي – ﷺ – طلبوا إليه أن يرسل معهم مَنْ يحكم بينهم في قضية مالية ، فوعدهم رسول الله – ﷺ – بأن يبعث معهم القوي الأمين ، وذلك في غد ، فلما جاء الغد ، وصلى – ﷺ – بالناس العصر اشرأب عمر مع أنه طويل حتى يراه النبي – ﷺ – ويقول: «قم معهم يا عمر»، لكن رسول الله – ﷺ– قال : « **قم معهم يا أبا عبيدة** » فقام أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة كما قال عنه رسول الله – ﷺ – وحظي بما كان عمر – ﷺ – يود أن يحظى به من اللقبين الكريمين ولم يكن عمر في نفسه لأبي عبيدة مكروهًا ؛ فهم في الدين إخوة ، والدين ينطق في وجدان كل متدين : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[2].

إن الزوج القوي بين الناس الذي هو كالأسد تعود ثمار قوته على زوجته وولده ، فهو حامي الذمار للدار والجار ، وكم من زوج ضعيف بين الناس ذاقت أسرته الويلات من جراء ضعفه ، ويمكننا حصر آثار الضعف فيما يأتي :

1– استقلال الناس به وبمن وراءه .

(1) فتح الباري 9/ 170 ، 171.

(2) متفق عليه .

2- وضياع حقوقه بما يعود بالفقر على أسرته .

3- وجرأة الذئاب على زوجته وبناته .

4- وتوريث الضعف لأولاده ؛ فمن يشابه أبه فما ظلم .

5- وإيراد الحسرة التي هي نتيجة ذلك كله .

وقد حاول بعض الفجرة أن يعتدي على زوجة شريفة رأى أن ضعف زوجها سبيل إلى أن ينال منها غرضه ، وكانت زوجة مسلمة أبية ، لقي على يديها الهوان ، وأعطته درسًا في الكرامة . وموضع الشاهد في هذا الموقف أن ذلك الذئب قال لها وهو خارج بدماء على وجهه :

يا ليتك أنت كنت الرجل ، لعن الله الشيطان ؛ ومن ثمَّ قال النبي - ﷺ - : « المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ عِنْدَ الله مِنَ المؤْمِنِ الضَّعيفِ »[1] . ومعنى القوة في ذلك يشمل قوة البدن والمال، والحق ، والروح والغيرة على حرمات الله ، وهي دعوة إلى التقوى ، فالقوة شاملة للدين والدنيا ، وهذا الأسد بين الناس ليس أسدًا إذا دخل بيته ، وإنما هو فهد يواسي الضعيف ويرحمه ، هو داخل بيته معلم رفيق ، ومعاشر رقيق ، يعلم أن البيت غير خارجه ، فخارج البيت هنالك أصحاب وأعداء وليس بداخل البيت أعداء ؛ لأن داخل البيت زوجه وولده وخادمه وهو يعطي كل ذي حق حقه ، ويلبس لكل ظرف لباسه ، وتلك ميزة العاقل ودليل المسلم الناهض ؛ فهناك صنف من الرجال على عكس هذه الصفة كما قال الأول :

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُروبِ نَعامَةٌ

أي أنه أسد إذا دخل ، فَهِدَ إذا خرج إن لم يكن قطة ، لا يجد من يمارس عليه القوة والجبروت إلّا امرأته ، ولذلك كثر سماع كلمة : « كنت اتشطر على فلان وعلى علان وعلى..» ، وتعد له الزوجة المقهورة بعض الذين ظلموه ظلمًا بيِّنًا ، ووقف أمامهم كأنه طفل ضعيف أمام مدرس قاس ، إن قال له : ارفع ذراعيك رفعهما ، وإن قال له : أعط

(1) رواه مسلم.

الحائط وجهك استدار ، كأن لسانه مربوطًا في فمه وغيره يهينه ، فماله صار سيفًا مسلطًا عليها وهي تكرمه ، وكانت يده مغلولة أمام من ضربه فما لها مدت بضربة قاضية أمام زوجته وهي لم تضربه ، فهل قدر لها أن تكون حقل تجربة ، يمارس عليها موهبته الدفينة ، ويثبت من خلال سوء معاملتها أنه رجل ، وهل هذه رجولة ؟!

قالت إحدى الزوجات إن زوجي لا يرد على من يشتمه ويلعن أباه وأمه !

قلت لها : أكرم بذلك من خلق ، فقد قال النبي - ﷺ - « **لَيسَ المُسْلِمُ بِسَبَّابٍ وَلا لَعَّان**»[1] .

فقالت : هذا صحيح لو أنه لم يكن سبابًا لعانًا لي ولوالديّ ولأهلي جميعًا ، إنه لا يرد على من يسبه ويلعنه ويضربه على قفاه ويأكل حقه ويظلمه لكن ينهال عليّ وعلى كرامتي وكرامة أهلي ومن يمتون لي بصلة قرابة ، ويضربني ضربًا مبرحًا كأنني أنا التي شتمته وظلمته ، لو كان عفيف اللسان معي ومع الناس لقلت كما تقول : أكرم به من خلق ، لكن كيف يكون ذا خلق كريم مع الناس ، ويكون على ضده معي ؟! سبحان الله !

الأكول الجافي

وأما الزوجة السادسة في حديث أم زرع فقالت عن زوجها : « زَوجي إِنْ أَكَل لَفّ ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفّ ، وَإِن اضْطَجَعَ الْتَفّ ، وَلا يُولِجُ الكَفّ لِيعْلَم البَثّ » .

ومعنى إذا أكل لف : أنه أكول ، لا يبقي شيئًا من طعامه ، يأكل كل ما أمامه ، وإذا شرب اشتف ؛ أي يستسقي كل ما في الإناء ، وكم كانت تود أن تقول له بالهناء والشفاء لو أنه بعد ذلك ضمها إليه ، ونام معها في لحاف واحد ، على حد تعبير الفقهاء ، وإنما بعد ذلك كله ينام وحده ؛ إذ يلف نفسه في لحافه فهو أشبه بمن دخل صندوقًا وأغلقه عليه ،

(1) رواه البخاري.

فلا يتأتى الوصول إليه ، ولا يمد كفه إليها يتحسسها أو يلمسها ، ولا يحاول أن يسمعها وهي تشكو معبرة عن نفسها من حرمان .

ولهذا الرجل امتداد في زماننا ، تقول إحدى الزوجات : « إن زوجي همّه على بطنه» وقد أصبحت هذه العبارة جارية مجرى المثل ، وهي تقال ويراد بها في الغالب أن الزوج ينفق كل ما يأتيه من رزق الله - تعالى - على الطعام والشراب ، ولا يفكر في بناء مستقبل له ولا لأولاده ، قالت : همه على بطنه ، تزوجته منذ خمسة وعشرين عامًا ، وبعد زواجنا بعام واحد تزوج أخوه الأصغر ، ومضت هذه المدة ، وأصبح أخوه يمتلك عمارة ، ونحن على ما نحن عليه يوم تزوجنا ، في شقتنا الضيقة ، بهذا الحي الذي ضاق بمن فيه . لقد ظل أخوه من أول يوم يبني في هذه العمارة لبنة لبنة .. اشترى قطعة من الأرض ، وبعد مدة باعها، واشترى بثمنها قطعة أكبر منها ، وبعد مدة باع تلك القطعة واشترى قطعة من الأرض وسطا ، واستطاع أن يبني فوقها الطابق الأول بما توفر من ثمن الأرض التي باعها، ثم بدأ يبني ويعلي ، وأصبح يقيم هو وزوجته (سلفتي) في دور كامل ، ولكل ولد وبنت شقة مستقلة ، ونحن نأكل ونشرب ، وإن حاولت مرة أن أقول له : يا رجل كن كأخيك يرد عليَّ بأن أخاه من الأشقياء في الأرض ، فعلام البناء وآخرنا القبور ، وعلام الشقاء وفي أيدينا سبل العيش اللذيذ ، وهل الحياة الدنيا سوى رحلة قصيرة ، وتنتهي ، نحن نأكل اللذيذ من الطعام بينما أخي وزوجته يأكلان أي شيء من أجل توفير مال للبناء ، ومن بعد البناء التشطيب ، ومن بعد التشطيب تشطيب آخر أدق منه وأجمل ، فلماذا كل هذا العناء ، قولي ياباسط ، واحمدي الله - تعالى - أنْ وفقك إلى رجل مثلي «نزيه »!

هذه هي النزاهة عند هذا الرجل أن ينفق كل ما في جيبه على المائدة ، والبناء عنده شقاء ، إنه ميت ميت ، ولن يعدم الناس حفرة في الأرض يضعونه فيها يوم يموت ، وعليه أن يأكل ما شاء وأن يشرب ما شاء وأن يقول (يا باسط) !

هذا هو الاستعمال الأكثر لمن كان همه على بطنه ، وهناك الاستعمال الأقل الذي قالته المرأة الرابعة من النساء في حديث أم زرع ، أن هذا الرجل يأتي إلى بيته كأنه قد أتى إلى فندق ، يدخل ، ويضرب كفا بكف ، أو بدون أن يضرب يأتيه الخادم :

- لبيك سيدي ، أسعد الله مساءك .

- ومساءك أيضًا .

- مرني بما شئت .

- فيطلب منه ما يريد من طعام وشراب ، وبعد فترة ضئيلة من الزمن تأتيه الأطباق فيفرك يديه ويسمي الله ويأكل كأنه لم يأكل منذ شهر ، ولا يترك في هذه الأطباق شيئًا ، ثم يشرب كأس العصير كأنه كان في سفر عبر الصحراء وقتله الظمأ ، فهو يشتف كأس العصير إلى درجة أنك لو رأيته لقلت سيشرب هذا الرجل الزجاج .

وبعد ذلك ينصرف إلى غرفته ، فيفرد لحافه ، ويلتف فيه كأنه سجادة جمعت ولفت وصارت مثل الأسطوانة ، ولو دخلت عليه ووجدته على تلك الهيئة حسبته كذلك لولا أنفاس تنفخ ، وتقلب يكون بين الحين والحين لو وقفت مليا لرأيته ، لا شأن له بمن قدم إليه الطعام فضلًا عمن صنعه من أجله ، إن بينه وبين هؤلاء الأفراد جميعًا فاتورة يدفعها هذا الرجل وغيره لمحاسب الفندق ، رقم يرحب به أو يعترض عليه !

وفي النهاية يدفع المتفق عليه إن بدا منه اعتراض ، وينصرف إلى غايته على أمل أن يعود في رحلته القادمة !

وإذا كانت العلاقة بينه وبين منزله هذا رقم وينتهي الأمر بسرور المسئول عن الفندق بتشريفه ونزوله عندهم ، بل إنه يرجو عودته ؛ لأنه زبون ، وكلما كان هذا الزبون كريمًا كان السرور أعظم وكان الرجاء في عودته أكبر ، إذا كان ذلك كذلك فإن العلاقة بينه وبين زوجته ليست علاقة رجل برقم ، وإنما هي علاقة قلب بدم ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة : 187] والعلماء يقولون إن اللباس من شأنه أن يستر لابسه ، ومعنى ذلك أن الله - عز وجل - جعل النساء سترًا للرجال ،

وجعل الرجال سترًا للنساء ، وعلى كل واحد من الزوجين أن يكون سترًا لصاحبه مادة ومعنى . وَاسَتْ أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها – رسول الله – ﷺ – بمالها ، وقال فيها : « وواستني بمالها » .

وكانت أحب أزواجه إليه ، وحين حدث بينه – ﷺ – وبين عائشة – شيء ، وتدخلت أمها أم رومان في ذلك وقالت للنبي – ﷺ – إنها صغيرة ، وإن لم تسعها فمن يسعها قال – عليه الصلاة والسلام – على ألا تذكر خديجة . وقد روي في الصحيح أنها – رضي الله عنها – كانت تغار من أم المؤمنين خديجة وهي ميتة ! ويكون الستر معنى بمعنى أن يهتم الزوج بزوجته ، فيخرج الكف ليعلم البث كما قالت المرأة السادسة ، فلا يلتف في غطائه ضاربًا بها عرض الحائط ، وكأنها ليست إنسانًا له شعور وإحساس يعاني ما يعانيه ، ويسره ما يسره ، وأي شيء يسرها وهي ترى زوجها يرى البيت فندقًا . وقالت لي إحدى الزوجات : إنها ترى زوجها مثل زوج هذه المرأة – وكانت ذات فكاهة – فقالت أكيد أنه من صلبه ، زوج المرأة هذه كان جد زوجي الكبير يفعل ما كان يفعل بالضبط ، بالحرف الواحد ، إنه يأتي لكي يأكل ويشرب وهو أكول باسم الله ما شاء الله ، بألف عافية وبعد ذلك ينام ، ولا يستطيع أحدٌ أن يفتح فمه . إن البيت بالنسبة إليه فندق ، لكن الفندق أسعد حالًا من البيت ؛ لأنه قد يقول لعمال الفندق : شكرًا ، أما أنا فلا يقولها ، وأنا أقول : لقد قالت هذه المرأة بألف عافية ، ولكن ما كل امرأة هكذا زوجها تقول بألف عافية ، وإنما تقول كلمة أخرى !

التناهي في سوء العشرة

كنت وما زلت أقول : إن الصبر مر ، ومن رحمة الله – تعالى – أن جعل له مُحلِّيات تذهب بمره ، ومن تلك الـمُحلِّيات حسن عاقبة الصابرين ، كما قال الشاعر :

الصَّبرُ كَالصَّبرِ مُرٌّ في مَذاقَتِهِ   لَكِنْ عَواقِبُهُ أَحلَى مِنَ العَسَلِ

ومنها التأسي بالصابرين ، ألا ترى إلى قول الله – عز وجل – : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف :35] .

ويقول ربنا – عز وجل – ﴿**وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ**﴾ [الأنعام : 34] .

وقد قالت الخنساء :

وَلَـولَا كَثْـرةُ البَـاكِينَ حَـولِي   عَلَى إِخْـوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِـي

فليست وحدها التي فقدت أخاها ، وإنما حولها كثيرون فقدوا إخوانهم فهي تبكي أخاها كما يبكي مَنْ حولها إخوانهم ، ولولا ذلك التأسي لقتلت نفسها ؛ فمن التأسي أن تبكي كما يبكي الناس ، والبكاء غير القتل ؛ إذ هو أهون منه ؛ لاستمرار الحياة مع البكاء وانقطاعها بالقتل ، والقرآن الكريم كما جاء في آية الأنعام يصرح بأن النصر للصابرين ، فقد كذبت رسل من قبله – ﷺ – فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله ، ولا مبدل لكلمات الله ؛ أي تلك سنته سبحانه – وتعالى – في عباده ، أن للصابرين العاقبة ولهم النصر .

وإنما قدمتُ هذا القول لما قالته الزوجة السابعة لأنها سلف كل امرأة تجد من صنوف الأذى الكثير ، وأن التي قدمت شكواها على متن المبالغة فأظهرت جميع السوء ، ولم تذكر حسنة واحدة لها في تلك المرأة أسوة ، بدليل ما قالت ، فماذا قالت ؟

لقد قالت الزوجة السابعة : « زَوجي غياباء طَبَاقَاء ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَواء ، شَجك أو فلَّك ، أو جمع كلًّا لك » .

فالغياباء من الغيابة وهي الظلمة ، ومعناه لا يهتدي إلى مسلك أو أنها وصفته بثقل الروح ، وأنه كالظل المتكاثف الظلمة الذي لا إشراق فيه ، أو أن يكون غياباء من الغي ، وهو الانهماك في الشر ، أو من الغي الذي هو الخيبة .

وقولها : كل داء له دواء : أي كل شيء تفرق في الناس من المعايب موجود فيه !

وقد انطوى تحت هذه الكلمة كلام كثير ؛ لذلك كانت إشارة بليغة ، ومن هذا الكلام أن كل داء عند الناس موجود فيه ، ومنه أن كل داء عنده قد بلغ التناهي .

وهو مع ذلك يضرب امرأته ، بل هو ضَروبٌ للنساء كما قال ابن حجر[1] . يشج رأسها فتنفجر ، وهو يفلها أي يطردها ويبعدها أو يؤثر ضربه في جسدها كما قال الشاعر :

وَلا عَيبَ فِيهِمْ غَير أَنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وفي عبارة نقلها ابن حجر عن عياض تبين لنا خلاصة ذلك ونصها :

« وصفته بالحمق ، والتناهي في سوء العشرة ، وجمع النقائض بأن يعجز عن قضاء وطرها مع الأذى ، فإذا حدثته سبها وإذا مازحته شجها ، وإذا أغضبته كسر عضوًا من أعضائها أو شق جلدها أو أغار على مالها ، أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو ، وموجع الكلام وأخذ المال »[2] .

إن هذه الصورة جامعة مانعة لأبشع الصفات التي يمكن سردها على النحو الآتي :

1- أنه أحمق ، لا يأتي بخير ، ولا يهتدي سبيلًا .

2- وأنه عاجز عن إتيانها « جنسيًّا » .

3- وأنه يسبها إذا كلمته .

4- وأنه يجرح جسدها إذا ما زحته .

(1) فتح الباري 9/ 173.

(2) المصدر السابق 9/ 173.

5- يكسر عظامها إذا أغضبته .

6- وأنه يعتدي على مالها .

7- وأنه بذيء اللسان خبيث الكلام .

فماذا بقي في هذا الرجل من البقية التي يقال لمثلها في زماننا : اصبري عليه ، ولا تطلبي منه طلاقًا ولا فراقًا ؟

إن مثل هذا الرجل مريض ، وعلاجه صعب ، ومفارقته أولى من معاشرته ، اللهم إلّا إذا كانت هذه المرأة قد ركبت بالفعل متن المبالغة .

ومن خلال لغتها يمكن حمل بعض المعاني الواردة على ضدها فقولها عياياء يحتمل أنه من العي التي تعيبه مباضعة النساء ، ويحتمل أنه من الظلمة كما قلنا والخيبة ، فقد يكون قادرًا على إتيانها لكنه ثقيل الروح ، وقد يكون قولها : « كل داء وله داء » من قبيل المبالغة ؛ لأن لفظة : « كل » تدل على العموم والشمول ، ومعنى ذلك أنه جمع لما تفرق من شرور في الناس ، وفي هذا متسع للقول بأنه بخيل شحيح حريص ، متشائم ، يائس بغيض، آكل أموال الناس بالباطل ، جبان ، سيئ الخلق . وقد قالت زوجة معاصرة : إن البخل عندما قُسِّمَ على البخلاء أخذ زوجي كله وترك الفتات منه لجميع البخلاء في الدنيا ، وهذا غير متصور ! إنما يحمل على المبالغة معنى البغض الذي ما استقر في قلب حتى أملى على اللسان كل هذا التهويل ، لكن ما الذي حملها على معاشرته ؟! إن كان بهذه الصفات الجامعة للسوء، إنها لا بد متكلمة وهو عندما تتكلم يسبها ، وهي لا شك تمازحه بين الحين والحين وهو عندما تمازحه يشجها أي يفلق رأسها ، وهي لا بد ولو رغمًا عنها مغضبته ، وهو عندما تغضبه يكسر لها عضوا من أعضائها ، فماذا بقي من هذه الأعضاء ؟!.. اللهم إلّا إذا قيل إنها اكتفت بالكلام مع السب والشتائم وابتعدت عن المزاح وعن المغاضبة ، فكانت بذلك عبقرية ! إن حديث هذه المرأة يجعلني أقول : لقد أوتيت من القدرة النفسية ما يجعلنا نقول إن الله أودع في هذه المرأة ومثيلاتها تحملًا عظيمًا من أجل إقامة الحياة ، فليتق كل امرئ ربه - عز وجل - فهي طاقة ، وطاقة البشر محدودة .

زوج مغلوب

أشعر بشيء عظيم من الأسى والحزن الدفين عندما أستمع إلى حوار فيه يقول المتحاورون : غلب الزوج زوجته ، أو غلبت الزوجة زوجها أو يدور في فلك يصح أن نطلق عليه الصراع بين الأزواج ؛ لأن الحياة الزوجية ليست ميدان معركة ننتظر فيه إعلان النتيجة من يَغْلِب ومن يُغْلَب ، وليست معرضًا للعضلات ، وإنما هي حياة سكن ، والسكن يقابل الاضطراب .. ومودة ، والمودة في مقابلة الجفاوة .. ورحمة ، والرحمة تقابل العذاب ، فليس في الحياة الزوجية أبعاد للصراع ، إنما هي تكامل ، وإضافة . فالزوج إضافة إلى زوجته ، والزوجة إضافة إلى زوجها ، وقد تكون الإضافة المعنوية أعظم بكثير من الإضافة المادية ، واجتماع كليهما طيب محمود ، ذلك الصراع الموهوم المظنون يفتعله أناس نتيجة عوامل شتى ، وظروف معروفة ، قد تكون إلى الخيال أقرب منها إلى الواقع الملموس ، فإن كثيرًا من الناس يعيشون وهم عن مثل هذه الحوارات غافلون .

جلست بين أفراد أسرة كريمة ، وكان أمامنا على إحدى القنوات برنامج من هذا الشكل ، وقد أدركت أن أحدًا من أفراد الأسرة لا يفهم شيئًا مما يقال ، مع وجود أنصار للرجل ، وأنصار للمرأة ، وهؤلاء يصيحون ، وهؤلاء يقفزون والجدال واسع ، والتناقض ظاهر ، وبين الفريقين جلس شيخ معمم ، ينتظر دوره في الحديث ليقول كلمة طيبة تنهي الصراع بأن الرجل والمرأة من خلق الله ، وأن الإسلام أوصى بها بنتًا وأختًا وأمًّا وصاحبة (زوجة) ، وكأنه كلمة (النهاية) توضع بعد انتصار الخير على الشر في الفيلم العربي الذي دار فيه الشر دورانًا واسعًا ، ثم جاء البوليس فقبض على المجرمين ، ووضعت هذه الكلمة (النهاية) ولكن قبل وضعها كان رواد السينما قد تركوها ، وأُضيء فناؤها من أجل خروجهم قبل الزحام ؛ فالنهاية معروفة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ووجدت أفراد الأسرة يقولون : كان بودنا أن نسمع كلمة نافعة ، وهذا أطيب تعليق وأنصف بيان ، وقال رائد الأسرة وراعيها :

- كنا نود من هؤلاء أن يتكلموا في أسعار السوق ، وأزمة العيش ، وكنت أود أن تقول زوجته كلمة هي الأخرى ، لكنها كانت مشغولة بإعداد العشاء والقيام بمهام البيت ، فلما قال لها ولدها الكبير وكأنه يسخر مما شاهد ، ويداعب أمه :

- هل تعلمين في أي شيء كانوا يتحاورون ؟ إنهم كانوا يتحاورون في الصراع بين الرجل والمرأة ؛ فقالت تلك الأم والزوجة :

- ناس فاضية !

وهذا تعبير كنت أود أن يعرفه المسئول عن البرنامج والمعدون الذين بات معظمهم يحرثون في المحروث ، وليس لديهم جديد نافع . ولعل قصة الزوجة الثامنة تكشف عن مزيد من البيان ؛ فقد قالت : « زَوْجي المسُّ مَسُّ أَرْنَبْ ، والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبْ » .

وفي رواية ذكرها ابن حجر [1] : « وأغلبه والناس يغلب » .والأرنب معروف ، وهو رقيق الملمس ، والزرنب على وزنه نبات طيب الريح ، وقيل هو شجرة عظيمة بالشام بجبل لبنان لا تثمر لها ورق بين الخضرة والصفرة ، والصحيح أنها حشيشة دقيقة طيبة الرائحة .

ومن لطائف اللغة أن « أل » في المس والريح نائبة عن الضمير أي مسه مس أرنب ، وريحه ريح زرنب ، وقد يكون التقدير المس منه مس أرنب ، والريح منه ريح زرنب .

وأود أن أقول : إنّ هذه تذكرنا بمن قالت زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ، فقد ذكرت المادحة السعيدة تهامة ، وذكرت هذه أيضًا الأرنب والزرنب ، ومعنى ذلك أن مصطلحات البيئة تأتي على لسان السعيدات من الزوجات ، وهذا يزيد المعنى الذي ذكرت وضوحًا وتوكيدًا ، وهو أثر الجنسية الوجدانية في الانتماء إلى الوطن ، وأن تلك الجنسية هي الأساس ، فما من شك في أن الجنسية الورقية حظيت بها اللاتي صورن بأسهن وشكون سوء أخلاق أزواجهن ، لكن واحدة منهن لم تذكر تهامة ولا غيرها ، ولا نباتًا كالزرنب ، ولا حيوانًا كالأرنب ، وهذا الزوج الذي حظيت به المرأة الثامنة كان رجلًا يحب النظافة،

(1) فتح الباري 9/ 173.

كثير التطهر ، وتلك صفة جميلة ، والله - عز وجل - يقول : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:4] ويقول في سورة البقرة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : 222] ويقول في سورة التوبة : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة : 108] .

وقد تحدثت إلى زوجات كثيرات يشتكين إلى الله - عز وجل - عدم اهتمام رجالهن بمسألة النظافة ، والمؤسف أن بعض هؤلاء يقلن : إن أزواجهن لا يغتسلون من الجنابة ، ومعنى ذلك أنهم لا يصلون فلا صلاة إلّا على طهارة ، وبعضهن قالت : إن زوجها مدمن لبس ملابسه المتسخة بعد الغُسل ، وقلت لها :

- اسبقيه إلى الحمام وضعي له فيه غيارًا غسيلًا نظيفًا فقالت : والله قد فعلت كثيرًا ، وكان يعاند فيَّ ويصرخ ويقول: لن أغيِّر ما عليّ ، فما عليّ نظيف ، وهو أحسن مما أتيت به أنت ! تلك نماذج شاذة ، وهناك رجال آخرون يودون أن يعيشوا في الحمام ، كلما اغتسلوا وخرجوا وشعروا بشيء من الحر أو العرق دخلوا من جديد ، وخلعوا ما عليهم من ملابس داخلية ، واغلي يا أم الأولاد ، فخير الأمور أوسطها كما قلنا ، في كل شيء حتى في النظافة ، وقد سنَّ الإسلام غُسل الجمعة حتى لا يؤذي المسلم غيره بسوء رائحته ، وسنَّ كذلك غُسل العيدين ، وأوجب الغُسل من الجنابة على الرجل والمرأة ، والغُسل من الحيض والنفاس على المرأة .

وقد ذكر العلماء وجهًا آخر لقولها : « المس مس أرنب والريح ريح زرنب » وهو حمل ذلك على الكناية عن طيب حديثه وجميل معاشرته ، فمن كان كذلك فقد صار مسه مس أرنب وإن كان جسده خشنًا ، وكان ريحه ريح زرنب وإن لم يضع عليه طيبًا ، فإن حسن الخلق يريك من صاحبه ما ينبعث من نفسك عليه من لين الملمس وطيب الريح ، وفي الرواية التي ذكرها ابن حجر ما يفيد أن هذا الرجل يغلب الناس لكن زوجته تغلبه ، ومعنى ذلك أنه ليس بعاجز عن أن يغلبها ، إنما يلين لها لكرم سجاياه وحسن معاشرته ، وما أطيب أن يكون الرجل هكذا غير ملتفت إلى ما يسمى صراعًا بين الرجل والمرأة !

زوج كريم

وتحدثنا الزوجة التاسعة عن زوجها تقول : « زَوجي رَفيعُ العِمادْ ، طَويلُ النِّجادْ ، عَظِيمُ الرَّمادْ ، قَريبُ البيتِ مِنَ النادْ » .

وزاد الزبير بن بكار في روايته : « لا يَشْبَعُ لَيلَةَ يُضَافُ وَلا يَنَامُ لَيلَةَ يَخافْ» .

وقولها مما جرى مجرى المثل ، فرفيع العماد معناه : عالي البيت ، وطويل النجاد معناه : طويل القامة ، فالنِّجاد حمالة السيف ، وطول الحمالة يقتضي أنه طويل ، ولكنها بالكناية أصابت هدفين وحققت معنيين ؛ طوله ، وأنه صاحب سيف شجاع يذود عن حرمانه ويرفع الضيم عن أهله وقومه .

وعظيم الرماد أي كثيره ، وهو من الكنايات القديمة عن الكرم والجود ، وهي تدل على المعنى مصحوبًا بالدليل ، فالدليل على كرم زوجها أن رماده عظيم ؛ إذْ معنى ذلك أنه جمع حطبًا كثيرًا ، من أجل إكرام ضيوفه ؛ وذلك أنهم كانوا يجمعون الحطب من أجل الطهو فلم يكن عندهم بوتاجاز ولا شيء من مستخرجات الأرض التي حظينا بها ومنها الوقود، لكن من يطعمك على نار الحطب خير من الذي لم يوقد لك بوتاجازًا ، أو أوقده ليصنع كوبًا من الشاي أو فنجانًا من القهوة وأنت جائع !

وقولها : قريب البيت من الناد ، أي من النادي ، لكن مراعاة السجع جعلتها تنطق به واقفة على الدال ، وقد جاء مثله كثيرًا في الأساليب العربية ، والنادي مجلس القوم ، كأنها أرادت أن تقول : إن أحدًا لا يتعبه أن يتجه إلى بيت زوجها لأنه قريب .

قال ابن حجر : ويحتمل أن تريد أن أهل النادي إذا أتوه لم يصعب عليهم لقاؤه لكونه لا يحتجب عنهم ولا يتباعد منهم ، بل يقرب ، ويتلقاهم ، ويبادر إلى إكرامهم ، وضده من يتوارى بأطراف الحلل ، وأغوار المنازل ، ويبعد عن سمت الضيف ؛ لئلا

يهتدوا إلى مكانه ، فإذا استبعدوا موضعه صدوا عنه ، ومالوا إلى غيره ، ومحصل كلامها أنها وصفته بالسيادة والكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة [1] .

لقد تمادح الناس من قديم بالكرم ، وبزغ في الآفاق اسم حاتم الطائي أكرم العرب ، وقد سئل حاتم ذات مرة : هل وجدت من هو أكرم منك ؟ فقال : نعم .

فكان الناس حريصين على معرفة القصة ، فقال حاتم :

مررت بغلام يتيم ، يعيش مع أمه ، وليس عنده من حطام الدنيا سوى مائة شاه ، فعرجت عليه ، فذبح لي شاة وأتاني سريعًا بمخها مشويًا حتى تنضج ، فقلت : الله ما أطيب هذا المخ فلما سمعني أخذ يذبحها شاة شاة ويأتيني بمخها ؛ فقيل لحاتم : وماذا فعلت ؟ فقال : أرسلت إليه بمائة ناقة مكانها!

إن موقف حاتم الذي أحب مكارم الأخلاق فكان أكرم الناس في زمانه يجعلنا نقف عند حقيقة لطالما غابت عن الناس وهي أن الكرم يشجع على الكرم ، فحاتم الذي ذبح له الغلامُ جميعَ ما يملك من شياه من أجله قد أرسل إليه مائة ناقة وهي أعظم من شياهه ، ولا شك أنّ الغلام سوف يذيع ذلك في الناس وسوف يكون أكثر كرمًا في مستقبله ؛ لأنه يرى نتيجة كرمه فورية ، ومما يصد الناس عن الكرم أنهم يكرمون مَنْ يملك أن يكافئهم لكنه لا يفعل ، ولو كان عاجزًا لوسعه عجزه غدرًا لكنه ليس بعاجز ، فهم يظنون أنه يستبيح أموالهم ويأكلها ظلمًا وعدوانًا ، ومن ثمَّ قال النبي - ﷺ - : مَنْ أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ، وقد ثبت عنه - ﷺ - أنه كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وهو - ﷺ - حين يأخذ الهدية يردها بخير منها ؛ أي يرد على صاحبها بهدية خير من هديته . وقد عالج الإسلام المسألة بهذا التوجيه السديد، وجعل معيار العطاء خالصًا لوجه الله - عز وجل - حتى يبقى الكرم والعطاء ما بقيت الحياة ، قال -تعالى - : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ

(1) فتح الباري 9/ 174.

عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : 8- 10] .

فمن كان عطاؤه لوجه الله لم ينظر إلى الناس الذين يصنع معهم المعروف ، إن ردوا إليه المعروف معروفًا فبها ونعمت ، وإن لم يردوا فحسبه ثواب الله – عز وجل - وأنه لم يقدم معروفًا إلّا لوجه الكريم ،وإنما أمر ربنا – تعالى – بمكافأة أهل المعروف ؛ لأنّ النفس البشرية مجبولة على ذلك ، فليس كل الناس على الذروة من البر ، قال – تعالى - ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : 86] .

وحين قالت المرأة الثامنة : «زوجي المس مس أرنب والريح ريح زرنب» ما كانت لتقول ذلك لولا أنه كريم معها كما ذكرنا ، حسن العشرة ، وهذه التاسعة حين قالت « زَوجي رَفِيعُ العِمادْ ، طَويلُ النِّجادْ ، عَظيمُ الرَّماد ، قَريبُ البَيتِ مِنَ النَّادْ » إنما بينت لنا ذلك وتركت لنا أن نفهم أنه كريم معها بلا شك ، فلو كان بخيلًا معها كريمًا مع الناس جميعًا لما سرها ذلك ، ولما مدحته بما مدحته به من علو بيته وطول قامته على الحق والحقيقة فليس طويلًا بلا خير كما قالت الثالثة « زوجي العشنق » وهذه اللفظة « العشنق» فيها رائحة الحنق ، وكأنها أطلقتها تستحث بها دمعها حزنًا على حالها مع هذا الطويل الذي لا خير فيه ؛ فهي إن نطقت طلقت ، وإن سكتت علقت . أما هذه فقالت « طويل» بالمد ، طويل النجاد ، شجاع كريم قريب البيت من النادْ .

وأود هنا أن أقول : كم من قريب بيته من النادي بعيد بيته عن أهله وأرحامه ، ومثل هذا إن سُئِلَتْ عنه زوجته فإنما تقول : هو بخيل ، فإن قيل لها : إن الناس جميعًا يشهدون أنه كريم معطاء ، ألا ترين إلى آثار كرمه وجوده ، إنه يكفل اليتيم ، ويعين المحتاج ، ويطعم الطعام ، ويفعل كذا وكذا ، قالت : إنما يفعل ذلك رياء وسمعة ، وقالت إحدى الزوجات : إني أتعجب من حال زوجي ، يذهب إلى أرملة بعيدة تربي يتامى ويغدق عليها وعلى أطفالها ، سألت نفسي : لماذا يذهب إلى مكان بعيد ، ويترك أرامل إلى جوارنا وهن

أولى بصدقته ، حتى رأيتها يومًا فإذا بها ملكة جمال ، فقلت سبحان الله ، ألا تجوز الصدقة على امرأة فقيرة ليست جميلة ، حدثتني نفسي بأن زوجي عاشق ولكن في صورة متصدق ، فهل يتقبل الله صدقته؟!. إننا لا نتهم زوجها بما قالت وإنما نقول أقرب الجيران إلينا بابا هم أولى بالعطاء سيما الفقراء منهم!

آثار الملكية

في الناس مَنْ يملك وهو بالفعل يملك ، وفيهم من يملك وهو في الحقيقة لا يملك شيئًا ، ولكي يزيد هذا المعنى وضوحًا أقول إنَّ الله – عز وجل – قال لرسوله – ﷺ – : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران : 159] .

والشاهد في اللام من قوله – تعالى – : ﴿لَهُم﴾ أي إن النبي – ﷺ – لان للناس ، سمح سهل ، يقول للطفل الصغير أبا عمير ما فعل النُّغَير ، ويروي أنس – رضي الله عنه – أنه – ﷺ – كانت تصحبه المرأة حيث شاءت حتى يقضي لها حاجتها ليس على بابه بواب، يقول لمن هابه وظنه ملكًا من الملوك : « إِنِّي ابنُ امْرأةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ بِمَكَّةَ » .

ومن هنا أقول : لو أن إنسانًا كان لينًا في نفسه فإذا عاملته لم تجد فيه لينًا ، فهل يقال إنه ليِّن !

أو كان لينًا مع الناس جميعًا إلّا معك ، تجد فيه غلظة وشدة ، فهل تطلق عليه لينًا كذلك ؟

وإذا كنت على شاطئ نهر عذب ومنعت منه فلم تشرب جرعة وعشت ظمآنًا ، تبحث عن عين بعيدة ، أو مستنقع بعيد لتتجرع منه جرعة تُبقي بها على حياتك ، فهل تقول إن ببلادك نهرًا عذبًا ؟!

وقد قال شاعر من قديم :

إِذَا مِتُّ ظَمْآنًا فَلا نَزَلَ القَطْرُ

من أجل ذلك كانت الملكية الحقيقية هي التي تتعدى المالك إلى غيره ، فإن كانت قاصرة عليه ، لا تتجاوزه إلى غيره كان هو والعدم سواء . والزوجة العاشرة تحدثنا عن زوجها ، فتقول : « زَوجِي مَالِك وَمَا مَالِك ؟ مَالِك خَيرٌ مِنْ ذَلِك ، لَهُ إبلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِك قَلِيلاتُ المَسَارِحْ وَإِذا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوالِك » .

لقد تحدثت عن زوجها فقالت إنه مالك ، ثم قالت : وما مالك ؟. ومثل ذلك قول الله العلي العظيم في أول سورة الحاقة : ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة : 1- 3] وفي أول سورة القارعة : ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة :1- 3] . وذلك الاستفهام في قول الله – عز وجل – في السورتين المذكورتين وفي غيرهما يدل على التفخيم والتهويل ، ثم قالت الزوجة : « مالك خير من ذلك » . وذلك زيادة في الإعظام ؛ حيث إن معناه أن ما يملكه خير من ذلك التهويل والتعظيم والتعجب الوارد في قولي : « وما مالك » ؟ فكأنها فسرت بعض الإبهام وشرحت بعض الغامض ، فهو يملك أكثر مما ذكر ، قال ابن حجر : « ومحتمل أن يكون المراد : مالك خير من كل مالك ، والتعميم يستفاد من المقام ، كما قيل « تمرة خير من جرادة » أي : كل تمرة خير من كل جرادة ، وهذه إشارة إلى ما في ذهن المخاطب ؛ أي : مالك خير مما في ذهنك من مالك الأموال ، وهو خير مما سأصفه به ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى ما تقدم من الثناء على الذين قبله »[1] .

وثروة الرجل من الإبل ، وهي إبل كثيرة بدليل قولها : « كثيرات المبارك » والمبارك جمع مَبْرَك ، وهو موضع نزول الإبل . عند الزبير إذا سمعت الإبل صوت الضيف مكان صوت المزهر الذي هو الآلة (العود) أيقنَّ من غير شك أنها هالكة ؛ لأن صاحبها يذبحها لضيفه ، ووقع في رواية يعقوب بن السكيت وابن الأنباري من الزيادة : « وهو

(1) فتح الباري 9/ 175.

أمام القوم هالك » أي شجاع يتقدم المحاربين إلى النزال ، فتكون وفق هذه الزيادة قد وصفته بالكرم والشجاعة ، وقولها في الإبل : « قليلات المسارح » يدل على كثرة طروق الضِيفان ، فليست عند الإبل فرصة لكي تسرح فهي إلى الذبح أقرب منها إلى المرعى ، أو أنها لا تمكن من الرعي إلّا بقرب المنازل لئلا يشق طلبها إذا احتيج إليها .

وكما قلنا إنَّ ثناء المرأة على زوجها بالكرم إنما يكون بعد أن ترى كرمه في نفسها وفي أولادها ، وكم كان إكرام الضيف سببًا لإكرام الأهل ، وقد قيل من قديم : إن صاحب البيت يقول بلسان حاله :

– ليلتك سعيدة أيها الضيف .

فقال الضيف مجيبًا من أضافه بلسان حاله كذلك :

– والله إنها سعيدة عليك وعلى أولادك .

أي لأنكم جميعًا تأكلون أكثر مني مما أعددتموه من أجلي ، فأنا لست وحدي الذي أكل طعامكم الشهي الطازج وشرب شرابكم اللذيذ ، وإنما نلتُ قسطًا يسيرًا منه ، ونلتم أنتم البقية وما البقية بالقليل .

وكم دعت إحدى الزوجات رب العالمين – سبحانه وتعالى – أن يكثر من ضيوف بيتهم ؛ لأنهم لا يأكلون طريًّا ولا يشربون نديًّا إلّا على (حسن) الضيف ، نعم هنالك رجال هكذا بخلاء على زوجاتهم وعلى أولادهم اللهم إلّا إذا جاءهم ضيف ، هنا لك يشمر الزوج عن ساعد الكرم ، ويذبح الطيور ، ويأتي بالفاكهة . تقول هذه المرأة :

كلما قدم علينا زوجي يحمل فاكهة أقول :

– خيرًا ، مَنْ يأتينا الليلة ؟

ويبدو أن الزوج قد استشعر ذلك فَقَدِمَ ذات مرة حاملًا الفاكهة والحاجة (الساقعة) فقالت له العبارة نفسها ، فقال :

– لا أحد سوف يأتي ، إن هذا من أجلنا ، فصفقت وزغردت وقالت : احلف ، فحلف .. وقد كان ، صار يأتيهم بالخيرات ومن بعدها صار وجود الضيف وعدم وجوده سواء .

ومن الناس من يعمل حساب الضيف لا غير ، يحدثنا فتى كاد كلامه يسحب القلب من بين الضلوع ، كان في الحادية عشرة من عمره ، وقال لي : إن أبي يأمرني أن أذهب إلى السوبر ماركت لأشتري زجاجتين من المياه الغازية زجاجة له وزجاجة لضيفه ، وأنا أسمع كلامه ، وأذهب وأعود بالزجاجتين ، وأقف أنظر إليهما وهما يشربان وأقول في نفسي : لو أن أبي يترك لي شيئًا من زجاجته ، فينهرني والدي ، ويقول لي : لا تقف هكذا ، هذا عيب ، وذات مرة ترك الضيف نصف الزجاجة فأسرعت بشرب ما تبقى فرآني أبي فضربني ، وقال : هذا عيب يا ولد ، فقلت له : من فضلك يا أبي هل الشرب منها عيب ، نفسي فيها أرجوك أعطني ثمن زجاجة من أجلي ، فقال لي : أنت قليل الأدب ، وأخذ الفتى يبكي، والله يشهد أن قليل الأدب هو الأب !

المرأة والحليّ

وصلنا إلى المرأة الأخيرة وهي التي كانت صاحبة أبي زرع ، وعرف الحديث باسمها، وفيها قال النبي – ﷺ – لعائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها– « كُنتُ لَكِ كَأبي زَرعٍ لأُمِّ زَرع » . ولنا معها وقفات ، وفي ضوء قولها نلقي الإضاءة على كثير من الأمور النافعة للأسرة المسلمة ، ومن ذلك أنها بدأت حديثها بقولها : « زَوجي أبو زَرع فما أبو زرع » وفي رواية أبي ذر « وما أبو زرع ؟ » ، فذكرته بكنيته ، والكنية ما بدأ بـ « أب » أو أم وزاد الرازي أو بابن وابنة ، والأول هو المعتمد ، قالت أم زرع في مطلع كلامها ، وأول قولها ، وصدر مدحها : « أناسَ مِن حُليٍّ أذنيّ ، وَمَلأ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيّ ، وبجَّحني

فَبَجَحَتْ إليّ نفسي ، وَجَدني في أَهْل غُنَيْمة بشق ، فَجَعَلني في أَهْل صَهيلٍ وَأَطيط ، وَدَائسٍ ومُنَق ، فَعِندَهُ أقولُ فَلا أُقَبَّح ، وَأرقُدُ فَأَتَصَبَّح وَأَشْربُ فأتقنَّح» .

أمّ أبي زَرع فَما أُم أَبي زَرع ، عُكُومُها رَدَاح وَبيتُها فَسَاح .

ابنُ أبي زَرع ، فَما ابن أَبي زَرع ؟

مَضْجَعُه كَمِسلِّ شَطْبَة ، وَيُشْبِعُهُ ذِراع الجَفرة .

بنتُ أبي زَرع ، فَما بنتُ أَبي زَرع ؟

طَوعُ أبيها وَطَوع أمها ، وَمِلءُ كِسَائِها ، وَغيظُ جَارَتِها .

جاريةُ أَبي زرع ، فَما جَاريةُ أبي زرع ؟

لا تَبثُّ حَدِيثَنا تَبثيثا ، وَلا تُنفِّث مِيراثَنا تَنفيثا ، وَلا تَملأُ بَيتنا تَعْشيشا .

قالت : خَرجَ أبو زرع وَالأَوطاب تمخَضُ ، فلقي امْرأة مَعَها وَلدَان لَهَا كالفَهْدين، يَلعَبان مِنْ تَحتِ خِصْرِها بِرُمَّانتين ؛ فَطَلَّقني وَنَكَحَها ، فَنَكَحْتُ بَعدَهُ رَجلًا سريًّا ، رَكِبَ ثَريًّا وأَخَذَ خَطيًّا ، وَأَراحَ عَليَّ نِعمًا ثَريًّا ، وَأَعْطَاني مِنْ كُلِّ رَائحةٍ زَوجًا ، وقال : كُلي أُمَّ زَرعٍ، وميري أَهْلَكِ ، قالت : فَلو جَمَعْتُ كُلَّ شَيءٍ أَعْطَانِيه مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنية أبي زَرع » .

قالت عائشة : قال رسول الله - ﷺ - : «**كُنتُ لَكِ كَأَبي زَرعٍ لأُمِّ زَرع** » .

قال ابن حجر [1] : وزاد الزبير في آخره : « إلّا أنه طلقها وإني لا أطلقك». وزاد النسائي : « قالت عائشة : يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع » .

وأول شيء نقف عنده هو علاقة المرأة بالحلي والذهب والجواهر ونحوها مما تتزين به المرأة ، لقد ذكرت أم زرع أول ما ذكرت أن أبا زرع حرّك أذنيها بالحليّ ، وكما قال سيبويه

(1) فتح الباري 9/ 185.

- رحمه الله - والدنيا جميعًا : إنّ التقديم يدل على الاهتمام ، وهي قد اهتمت بأهم شيء في حياة المرأة بالزينة والحلي ، والله - عز وجل - يقول في سورة الزخرف : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف : 16- 19] .

فقال - جل وعلا - : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ فالطفلة منذ نعومة أظفارها تحب الحلية والزينة ، وقد جعل الحق - تبارك وتعالى - الحلية ظرفًا للإناث ، كأن الحلية هي مهدها ، ووطنها ، وبيئتها ؛ ولذا كان من العجب أن يقول زوج لزوجته :

- أعوذ بالله ، تحبين الذهب كحب عينيك .

وماذا في ذلك والقرآن نص صريح مبين ، يقول : ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ .

وقد حكى لي بعض الشباب أنه خرج من بيت خطيبته ولم يعد إثر موقف كان ، فما هذا الموقف ؟ قال : بينما أنا جالس جاءتني بعلبة ، وفتحتها ، وأخذت تريني قطعة قطعة من ذهب كان في تلك العلبة ، تقول : هذه جاءني والدي بها وأنا ابنة سنة ، وتلك اشترتها لي أمي وأنا في الإعدادية ، وهذه هدية أختي وأنا في الثانوية ، وعندما حصلت على البكالوريوس أهدى إليَّ عمي هذا القرط (الحلق) ، ثم قالت مع أنه بخيل ، وأخذت تناولني وتقول : أما شبكتك أنت فسوف تكون أغلى عندي من هذا كله ، قال : أدركت أنها سطحية تافهة ، ومثلها لا يناسبني ، فأنا أريد فتاة جادة تتحمل معي شظف العيش ومرارة الحياة ، أدركت أن مثل هذه الفتاة لن تعينني على دين ولا على دنيا ، فما هذا العرض ، وما هذا الحفظ لتاريخ ذهبها ، ومن أهدى إليها ؟! ثم إنني صارحتها

وصارحت أهلها بأنني ليس في مقدوري أن أشتري شبكة ، وإنما أقدر على شراء « دبلة » وزادت أمها : و « محبسًا» ؛ فقلت : أمري إلى الله ، ثم جاءت هي في موقف العرض ، وقالت : أما شبكتك أنت فسوف تكون أغلى عندي من هذا كله .

قلت له : إن هذا شيء طبيعي في أي امرأة ، وقد قال الله – تعالى – ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، وقد كانت أم المؤمنين عائشة تقترض من أسماء أختها ذهبها وتسافر به مع النبي – ﷺ – . وفي حديث أم زرع بدأت المرأة بذكر الذهب . قال لي : إن أمه خلعت ذهبها وباعته من أجل أن يقف أبوه على قدميه .

قلت : يا ولدي تَفَكَّرْ فيما تقول ، لقد قلت إن أمك قد خلعت ذهبها ، ومعنى ذلك أن أمك كان عندها ذهب ، وكون فتاتك التي خطبت تحب الذهب ليس معناه أنها تضن به عليك إذا كنت في حاجة إليه ، ولكني أسألك : هل احتفظ أبوك بالود لأمك ؟ قال : نعم نعم ، إنه يعترف بفضلها ولا ينسى لها موقفها المشرف هذا ، وقد أتى إليها بأكثر مما أخذ منها . قلت له : فليتك تكون مثل أبيك في الاعتراف بالفضل ساعة تخلعه من أجلك وتبيعه بالخسارة لكي تجبر كسرك وتعينك ، وبعد أن يرتد إليك جميل حالك ، وتتحسن ظروفك فلتفعل كما فعل أبوك ، ولا تحكم على البنت بأنها غير مناسبة لك لأنك رأيتها تذكر ذهبها ومن أهداه إياها ، فذلك عند المرأة عزيز وأعز منه زوجها ، وحين قالت لك : «شبكتك» مع علمها أن كل ما وعدت به إنما هو دبلة ومحبس ؛ فهي ترى هاتين القطعتين الصغيرتين أعظم وأغلى شبكة لأنها تحبك فارجع إليها والحمد لله أنه استجاب ، ثم إن الحمد لله الذي جعل للرجل من نفسه زوجة تحب الحلية من أجل عينيه ، فهل يريدها رجلًا مثله !

تعظيم المرأة

وهذه قضية من قضايا الأسرة الشائكة يثيرها قول أم زرع في أبي زرع « وبجحني فبجحت إليّ نفسي » أي عظمني فعظمت نفسي إليّ ، فالتبجيح يعني التفريح والتعظيم .

تقول إن زوجها عظمها ولا يكون تعظيم بتحزين وإنما يكون بالتفريح . ساق إليها صنوف الخير ، وقال لها خيرًا ، فإذا بنفسها سعيدة وصدرها منشرح ، والحياة أمام عينيها واسعة ، وإن كانت في بيت ضيق ، وفي رزق محدود ، وعظمها بين الناس وبينه وبينها فوجدت في نفسها عظمة ، وأدركت أن لها مكانة ، فلو لم يعظمها لما عظمت نفسها عندها، ولتساقطت وتهاوت وانتابتها وساوس الشيطان ، فظنت أنها أخت جني ، وأن عليها جنيًّا يتحدث بالسريانية أو الإيطالية ، وتلك قضية خلاصتها أن ترك المرأة أو الرجل وإهمالها من جانب أقرب الناس إليهما يؤدي إلى العطب ، ويؤدي إلى الفراغ والتهيؤات والتخيلات ، وقد نهى النبي – ﷺ – عن سفر الرجل وحده ، وقد يكون المرء بين أمة من الناس ، ويشعر بالوحدة ، إذا رآهم يهملونه ويسقطونه من حسابهم ، فلا أحد يأخذ رأيه ولا أحد إن استشاره يوقر فكره ، يستخفون به ، وبعضنا يقول لبعض :

– خليك في حالك ، وبعضنا يزداد إثمًا وارتباطًا بالجريمة حين يقول لأخيه أو ولده أو زوجته :

– ما عليك إلّا أن تأكل وتشرب ، فلست بذي عقل ولا فكر ، وبعضنا قد يكون طيب القلب ، لكنه يؤذي حين يقول :

– ادع الله لنا .

وكأن مخاطبه لا يملك إلّا الدعاء ، فهو مع هؤلاء العاجزين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلًا ، وهو يرى نفسه ليس عاجزًا عن المشاركة .

وبعض الأزواج يرى أن مهمة المرأة في الحمل والولادة وأن تبيت كما قال الأول على جنابة ، ليس إلّا ، وفي هذا ظلم للمرأة ، ووأد لعقلها ، وعند كثير من الناس يكون وأد البدن أهون من وأد العقل .

إن الرجل السويّ هو مَنْ يدرك أن كرامة زوجته من كرامته وأن تعظيمها من تعظيمه ، وفي صلح الحديبية عندما أمر النبي – ﷺ – الناس بحلق الشعر وذبح الهدي ، وكان قد أثر فيهم أن يعودوا هذا العام دون عمرة ، وكان من رأي بعضهم وهو عمر

- رضي الله عنه - أن يحاربوا القوم الظالمين ؛ لأنه قال : ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! فلم نؤثر الدنية في ديننا ؟ فلما أخذتهم المفاجأة لم يفعلوا ما أمرهم به رسول الله - ﷺ - أول الأمر فدخل - ﷺ - على أم سلمة - رضي الله عنها - وقال : هلك الناس ، فلما حكى لها قالت :

لو دعوت الحلاق فحلقت ، وذبحت هديك ورأوك قد فعلت فعلوا ، وقد كان ، حلق النبي - ﷺ - وذبح هديه فلما رآه المسلمون قد فعل فعلوا جميعًا كما فعل ، وقد ثبت عنه - ﷺ - أنه قال لأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : « لَولا أَنَّ قَومَكِ حَديثو عَهْدٍ بجاهليةٍ لَبَنَيتُ الكَعْبَةَ عَلى قَواعِدِ إبراهيمَ وَلأَدْخَلْتُ الحِجْرَ فيهَا » ولولا أنه - ﷺ - رآها أهلًا لمثل هذا الحديث الذي يعد أصلًا في سد الذرائع لما قال لها الذي قال .

إن بعض الأزواج - مع الأسف - يهين امرأته خصوصًا إذا حضر أهله ، فيسمعها أبشع الكلمات ، ويصفها بأسوأ الصفات فتسمع أمه وأخته ما يقول فيها فينتقصانها ويعرفان قدرها عنده ؛ وبهذا ينتقل الذم منه إليهما فلا تقول فيها واحدة منهما خيرًا .

بل إن الأبشع أن نرى ذلك الانتقاص لا يحلو له إلاَّ بين الأولاد ، فهذا زوج يقول لأولاده :

أمكم هذه أم تافهة ناقصة ، لا دين لها ، ولا عقل ، إنها سبب كوارثنا ، وسر تخلفنا ، لا تسمعوا لها قولًا ، ولا يستشرها أحد منكم ، حتى لا يكون مصيره كمصير أبيه .

ويبدو أن مثل هذا الرجل مريض بداء العداء للأنثى ؛ إذ يقول لأكبر أولاده :احذر أن تكون مثل أبيك الذي ضيعته أمك ، فلا تستشر زوجتك في شيء ، ولا تأخذ برأيها في أمر من الأمور ، فهي بلا عقل ، ومن قال لك غيرذلك ، فلا تصدقه ، إن هذه المرأة مخلوق عجيب ، إن أردت أن تستمتع بها فلتعرف موضع المتعة فيها ، ولا تتجاوزه إلى غيره حتى لا تضيع .

وشيئًا فشيئًا تشعر هذه المرأة بأن تلك حقيقتها وأن ما تسمعه جد ، فتفقد ثقتها بنفسها واعتزازها بأنوثتها ، فتلجأ إلى أدنى وسوسة ، ويصبح صوت الغيب حاضرًا إذا غاب صوت الحاضر ، وتمرض نفسها ، والنفس إذا مرضت مرض لمرضها البدن ،

وتاهت في الظلمات ، تقول إحدى المبتليات بذلك : عندما كنت في كامل قواي العقلية والذهنية ، أهملوني ، وحين ادعيت أن عفريتًا ركبني ذهبوا بي كل مذهب ، وارتفعت أكف الضراعة إلى الله - عز وجل - أن يعجل بشفائي ، كنت أرجو عشرة جنيهات أشتري بها شيئًا يخصني فبخلوا بها عليّ فلما رقدت وتمرمغت في التراب حملوني إلى الأطباء ومن بعدهم إلى الدجالين وأنفقوا الألوف المؤلفة ، كنت من داخلي أشمت فيهم ؛ لأنهم جبناء ، وكنت أشعر أنهم هم الذين ركبتهم العفاريت دوني ، وأنهم يجب أن يعالجوا ، وعلاجهم في أن يتذوقوا كؤوس الحسرة على أموالهم مثلما حرموني إياها ، كنت على قدميَّ ، وأنادي فلا يجيبني أحد ، وعندما رقدت أشرت بإبهامي فأتوني جميعًا ، وكنت أتكلم فلا أحد يسمعني وعندما خرفت بكلام لا مبتدأ فيه ولا خبر ترجموه لصالحي وقالوا لي : هل معنى كذا..كذا ؟ وهل تريدين كذا ؟ واطلبي ما شئت .

قالت : ذات مرة ذهبت إلى أحد الدجالين وكنت أعلم أنه جاهل ، فلما تركونا وحدنا قلت له : اطلب منهم كذا وكذا على لسان الجن ، وقد قال لي : أنت زبونة محترمة وفعل ، وربح ، ولم أجد في ذلك ندمًا إلّا قولك في حلقة تليفزيونية : هذا حرام ، فامتنعت، وامتنعوا عن الأذى وما زالوا ينتظرون شفائي تمامًا ؛ لأنني بين الحين والحين أريهم العين الحمراء فيزعمون أنها عين العفريت !

بين الأهل والزوج

قد تكون المرأة قبل زواجها في عيش نكد ؛ لفقر أبويها وسوء حالها ، فتنتقل بزواجها إلى عيش أرغد ، ورزق أوسع ، ولكن هَلْ تسعد بما انتقلت إليه من هذه الحياة الطيبة ؟

نعم إنها تسعد بتلك الحياة الطيبة الواسعة إذا كان زوجها رجلًا أصيلًا معدنه طيبًا عنصره ، مدركًا نعمة الله - تعالى - عليه . أما الذي يرى أنه منّ على زوجته إذ نقلها من دار ضيقة إلى أخرى واسعة ، ومن عيش رآه كدرًا إلى عيش صاف خال من الكدر ، ويظل يقول لها : احمدي ربنا ، وتذكري الذي كان وما أصبحتِ فيه من نعمة ، فما كنت تحلمين

أن تعيشي في بيت كهذا ولا أن تتزوجي مثلي ، وبعضهم قال لزوجته : كبيرك كان أن تتزوجي السائق الذي يقود بك تلك السيارة ، والتي ما كنت ولا أهلك جميعًا يحلمون بأن يمروا من جوارها .

والله لقد سمعت رجلًا يقول ذلك في امرأته التي طلقها على الهواء مباشرة حتى قال له المذيع:

- نحن لا نريد ولا نقبل هذه الإهانة .

مأساة خلقية ، فما مثل هذا الرجل بمدرك ما يقول ، فما هذا من خلق الرجال فضلًا عن المسلمين .

إن الله - عز وجل - يقول مخاطبًا المؤمنين في سورة البقرة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : 264] .

وهذا في مجال الصدقات فما بالنا بمن يبطل صدقته مع زوجته ، وقد روى البخاريّ أن اللقمة يضعها الزوج في فم زوجته صدقة ، ويبطل مع ذلك روح الزواج ، إن الرجل ما منّ على زوجته عندما تزوجها ، وإنما اصطفاها واختارها ، وكانت أمامه التي هي في مستواه المادي والتي أعلى منه مادة وغنى ؛ فلماذا آثرها وهي فقيرة على غيرها إلا لشيء فيها ليس في غيرها من الفتيات المترفات .

إن الزوج الأصيل يعتبر زواجه من امرأة هي دونه في الثروة المادية قد أذاب هذا الفارق ، وهو عندما يغدق عليها وعلى أهلها بالتبعية لها إنما يجعل المعروف في أهله وفي

وطنه ، فالله - عز وجل - يقول : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق : 7] .

فالنفقة واجبة على الزوج ، وهي تكون واسعة إذا كان غنيًّا ، ولا يعفي الفقير من النفقة كذلك ، فكيف يمن عليها ، هل يمن عليها أن أوصل إليها حقها ؟

لقد تزوجت أم زرع بأبي زرع ، وقالت : « وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنيمةٍ بِشقٍّ فَجعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمنِقٍّ » ومعنى هذا أنه نقلها من موضعها في شق جبل ضيق ، إلى أهل خيل وإبل ، تدوس الطعام وتنتقي أجوده.

فالصهيل : الخيل ، والأطيط : الإبل ، والدائس الطعام المدروس ، أو أنه ذو زرع ، والمنق من تنقى الطعام وقيل هو الغربال .

والمعنى أنها كانت قبل زواجها من أبي زرع في عيشة ضنك ، وبعد أن تزوجته صارت في مكان واسع وبين يديها خيل وإبل وزرع وغير ذلك ، وهنا نراها قد قرت بما كان ، ولم تذكرلنا شيئًا نالها من هوان أي لم تقل إن أبا زرع عايرها بفقرها الذي كان ولا بضعف مستوى أهلها المادي ، لم يقل أبو زرع : هل تذكرين يا أم زرع ما كنت عليه من ضيق الحال ، حتى كتبت لك السعادة فتزوجت خير الرجال ، وانتقلت من أسوأ حال إلى أحسن حال ، فسبحان مغير الأحوال !

ولم ينظر إلى جاريته ويقول لها . مَنْ يدري يا جارية لعل لك مستقبلًا كالمستقبل الذي كان ينتظر أم زرع ، ولم ينظر إلى أم زرع عندما تمر الجارية ويقول لها : هل تذكرك هذه بشيء ، ويُعرِّض بها ، فيؤذيها في مشاعرها ، ويذبحها كل يوم وإنما رأيناه قد حلَّاها وزينها ، وأناس - أي حرّك أذنيها بالحليّ - وعظمها ، وأدخل السرور عليها ؛ لأنها زوجته وهي منه ، خلقها الله - تعالى - من نفس واحدة ، لقد جعل أبو زرع من كرامة زوجته كرامة له ، وأكد ذلك لها حسن عشرته فاستشعر العظمة بداخلها .

صحيح هناك مشكلة ، لا يستطيع عاقل أن يتجاوزها وهي أن بعض الزوجات اللاتي كن صغيرات ضئيلات فقيرات إذا نقلت إلى زوج غني ، وزفت إلى بيت كريم تنغص كل ما فيه .

حكى لي بعض الأزواج أنه تزوج من فقيرة ، فلما دخلت عليه تقمصت الشخصية الثرية ، وعربدت ، كأنها قادمة من بيئة أغنى منه ومن عائلته ، قال : كنت أنظر إليها وكان بودي أن أرى نظرة امتنان في عينيها وشكر لله -تعالى - الذي مَنَّ عليها بعيش واسع ، وأخذت تضرب الخادمة وتصرخ في وجه الطباخ ، وتناديه بأسوأ الألقاب ، ومنها «يا حمار» ولا تتصور يا سيدي النتيجة المؤسفة ، لقد تركت البيت وهربت مع صديق لي ، كان من أعز أصدقائي ، ولم أكن أتصور أن يخونني ، ولست أدري كيف نشأت بينهما علاقة . إنني نادم على هذا الاختيار الذي أردت به أن أعيش مع زوجة حامدة شاكرة .

حاولت أن أعرف منه سببًا لهذا السلوك فسد أمامي الطرق ، كنت أتصور أنه أهانها، أو عيّرها بما كانت عليه ونحو ذلك ، لكن الرجل أقسم أن ذلك كله لم يكن ، فقلت هذه امرأة شاذة ، وما أكثر الشذوذ في هذا السياق . ألست ترى الإنسان كما قال ربنا – تعالى – : ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق : آية – 6/ 7] لكن حديث القرآن الكريم عن المؤمن على خلاف حديث القرآن الكريم عن الإنسان ؛ لأن سليمان – عليه السلام – توجه إلى الله بالشكر لما علمه منطق الطير ، ووجد عرش بلقيس مستقرًا عنده ، ونحن نطمع في إصلاح الإنسان حتى يصير مؤمنًا !

مظاهر سعادة الزوجة

قد يتبادر إلى الذهن أن من مظاهر السعادة الزوجية التي حظيت بها أم زرع ومَنْ هن على مثيلاتها أنّ الرجل قد أناس أذنيها بالحلي - والحلي عند المرأة عزيز - وأنه غذاها فقوى عضديها ، وهذا لا بأس به لكن من مظاهر السعادة ما ذكرته بعد ، حيث قالت : « فَعِندَهُ أَقولُ فَلا أُقَبَّحْ ، وَأَرْقُدُ فَأتصَبَّحْ ، وَأَشْرَبُ فَأَتقنح ».

وهذه ثلاثة أشياء من أهم مظاهر السعادة الزوجية :

الأول: أن الزوج لا يقبح الزوجة إذا تكلمت ، ولا يضيق ذرعًا بحديثها ، ولا يسفه رأيها.

والثاني : أن عندها من يكفيها القيام بشئون البيت يخدمها فهي تنال راحتها ، وتنام حتى يصبح النهار ، وتفيق وقتما تشاء .

والثالث : وهي عنده في رزق واسع ، تشرب حتى تُرْوَى ثم تشرب بعد الريّ، وهذا معنى قولها : « وأشرب فأتقنح » وحديثنا هنا عن المظهر الأول ، الذي هو حديث المرأة عند زوجها ، لقد عرفت أم زرع أن عدم تقبيح الزوج لها عندما تقول ، من مكارم الأخلاق، فليس شيء يزعج الإنسان أشد على نفسه من أن يقول شيئًا فيجد «قبحك الله » أو يجد الرد : اسكت اسكت .

تقول إحدى الزوجات إنني زوجة منذ عشرين سنة ، بلغ أولادي ، وصاروا طوالًا عراضًا ، وزوجي يجلس بيننا ، يحدثنا فنسمعه ، ويتحدث إليه أبناؤه ؛ فيسمع ، فإذا هممت بكلام ، وقلت رأيا في شيء قال لي كلمة واحدة :

– من فضلك يا أم فلان ، نقطيني بسكاتك .

والنقطة معروفة ، يعرفها الناس ، وهي ما يدفع للعروس في صباح ليلة عرسها ، هدية لها ، فهذا الزوج يعتبر سكوت زوجته نقطة له ؛ أي هدية ، تقول : ولذا رأيت على لساني كلمة واحدة وهي حاضر حاضر ، لن أتكلم ، سوف أكتم ، وفي بعض الأحيان أجد نفسي مضطرة للمشاركة في الحديث فقد أرى ما لا يرى ، فأقول : خذ كلامي واضرب به عرض الحائط ، إن لم يعجبك .

هنالك يصيح في وجهي ويقول : أأترك لك البيت والدنيا جميعًا وأنصرف ؟

فلا أملك إلّا أن أقول له : حقك عليَّ ، أنا غلطانة ، أنا لم أجد مَنْ يربيني ، مخطئة أنا ، فليسعك بيتك ، وأدخل غرفتي ، وأنام على دمع عيني ، والنار تأكل كبدي ، وأكلم نفسي.

وقد قالت لي زوجة : إن زوجي دائمًا يقول لي : صوتك يثير في نفسي الغضب ، أنت مزعجة ، سكب بذلك القول البغيض في نفسي الحسرة ، وذات مرة دق جرس هاتفي وظهرت على شاشته أرقام غريبة ، فتحت الخط ، قلت لمن يحدثني وأنا لا أدري إن كان رجلًا أو امرأة ، وكنت - والله يشهد - أظن أن أحدًا من أولادي يتصل بي عن طريق السنترال ، ولطاما فعلوا ذلك خصوصًا إذا لم يكن لديهم رصيد ، قلت « آلو آلو ... السلام عليكم » فإذا بصوت يرد عَليّ قائلًا « الله ما أجمل صوتك ... ما هذا الصوت الرقيق العذب ، الذي يشبه نشيد الطير ، وصوت النسيم على أوراق الزهور » قالت : كاد قلبي يطير من الفرح ، وتجاوبت مع مَنْ يحدثني ، وطال بيننا الكلام ، وظل الرجل يهاتفني ، وكان في كل مرة يقول لي أنا مشتاق لشيء واحد فقط ، هو سماع صوتك ، كانت هذه الكلمة تأسرني ، وتشدني إليه ، ومع الأيام طلب إليّ هذا الإنسان أن أقول له في الهاتف كلامًا آخر كأنه زوجي وينام معي على سريري ، في أول الأمر رفضت ، وقلت له : أرجوك ، إن أردت أن يستمر حديثنا معًا فلا تطلب مني ذلك مرة أخرى ؛ فوافقني ، وقال أنا آسف ، فأنا لا أريد أي شيء يمنعني من سماع صوتك عرفت عنه كل شيء ، وعرف عني كل شيء إلّا اسمي ، فقد كنت أكلمه على أنني فلانة ، وهذا ليس اسمي ، وكان يشعر بذلك ، ويقول : أنا أعرف أنه ليس اسمك ، لكن ذلك لا يهمني ، فأنا لا أهتم بالأسماء ، إنما يهمني فقط سماع صوتك ، كأن الرجل كان يعرف سر معاناتي ومشكلة مشكلاتي ، وهي أن زوجي يستقبح صوتي ولا أدري أي شيء جعلني أستجيب لطلبه ، وأجاريه ، وجدت نفسي أنفذ جميع ما يطلب ، وأقول له كل شيء ، وأنا مع ذلك أصلي ، وأقيم الليل وأقومه ، وأقرأ في المصحف ، وأصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وذلك منذ أن أدركت حتى من قبل أن أتزوج ، وجاءت هذه العلاقة الغريبة فكدرت عليّ صفو عبادتي وتلاوتي ، إلا أن الشيطان استطاع أن يوسوس لي بأن عبادتي غير مقبولة ، ولو كانت مقبولة لما فعلت ما أفعل من سوء مع شخص غريب ، فابتعدت شيئًا فشيئًا عن عبادتي وتلاوتي .

والمأساة يا مولانا أن ابني اكتشف هذا الأمر وراح وأبلغ والده ، وقال بكل جرأة لأبيه : هذه امرأة خائنة ، وليست أهلًا لصحبتك ، طلقها يا والدي ، واطردها من هذا البيت ، قتلني ولدي بتلك الكلمات التي قالها لوالده في وجهي ، وأنا أعلم أني مخطئة ، ولو كان زوجي هو الذي اكتشف هذا الأمر وطلقني أو فعل ما فعل ، حتى لو قتلني ولم يخبر أحدًا من أولادي لهان عليّ ذلك ، إنّ النار التي تحرقني وتكاد تقطع في أحشائي وكبدي لا تهدأ ابدًا ، سكت زوجي وما سكتت النار بداخلي ، وكلما حاولت أن آخذ ملابس ولدي لأغسلها يأبى ، ويختطفها من يديّ ، ويقول لي : لا أريدك أن تلمسي ملابسي ، ولا أن تفعلي لي شيئًا ، أنا أخدم نفسي بنفسي . قطعت علاقتي بمهاتفي، وتبت إلى الله - عز وجل - بل إنني رميت شريحة هاتفي في الحمام ، وتخلصت منه ، ودعوت الله أن يريحني بموت عاجل، فلا أطيق الحياة وابني لا يطيق النظر إلى وجهي.

نتأمل كيف أدّى بغض الزوج لصوت زوجته إلى هذه المفسدة ، ولا مسوغ لها أن تفعل ما فعلت ولا عذر لكنها ضعيفة ؛ لأنها بشر ، ولو علم ولدها أنها بشر لما قسا عليها تلك القسوة الجارحة ، فليرحم الولد والدته وليكن عونًا لها على التوبة ، ولينصح أباه برفق كلما أعلن والده أن صوتها مثل صوت الغراب ؛ فذلك عذاب ، والراحمون يرحمهم الله .

امرأة مخدومة

إذا كان الزوج غنيًّا وأتى لزوجته بمن تخدمها فقد قدّم لها عونًا هو في الحقيقة يقدمه لنفسه ؛ لأنه يأتيها بمن تحمل عنها أعباء البيت ، وهناك زوجة ترجو زوجها أن يعينها بخادمة وهو قادر على ذلك فيقول لها :

- وأنت ماذا تفعلين هنا ؟

تقول إحدى الزوجات :

- فهل معنى ذلك أنني خادمة؟!

وتقول أخرى ، إن هذا الرجل لم يكن له ليتزوج أصلًا ، ولم يكن محتاجًا إلى زوجة ، لقد كان محتاجًا إلى خادمة ، لكنه فكر ، ورأى أن الزواج أوفر وأرخص ، لقد جاء بامرأة تقضي له حاجته وتنجب له ولده ، وتقوم بخدمته وذلك مجانًا دون أجر ، هذا بالإضافة إلى ممارسة الرجولة عنده ، فلا تعني الرجولة عنده إلّا السب والضرب واللعن .

إنني أعي ما وراء تلك الكلمات من أسى هو الذي نسخها وصورها ، ولكني أخشى هذا اللون من البيان المدمر ، وأعني بهذا البيان التصوير والتشبيه ؛ حيث تشبه الزوجة نفسها بخادمة مهضومة مظلومة ، تشقى دون أجر أو مقابل ، وقد قالت هذه الزوجة ما قالت لما غاض بها الكيل ، وطمس السيل ، لقد وجدت نفسها في بيت رجل قادر على إسعادها لكنه يأبى أن يأتي بخادمة ، لا لأنه لا يريد عاملًا أجنبيًّا يؤثر في تربية ولده ، لقد سمع أن الخادمة خصوصًا الأجنبية التي تأتي بدين على غير الإسلام في الغالب ولسان أعجمي تؤثر بلا شك في تربية أولاده ، وبعض الرجال يقولون : إنّ الخادمة لص ، يسرق البيت ، ويستشهد على ذلك بما جرى من بعضهن ونشرته الصحف ، ومن الخادمات من قتلن المخدومة أو المخدوم بالاتفاق مع العشيق المجاور ، إثر السرقة أو قبلها ، والقصص لا تتناهى ، وليس معنى ذلك أن كل خادمة كذلك ، ولو أن إنسانًا تفكر في حوادث السيارات وبشاعتها لما ركب أحد سيارة أو في الطيارات وسقوطها لما ركب أحدٌ طيارة ، أو في العبارات وكوارثها وما يصيب الناس من غرق وأهوال لما ركب أحد البحر ، لكنك ترى الناس يركبون السيارات والطيارات والعبارات برغم ما يكون منها من حوادث خطيرة ، وآثار مهلكة ، وليس معنى ذلك أن الأرواح رخيصة ، وإنما معناه أنهم في ضرورة ؛ إذ لاغنى لهم عن ركوب ذلك فعليهم أن يأخذوا حذرهم ، وما يُقضى فسوف يكون .

وقد يؤدي بخل الزوج إلى الحرمان ، وهناك امرأة لا تريد خادمة ، قالت إحداهن : إنّ أبي كانت له علاقة سوء مع الخادمة ، وزوج أختي كانت له علاقة سيئة مع الخادمة ، وجارنا الذي لم يكن عزيزًا ، واستطاعت الخادمة أن تستولي على قلبه ؛ فأحبها ، وتزوجها وطلق امرأته ، ومن أجل ذلك فلن أدخل خادمة بيتي .

ونظرًا إلى تعدد الشكاوي من الخدم فإننا في حاجة إلى بعض بيان ؛ لتتضح الرؤية ، وتنكشف الغمة ؛ فإن الرجل الذي يقيم علاقة مع الخادمة هو ذلك الذي يقيمها مع امرأة أجنبية ، فالذي كانت له علاقة مع السكرتيرة أخو الذي كانت له علاقة مع الخادمة ، وأخوهما الثالث الذي كانت له علاقة مع أجنبية ، ليست خادمة ولا سكرتيرة ، وكل أولئك النفر من الذين لا يشبعون ، أو من الذين هم من المودة والعاطفة محرومون .

لقد قالت القائلة التي عزمت على منع أي خادمة من دخول بيتها : إن جارها تزوج الخادمة وطلق زوجته ، قالت مع أن زوجته جميلة ، وجامعية ، ومن عائلة عظيمة ولا وجه للمقارنة بينها وبين تلك الخادمة التي لا جمال فيها ، ولا أصل لها ، ولا جامعة دخلت ، ولا شيئًا تعلمت ولا لغة أجنبية عرفت .

وكل ذلك الذي ذكرته في زوجة الرجل جميل لو كان له أثر في حياة الزوج وإسعاده، وقد أشرت إلى ذلك المعنى قبل ذلك تحت عنوانه وما اقتضاه ، وبينت أن النبي - ﷺ - لان للناس ، ومثل هذه الزوجة ما لانت لزوجها ، وإنما لانت لجارتها ، فعرفتها الجارة لينة بينما عرفها الزوج قاسية ، وعرفتها الجارة مثقفة ، لكن الزوج لم ير أثر ثقافتها عليه ، فلم تحاوره في هدوء ولا في أدب ولم تعنه في رأي ولا مشورة ، بل إن بعض المثقفات والمثقفين تسمع منهم كلامًا واعيًا راقيًا ، لكنهم في حياتهم ومعاملاتهم على نقيض ذلك ، وليس هناك دليل من الحياة أقوى من ذلك الشاعر الذي ضرب على أوتار قلب المدرِّسة حتى تزوجته فلما عاشت معه وجدته أبعدَ ما يكون عن الشعر وروحه ، وقد تجد الرجل قد تزوج المرأة لنور ثقافتها وعظيم عقلها ، فلما كانت في بيته كانت شخصية أخرى ، وهذا هو الذي أسميه المفارقة بين العلم والعمل ، وهي ضربة عامة أصابتنا في مقتل وجعلتنا نيأس من كل شيء ، فمن يخطب فينا قائلًا إخواني يعاملنا بعد الخطبة على أننا أعداؤه ، ومن يعرض علينا برنامجًا في مواسم الانتخابات لو فكرنا فيه لرأينا الحياة جداولَ وظلالًا وأمنًا وأمانًا ، قال كل مرشح : سوف

أحارب الفساد وما رأينا حربًا للفساد ، وقال : سوف أحارب البطالة ، والبطالة في كل يوم تزداد ، وقال : سوف أهتم بالتعليم والصحة و... و... إلى غير ذلك ، وكأن عنده الأمل ، وعلى يديه تتحقق المنى وما رأى الناس ذلك.

وفي محيط الأسرة يقول الخاطب : سوف أجعلها أسعد زوجة في الدنيا ، فلما تزوجها ما وجدت إلى جواره سعادة وما عاشت معه حياة كريمة ، وكم قالت له : سوف تعيش معي ملكًا متوجًا ، تفطر على السرير ، وتلبس بيدي ، وتعود إلى الشموع والليالي الدافئة ، فلما تزوجها خرج إلى عمله صائمًا ، وأفطر على عربة الفول في الشارع وعاد إلى الدموع لا إلى الشموع ، وإلى بيت كأنه في القبور لا إلى الزهور ، فالحياة مع تلك المفارقة بين العلم والعمل . وعود بارقة ، وكلمات معسولة تختفي وراءها نيات الخُلْف ومرارة الواقع .

وقد كان للنبي - ﷺ - خدم ، وكان لذلك المعنى الجميل أثره في حياة الأمة من توجيه بالرفق بهم وألا نكلفهم ما لا يطيقون ، وحديثنا عن الأسوياء الذين لا يعرفون سوء العلاقات مع الخادمات ، والذي تزوج الخادمة إنما تزوج امرأة وجد فيها ما لم يجده عند مخدومتها ، أو خدعته الخادمة ، ولكن ذلك ليس مسوغًا للابتعاد عن طريق من طرق الإسعاد .

امرأة ريانة

ومن مظاهر السعادة الزوجية أن تشبع المرأة في بيت زوجها سيما إذا كان غنيًّا موسعًا عليه ، لقول الله - تعالى - : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق : آية - 7] .

عرفت رجلًا ينتمي إلى أهل العلم ، وبينما نحن في مجلس علم نتجاذب أطرافه ، والحديث في العلم ذو شجون ، وبُعيد انتهاء الجلسة قال أحد الحضور له :

- لماذا تعزف عن الزواج يا فلان ؟

فقال :

« لأنني لو رأيت امرأتي تأكل طعامي فسوف أموت » .

والله يشهد أن هذه عبارته بحرفها ومعناها ، وأذكر أن جميع الحضور بلا استثناء ردوا في نفس واحد قائلين :

- لا إله إلّا الله .

وقال بعضهم بعد ذلك :

- أعوذ بالله ، يا أخي ألست رجلًا عالمًا ، يقول إن المرأة تأتي إلى زوجها برزقها؟!

وقد عرفت هذا الرجل بخيلًا ، ولو عاصره الجاحظ لدوَّن فيه صفحات طويلة من كتابه البخلاء ، كان برغم اتساع دخله لا يأكل إلا رغيفين في اليوم والليلة مع قطعة جبن يصنع بها ما صنعه بخيل الجاحظ ، يمرر عليها اللقمة فتشم رائحتها من بعيد ، وإذا اشتد به الجوع شرب شايا وزاد كما قال من السكر ، يستمد منه طاقته ، وهو مع ذلك يلتهم اللحم التهامًا والفاكهة وغيرها عند الناس إذا دعوه أو دعا نفسه مع المدعوين ، ولكن أن يشتري هو لحمًا أو فاكهة أو غير ذلك فمن المستحيل عنده .

إذا قلنا إن هذا أنموذج شاذ ، لا يقاس عليه فإن في الناس من لا يقع من طوله ميتًا إذا وجد امرأته تأكل وإنما يسعى هو في قتلها معنويًّا بإلقاء الكلمات القاسية الجارحة التي منها :

- ليس وراءكِ إلّا الأكل مع أن وراءها أعمال المنزل ، فهي تطبخ وتغسل وتنشر وتجمع وتكوي وتكنس ، وناهيك بتفاصيل ذلك وما يتلوها من مشقة وعناء ، ووراءها تنفيذ مطالبه فضلًا عن أوامره ، ووراءها تربية الأولاد ، ومجاملة أهله ، وإسعادهم ، وراءها أشياء كثيرة ، لكنه يقول ظالمًا : ليس وراءك إلّا الطعام والشراب .

إنها اللغة السيئة التي تقف أثقل من الحجر في الحلق ، فلا يستسيغ اللقمة يبتلعها ، فضلًا عن هضمها والإفادة منه . والمسلم بصفة عامة عذب كلامه خصوصًا كلامه مع أهله

ورحم الله أبا حمزة السُّكري الحافظ الإمام الحجة محمد بن ميمون المرزوي ، عالم مَرو ، لم يكن أبو حمزة يلقب بالسكري نسبة إلى السكر الذي يبيعه ، وإنما لقب بذلك لأنه كان حلو المنطق ، قال الذهبي : « ولم يكن يبيع السكر ، وإنما سمي السكري لحلاوة كلامه »[1] .

ومن عجيب خبر هذا الرجل - رحمه الله -أنه كان إذا مرض جار له تصدق بمثل نفقة المريض ؛ لما صرف عنه من العلة ، وهو الذي باع جاره داره ، فقال له المشتري : بكم تبيع دارك ؟ فقال جار أبي حمزة : بألفين للدار وبألفين لجوار أبي حمزة ، فبلغ ذلك أبا حمزة فوجه إليه بأربعة آلاف ، وقال له : لا تبع دارك ، ومات - رحمه الله - سنة 167هـ (سنة سبع وستين ومائة من الهجرة النبوية) ومن جميل خبره - رحمه الله أنه كان مستجاب الدعوة[2] .

وما من شك في أنّ كل مسلم يود أن يكون مستجاب الدعوة ، فهل لنا أن نتعلم من خبر أبي حمزة السكري أن من أسرار استجابة الله - عز وجل - دعاءه أنه كان كلامه سكرًا، وليس من شك في أنَّ مثل هذا الكلام المسمم للنفس والبدن ليس من السكر في شيء .

إن أم زرع عندما قالت : « وأشرب فأتقنَّح » أرادت أن تقول لنا إنها في سعة من العيش الرغد ، فهي تشرب حتى تُروى ، ثم تشرب من بعد الري ، فلم يقل لها أبو زرع :

ليس وراءك إلّا الشرب ، ولم يقل لها :

- كفى كفى ، كما يقول كثير من الناس ولو على سبيل المزاح لقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه كان يمزح ، لكن لا يقول إلا حقًّا ، فهل من الحق أن يقول قائل ، ولو على سبيل المزاح لمن يأكل :

كفى كفى .

(1) سير أعلام النبلاء 7/ 277.

(2) المصدر السابق 7/ 287.

قال زوج لزوجته وكانت ما زالت في شهر العسل كما يقولون :

- مالك تأكلين هكذا بشراهة وكأنك ما أكلت عمرك ، والله إني لأشعر أنك سوف تأكليني ، فإذا ببطنها تثور وتضطرب معدتها ، وتستفرغ ما في بطنها ، ومع اعتذاره ، وقوله : إني أمزح وأمزح وأمزح لم يتمكن من استرداد ضحكتها وابتسامتها ، ولم يقدر على علاجها ومع مرور الأيام والأعوام ظلت المرأة تذكر هذه العبارة ولم ينس هو طول هذه الأعوام ، أنها كانت تأكل على استحياء وتنظر إليه واللقمة في يدها قبل أن تضعها في فمها وكأنها تنتظر أن يقول لها هذه العبارة ، وكان يفهم ذلك ويقول (خلاص خلاص .. انسي انسي) .

وكما يقول الرجل ذلك لزوجته يقول ذلك لولده ولابنته والبنت بالذات لها خصوصية ؛ حيث إنها أخت الحياء وبنت الخفر ، وأقل كلمة تؤذيها وبالذات الكلمة التي تتصل بالبطن ، وربما وجدت بعض الأمهات أن قولها لابنتها يا مفجوعة إنما ذلك مستساغ لأنها امرأة مثلها ، وذلك عكس الصواب ، فإنَّ القول المؤذي مؤذ ؛ سواء صدر عن رجل أو امرأة ، وظلم ذوي القربى أشد من وقع الحسام المهند .

إن الرجل الكريم هو الذي يسعده أن ينال أهلَه خيرُه ، وأن يأكلوا طعامه وزاده ، وأن يشربوا العذب من شرابه حتى تطيب لهم الحياة في ظلاله .

أمُّ الزوج

الحديث عن أم الزوج حديث طويل ، ولعل قارئة هذا المبحث شغوفة متلهفة ، تود أن تقرأ فيه صورة (حماتها) فكم لأم الزوج من دور في تنغيص الحياة بين الزوجين ، وكم لها من يد في إبعاد القريب وقلب الموازين ، فهناك حماوات مؤذيات ، عدوات في ثياب حبيبات ، وموجعات في هيئة مقبلات ومصافحات ، منهن مَنْ تهجر بيتها ، ولا يروق لها العيش إلّا في بيت ابنها ، ولا لكي تحظى ببره وعطفه ورعايته ، وإنما من أجل تنغيص عيش زوجته ومنهن الشواذ اللاتي يقلن لأولادهن : نم مع زوجتك مرة كل شهر ،

وخف على صحتك ، وفيهن من سمعت ولدها يقول لزوجته : يا حبيبتي . فقالت له : كل ذلك لها ، فماذا أبقيت لأمك ؟

فلما قال لها :

- أنتِ ست الكل .

قالت : أنت ولد نصاب .

- كيف يا أمي :

- هكذا .

- والله أنتِ حبيبتي .

- إن كنت صادقًا فاهجرها ، وتعال نم إلى جواري .

ومنهن من قالت لولدها :

- هل أنستك أمك ؟ هل طبخت لك طبخًا ألذ من طبخ أمك ؟

ومنهن من تقول بصراحة دون إشارة :

- منها لحاكم عادل زوجة ابني ، لقد أخذته منِّي .

ومنهن اللاتي يدعين المرض بحجة صرف ابنها عن زوجته .

ومنهن المتيمات بمعرفة تفاصيل التفاصيل عن العلاقة بين ابنها وزوجته .

ومنهن من تزعم أن زوجة ابنها إنما جاءت خادمة لها ولبناتها .

ومنهن من تنصب نفسها رجلًا إذا غاب ابنها في سفر من أجل تحسين أحواله ، ويا ليتها كانت رجلًا عادلًا رحيمًا ، وإنما تنصب نفسها سجانًا وقاضيًا ظالمًا .

فماذا قالت أم زرع في حماتها التي هي أم زوجها أبي زرع ؟

قالت : « أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ » .

وقد تبدو الألفاظ صعبة ، ومن ثم في حاجة إلى شرح وتوضيح فالعكوم جمع عكْم بكسر العين وسكون الكاف ومعناها الأحمال التي توضع فيها الأمتعة ، والرداح : الثقيلة الملأى ؛ أي أن هذه المرأة : خيرها كثير ، وبيتها فساح ، معناه : بيتها واسع .

وهذا الوصف لحماتها إنما هو امتداد لحقيقة الوصف لزوجها فما نالت عند زوجها إلّا لأن حماتها كثيرة الخير ، واسعة البيت ، سواء أكان ذلك عن غنى منها ، ورثته عنهما ، أم كان ذلك من بر أبي زرع بأمه ، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر[1] - رحمه الله - .

وما أطيب أن يكون الولد بارًّا بأبويه ، يكرمهما ويوسع عليهما مما وسع الله - تعالى - به عليه على أن يكون ذلك أيضًا مع زوجته ؛ أي يوسع عليهما ليس على حساب زوجته وولده.

والحكم الشرعي في تلك القضية أن النفقة نفقة الولد على والديه واجبة إذا كانا محتاجين ، أما إذا كانا في سعة من العيش فليس واجبًا عليه الإنفاق عليهما ، إنما يصلهما ويبرهما ويعطف عليهما ، أما النفقة على زوجته فواجبة وإن كانت أغنى منه ، وأقول : ليس على حساب زوجته وولده لأن بعض الناس يظنون أن رضا الله - عز وجل - في رضا الوالدين وإن ماتت زوجته جوعًا وأولاده وإن احتاجوا ، قال أحد الشباب لزوجته التي قالت له : إن والدتك غنية ونحن محتاجون ، وهي ليست في حاجة إلى كل ما تشتريه لها من زيت وسكر وشاي وصابون ولحوم ودجاج ، إن ثلاجتنا فارغة ، والولد يحتاج إلى حمامة ، هات له حمامة واحدة من فضلك ، يشتهيها من يوم رآها عند خاله ، فقال لها صائحًا : إن الجنة تحت قدم أمي وأنا أحذرك ، لن أشتري حمامة ولا يمامة وإن مات الولد، أمي ، ثم أمي ، ثم أمي ، واحذري أن تقولي كلمة واحدة في هذا الموضوع ، انتهى .

نعم ، الجنة تحت قدم أمك ، ليس معنى ذلك أن تهمل في أداء ما عليك تجاه زوجك وولدك ، وإن بعض الناس يفهمون الدين من نص واحد ، يزعمون أن الأم إذا رضيت فقد فاز الولد وإن كان ظالمًا زوجته وولده ، مسيئًا إلى الدنيا جميعًا ، وهذا ليس صوابًا .

(1) فتح الباري 9/ 178.

إن معنى ذلك أنك لو فعلت كل جميل وأسأت إلى والديك فما أصلحت عملك ، فلتكمل صلاحك ببرك لوالديك ، وليس معناه أن برك والديك منجاة لك من هلاك ؛ لأنك مسئول عن الإحسان في كل شيء ، فاحرص على أن تعطي لكل ذي حق حقه .

لقد وَسِعَ أمَّ أبي زرع بيتُها ، فلم تطارد أم زرع في بيتها ، ولم تضيق عليها عيشها ، فما أسعدها بحماة من هذا النوع النادر .

وأذكر أن شابة من مدينة مصرية اتصلت بي وقالت إن حماتها تقيم إقامة شبه دائمة في بيتها ، وتنام على سريري وتأمرني كل صباح أن أنزل إلى السوق وأشتري ما تريده هي من الخضر والفاكهة ، وتنكد عليَّ عيشي وتؤرقني ، وأضطر إلى النوم مع زوجي في حجرة أطفالنا ، وإذا قلت لزوجي شيئًا سمعته وكأنها قد علقت في ملابسنا أجهزة تصنت والدليل على ذلك أن كلامنا يكاد يكون همسًا ، وفجأة أسمعها تقول :

– لا ، ليس هذا برأي حسن ، افعلا كذا كذا .

فأقول : يا ساتر يا رب ، أمك تسمعنا ، والله إني لا أكاد أسمعك ، وإنما ذكرت هذه الشكوى لأني سألتها سؤالًا خطر ببالي : هل زوجها موجود حي ؟ فقالت : نعم قلت : وأين حقه عليها ؟ فيا عجبًا لتلك الحماة أنها نسيت أنها لم تزل زوجة وعليها حقوق لزوجها .

وما زال الكلام في الحماة

– يا حماتي ، يا حياتي ، ماذا تريدين مني ؟

– أنت بنت سيئة الأدب .

– وما أمارة ذلك يا غالية ؟

– قولي لي : يا ماما ، ولا تقولي : يا حماتي .

– يا ماما ، يا حبيبتي ، ماذا تريدين مني ؟

– اعلمي أن الكلمة في هذا البيت كلمتي ، وأن الشورى شورتي ، وأنه بوسعي أن آمر ولدي بأن يطلقك .

– هكذا ، بسهولة ؟!

– هل تحبين المعاينة ؟ هل تودين أن تتفرجي ؟

هذا جانب من حوار بين حماة وزوجة ابنها ، والشاهد فيه أنها تزعم أن الكلمة كلمتها ، وأن الرأي رأيها ، وأنها بمقدروها أن تأمر ابنها بأن يطلق زوجته ، فهي إن فعلت ذلك نفذ الأمر دون روية ، وأطلق الكلمة الصعبة من فمه طرية . فهل ذلك صحيح ؟

إن الكلام في هذه القضية من وجهين :

الأول : وجه التهديد بالتطليق .

أنا أفهم أن التهديد والوعيد يكون بالعذاب لمن يسيء ، فهل يعد الطلاق من قبيل التهديد ؟ بأي شيء يهدد الزوج زوجته ؟ هل يهددها بالطلاق مع قول الله –عز وجل– : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء : 130] . إن الطلاق شرع الله كما أن الزواج شرعه ، فهل يهدد الشرع الشرع ؟

ثم إن الذي يهدد بالطلاق امرأته إنما هو الرجل الكريم الذي تعيش معه المرأة في بيت واسع وفي نعم أوسع ، وفي خلق أوسع ؛ بحيث لو فارقته لتبعته نفسها ، كما قال رجل في امرأة كانت تسيء إلى ولد له من امرأة أخرى ، قال حين نصح له بأن يفارقها ما دام ينصح لها أن تحسن معاملة ولده وهي لا تستجيب ، قال : أخشى أن أطلقها فتتبعها نفسي ، إلى هذا الحد كان الحب ، لو فارقته لفارقته نفسه بعدها ؛ فهو معلق بها إلى هذا الحد الذي عبر عنه بقوله « فتتبعها نفسي » .

فهناك رجل يطلق امرأته فيطلق معها نفسه ، ويندم ندم الفرزدق لما طلق زوجته نوار ، فقال :

نَـدِمْتُ نَدامـةَ الكُسَـعِيِّ لَـمَّا ... غَـدتْ مِنِّـي مُطَلَّقَـةً نُـوارُ

فَكنـتُ كَفَـاقِئٍ عَينيـهِ عَمـدًا ... فَأَصْبحَ لَا يُضِـيءُ لَـهُ النَّهـارُ

وَكَانَـتْ جَنَّتـي فَخَرجـتُ مِنْها ... كـآدمَ حِـينَ أخْرجـهُ الضِّـرارُ

نعم مثل ذلك إن طلق زوجته تبعتها نفسه ، وهناك رجل يطلق زوجته فيسترد إثر طلاقها نفسَه ، وكذلك هناك امرأة تطلق من زوجها فتتبعه نفسها ، وهناك امرأة تطلق من زوجها فتسترد إثر طلاقها منه نفسها .

إن الذي يهدد زوجته بالطلاق رجل يعلم وتعلم امرأته أنها إن فارقته فلن تعيش يومًا من أيامها معه كما قال الشاعر :

رُبَّ يَـومٍ بَكيـتُ مِنْـهُ فَلَمَّـا ... صِرْتُ في غَـيرِهِ بَكَيـتُ عَلَيـهِ

وهذا التهديد يكون بغية إصلاحها وتهذيبها ، وحرصًا عليها حتى تبقى في ذمته على الخلق الذي يرضاه منها ، فهو يهددها بالفراق إن أصرت على البغي والظلم ومخاطبة الأجانب والتساهل في مخاطبتهم بحيث يخشى جرأة بعضهم عليها وهو على دينه وعرضه يغار ، وهي تحدثها نفسها بأنه على صواب فليس من التهديد أن يعلق طلاقها على كلامها مع أمها أو زيارتها ونحو ذلك ، فهذا ظلم بيِّن .

أما الذي يسيء إلى زوجته ويخاطبها بما ذكره مازحًا أو جادًّا وهو معها بخيل ، ضيق عليها من بعد سعة ، وعذبها من بعد نعيم ، وأشقاها من بعد سعادة فإن هددها بطلاق كان كمن يقول لها : اسعدي فقد جاءك الفرج ، ومن ثم نرى كثيرات من الزوجات بمجرد أن يقول لها : إن خرجت فأنت طالق تخرج ، وإن كلمت أختك فأنت طالق تسرع فتكلمها كأنها كانت تنتظر ذلك حتى تخلص مما هي فيه من زواج كئيب.

والوجه الثاني : هل الطلاق بيد الحماة ؟

ذلك عبث من القول ، وسوء من الفكر ؛ لأن الرجل هو الذي يملك العقدة ، ولا تملك العقدة أمه ولا أبوه ولا أخوه ، وما دام هو رجلًا فلن يستجيب لإنسان بأمره أن يطلق امرأته .

ولا يقيس أحد حاله على حال خليل الله إبراهيم – عليه السلام – حيث قال لزوجته : قولي لزوجك زارنا اليوم شيخ صفته كذا وكذا وهو يقول لك : غير عتبة بابك ، ولا بأبي بكر حين أمر ولده عبد الله أن يطلق زوجته عاتكة بنت زيد لأن خليل الله إبراهيم – عليه السلام – قد رأى من قبل أن يذبح ولده في منامه فصدق الرؤيا ؛ لأنها وحي ، وحين أمره أن يغير عتبة بابه أي يطلق زوجته فطلقها إنما كان ذلك لأنها لا تصلح له بحق لا ادعاء ، والخصوصية تكون للأنبياء ، وأما الصديق – رضي الله عنه – فقد رأى أن ولده تزوج بامرأة حسناء خشي عليه أن تصرفه عن الجهاد وعن الجماعة ، فلما طلقها وتبعتها نفسه سمح له أن يراجعها على ألا تكون عائقًا يحول بينه وبين طاعة ربه .

فهل في الناس أب كأبي بكر ، وأم على هذا النحو من الهدى ، والأمر من أجل التقى؟ وهل قال أبو بكر – رضي الله عنه – لعاتكة : اعلمي أن الكلمة في البيت كلمتي ، وأني إذا قلت لعبد الله ابني طلق هذه فسوف يطلقك ، إن كل ذلك لم يكن ، ومثل هذه الحماة التي تهدد زوجة ابنها بطلاقها إنما تريد أن تسقط عليها أمراضًا نفسية ، وأن تظهر لها معنى الاستبداد والبيروقراطية والمذاهب التعسفية ، وعلى ولدها أن يتقي الله فيها وفي زوجته ، فلكل منها حق عليه لكن لن يكون لأمه سلطان عليه وهي ظالمة ، فقد قال النبي – ﷺ – : « إنما الطاعة في المعروف » .

حماة هي والأم سواء

قالت وهي صادقة : عزَّ عليَّ ما رأيته من حال حماتي –أدركت أننا سكنا بعيدًا عنها ، أشعر بأن تغيير العادة صعب ، وما أصعب العادات التي تتعلق بالولد ، وكانت لي أخت

طُلقت وهي حامل وكان مطلقها رجلًا قاسيًا ، ولدت فلم يسأل ، ولم يطلب حتى رؤية ولده ، اتصلنا به وأخبرناه بأن اسمه سوف يكون على اسم جده الذي هو والد الولد فقال سموه « زفتًا » أو « قطرانًا » .

وعندما بلغ الولد السادسة من عمره أرادت أختي أن تتزوج فاستطاع هو أن يضم الولد إليه ، وظلت أختي من بعده تعيش بلا قلب مع أنها كانت تراه ، كان كلما أتى إلينا قبلت يديه ورجليه ، وبكت بكاءً مرًا ، كنت أطلق على ذلك « حمَّام الدمع » لأن أختي كانت تغسل وجه ابنها بدمع عينها ، وبعد أن يمضي إلى والده كنت أسمع لها عويلًا ونحيبًا يقطع القلوب الطائرة فضلًا عن المؤمنة .

لم تغب هذه الصورة من عندي ، ولم تزحزحها الليالي عن عيني ، وأدركت أن حماتي مثل أختي ، وإن كان ابنها رجلًا كبيرًا ، وقد استمعت إليك وأنت تقول إن (بُنَيَّ) تصغير (ابن) وفائدة هذا التصغير بيان صورة الابن عند والدته وأنها يريانه صغيرًا وإن كبر ، فهو ما زال في حاجة إلى عطفها ورعايتها أبدًا ، فهو بالنسبة إلى أمه « بُنَيَّ » وسوف يظل بُنيًا ، وإن كان بالنسبة إليّ زوجًا ورجلًا ملء ملابسه .

أخذت عهدًا على نفسي ، بيني وبين نفسي أن أزيده قربًا بأمه ، والحمد الله ، كنا قريبين منها – وكانت تسكن مع ابنتها أخت زوجي ، وكان كلما دخل عليَّ بشيء أقول له :

– لن تطيب هذه اللقمة إلّا مع أمك وأختك ، وأسرع معه إليها ، وجدتها تهلل وتبرق ملامحها بآيات السرور وأقول : إني على رغبة أن أبيت الليلة هنا ، كانت تعد لنا الحجرة بنفسها وهي تقول : يا مرحبًا يا مرحبًا وأقسمت بالله أني جعلت لهم حسًّا وملأت البيت عليهم سرورًا .

كنت أناديها يا ماما ، فكانت تقول ما أعذب هذه الكلمة في فمك وما أنداها على لسانك ، إني أحب أن أسمعها منك ، وحين رزقني الله بأول مولود أقسمت أن ألد في بيتها، وقد كان ، وحين قالت : ما الاسم الذي تحبين أن تسمي به ولدك فقلت : لا ،

الاختيار لك ، فأحبت أن تسميه على اسم زوجها والد زوجي – يرحمه الله – ، فقلت : كان ذلك على لساني ، ونشأ ولدي بيننا ، كنت أوجهه أن يقبل يدها ، وكانت حين تسمعني أقول له : قبل يد ستك تقول :

– الله يبارك لك فيه .

وأنا أهتف من عمق قلبي : آمين .

بادلتني حبًّا واحترامًا باحترام ، وأحمد الله على أن تلك العلاقة أثمرت مزيد احترام من زوجي لي ، فعشت سعيدة برغم ما كان بيني وبين زوجي من قضايا كنا فيها نختلف كسائر الأزواج ، لكني كنت راضية بها حكمًا ، وكانت منصفة ، مع الحق أينما سارت ركابه ، معي مرة أو ضدي مرة لكنها وهي ضدي كانت رقيقة ، توضح لي الأمر ، وتكشف لي الغامض ، وكنت أقتنع برأيها ، وينشرح بفضل الله صدري لتوجيهها .

هذه حماة هي والأم سواء ، وليست هذه القصة إلّا أحد عنصرين هما أساس هذا الأمل المنشود أن تكون الحماة هي والأم سواء ، أما العنصر الثاني فيتعلق بالحماة نفسها ؛ إذْ مطلوب منها أن تلقى زوجة ابنها بما تلقى به الأم ابنتها ، فكما أنها رفيقة بها كذلك ينبغي أن تكون رفيقة بزوجة ابنها ، وكما أنها تحفظ سر ابنتها ينبغي كذلك أن تحفظ سر زوجة ابنها ، تمامًا بتمام .

لأن بعض الحماوات تطير فرحًا إذا عرفت نقيصة في زوجة ولدها ، تذيعها ، وتنشرها ، وتجعلها محور حديث بينها وبين أختها وجارتها ، فلانة فيها وفيها وقالت وقالت وفعلت وفعلت ، مما يسبب الإساءة إليها وتحقيق النيل من كرامتها ويسد الطريق إلى قلبها واستثمار وجودها في حياة الأسرة برمتها ، فإنها لبنة بلا شك في بناء هذه الأسرة ، وقد يتحقق منها النفع لجميع أفرادها .

ألست ترى الرجل يقول : « ربتني زوجة أخي » إذا دخلت عليهم وهو صغير ، أو كانت أمه قد ماتت ، وقد ترضعه ، فيصير ابنًا لها بالرضاعة بالإضافة إلى كونه أخا زوجها .

وقد يأتيها من الخير ما يشمل جميع أفراد الأسرة من ميراث تواسيهم ببعضه ، أو من صنع يديها ؛ فلطالما طبخت وأكلوا جميعًا ، ولطالما غسلت ولبسوا ، ولطالما تعبت فاستراحوا جميعًا .

وهي في أول الأمر وخاتمته إنسان ، والإنسان له وجدان إن عرفت سره ، فقد ملكت الإنسان برمته .

الريق الحلو

وكم قالت زوجات الأولاد ، إنني أعمل كذا وكذا وأبذل من الجهد ما لا تبذله غيري ، وأعطي جميع أهله عينيّ ، أبيع ذهبي وما أملك ، وأكون تحت أرجل الجميع ولا أطلب منهم شيئًا إلّا أن يعطوني ريقًا حلوًا ، فقط لا أريد غير هذا .

والمراد بالريق الحلو الكلمة الطيبة ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم : 24، 25] .

فلتتأمل كل حماة تُسَلِّطُ لسانها على زوجة ابنها قول الله – تعالى – : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ إن أرادت أن تجني ثمرة في كل وقت فلتعط زوجة ابنها هذا الرقيق الحلو ؛ فإن نقطة من العسل تجمع الفراشات الكثيرة ، أما بحار المر فعاجزة عن نداء فراشة واحدة !

امرأة ابن ظالمة

وكما أنّ هناك زوجة ابن ، تفكرت في حماتها من خلال قصة حدثت في بيتها قبل زواجها ، حيث رأت أختها حين أخذ منها ولدها كانت كالعجول التي قالت فيها النساء الشاعرة :

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذا ادَّكَرَتْ فَــإِنَّما هِــيَ إِقْبَــالٌ وَإِدْبَــارُ

أي كالناقة التي أخذوا منها فصيلتها وصنعوا لها بوًّا هو عبارة عن هيئة تشبه هيئة ولدها محشوة بالليف ونحوه يوضع أمامها ليوهموها أنه ابنها حتى يحلبوا لبنها ، مع ذلك فهي ترتع ما شاء الله لها أن ترتع في المرعى ، تتقلب في أسباب الحياة برهة سريعة من الزمن ، حتى إذا ذكرت ولدها الفصيل لم تكن إثر الذكرى إلّا شيئًا يقبل ويدبر ، وإذا كان العلماء يقولون في قول الشاعرة :

فَإِنَّما هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبارُ

إن التقدير : ذات إقبال وإدبار فإنني أقول : إنها ليست ذات إقبال وإدبار ، وإنما هي شيء إن كان لا بد أن تسميه فإن اسمه « إقبال وإدبار » لقد تنوسي اسمها إذْ فقد معناها ، حيث طار لُبّها ، وضاع قلبه ، فصارت شيئًا آخر كأنها الخيال وإن كنت تحسبها ما زالت ناقة أمام عينيك ، فإن قلت كما يقول الطفل الذي لم يبلغ رشده : والله إنها ناقة ، فما زدت على معنى معرفتك الفرق بين البقرة والجاموسة والحمار والكلب والقلم أي إنك تعرف الفرق بين الأشياء من حيث الشكل نعم هذا شكلها ، وذاك رسمها رسم ناقة ، ولكن كما قلت لك : إنها شيء لم يعد فيه غير رسمه ، والمعاني التي ترحل عن بنيانها اللفظي أشبه ما تكون بالمباني التي رحل عنها ساكنوها ، فإن قلت : هذه بيوت فقد قلت ذلك من باب الفرق بين البيت والبحر ، لكن إذا أردت النَّصَفَ والعدل قلت : ذاك طلل أو هذا قبر ، فقيمة البيت بسكانه وليست قيمته بجدرانه ؛ ولذا قال الفقهاء

في باب الإجارة إن رجلًا لو أجر دارًا من رجل ، فأسكن الرجل فيه معه غيره فانهدم من سكنى غيره لم يضمن ؛ لأنه غير متعد فيما صنع ، وكثرة الساكنين في الدار لا توهن البناء ، ولكنها تزيد في عمارة الدار [1] .

فما بالنا إذا كانت الدار خالية تمامًا من أي ساكن ، إنها بلا شك خربة وإن بدت أمام عينيك قصرًا مشيدًا ذا حديقة غناء ، وما غناء ؟ على حد تعبير أم زرع ؛ إنها صحراء موحشة، وضياع لمن دخلها ، فقد يرى فيها العنكبوت ، قد نسجت بيتها داخلها واستقرت وأشارت بذلك إلى العدم والفناء إن يجد بها ما وجده الأول من الدواب والحشرات .

وهذا المعنى قد شعر به الأول ، حيث قال :

بِهَا الْعِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَهُ ... وَأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا ... أَلا انْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

والجنة التي خلق الله - عز وجل - ليس بعد بنائها بناء ، وليس بعد روعتها وعظيم ما فيها من روعة ، ومع ذلك قال - عز وجل - : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : آية - 35].

وقال العَوَام من قديم : إن الجنة بلا زوج لا تسكن فإذا كانت تلك الفتاة قد قالت ما قالت فليس كل فتاة تقول مثلها ، فهناك من ترى ولا ترى ، ومن تبكي ولا تبكي ، إنما هي دمعة سالت ، ونبرة خرجت ، وصوت خرج كصوت السقط ، الذي نطق في وجه الحياة بصوت ثم غشيه الموت ، وطواه النسيان .

(1) المبسوط في الفقه للسرخسي 15/ 165.

فهذه امرأة عجوز ، كان لها ولد وحيد ، وزوَّجته ويوم أن وفقت في زواجه كانت تحلم بأن ترى زوجة ابنها قد صارت بنتًا لها ، مريضة كانت في حاجة إلى مَنْ يعينها وقد قالت كلمة قطعت أكباد من سمعها ، حين قالت :

- قد تكون هذه البنت رزقها واسع ، فيرزقنا الله - عز وجل - برزقها .

أي إنها كانت ذات عشم في أن تعطف عليها وتبرها فلما انتقلت إليها وجدتها بنتًا شكلًا ، لكن بصدرها فحمة سوداء ، يقال إنها القلب ، وهذا السواد قد صعد من أحشائها إلى سائر أعضائها وجوارحها فأبت أن تناولها حتى الدواء ، وكانت تكيد لها كثيرًا ، وتمكر بها مكرًا ، فإذا دخل عليها زوجها بكت وولولت ، وقالت يا سوء حظي دون النساء ، لقد فعلت أمك وفعلت وآذت وسبت وشتمت ، وسخرت ، وأخيرًا جعلت نفسها في كفة وأمه في كفة ، فلما تحركت أحشاؤها بجنين لم تره ، ولم يكن العلم قد وصل بَعدُ إلى (السونار) قالت : ببطني ولي عهدك ، فاختر بيننا ، نحن اثنان وأمك واحدة، فاختار الاثنين ، فلما وضعتها قالت : إنها أنثى ، أنا أعرف حظي ، لكنها عزيزة غالية ، أليس كذلك ، غدًا تقول لك أمك تزوج من جديد من أجل الولد ، كدرت صفوه مثلما كدرت صفو أمه وصدق الرسول الكريم - ﷺ - إذ يقول: «أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه ، ألا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

من أسرار البغض بين المرأتين

بعيدًا عن الأمراض النفسية والحالات الشاذة ، التي لا تشكل خطرًا ولا يقاس عليها ، أود أن أكشف اللثام عن السر الذي قد يكون وراء ذلك السواد الذي يبين الحماة وزوجة ابنها ، وذلك يكمن في أنَّ هناك علاقة سيئة بين الزوجة وزوجها وعلاقة سيئة بين

(1) رواه النسائي.

الولد وأمه ، ونتيجة هذا السوء تنعكس على الطرف الآخر ، فسوء العلاقة بين المرأة وزوجها تدفع بها إلى بغض مَنْ يتصل به ، وأول هؤلاء أمه .

قالت : إن أبي زوجني مرغمة ، فرض عليّ زوجي هذا وبعد حين خصوصًا بعد الحمل لم تعد عندي مشكلة مع زوجي إنما المشكلة في أمه ، العلاقة بيننا سيئة إلى أقصى درجة ، ومنذ مدة طردني زوجي بسببها ، إننا نقيم في منزل واحد ، هو منزل أبيه ، وأبوه متوفّى ، وهي تقيم ومعها ابنتها وهي مطلقة ، وحياتها حرب ضدي ، وكنت أعتذر لها في كل مرة عن أي شيء بدر مني توهمت من خلاله أنني أسأت إليها ، ومع ذلك فهي لا تقبل لي كلمة فضلًا عن الاعتذار ، ولا أدري ماذا أفعل لكي ترضى عني هذه العجوز الشريرة ؛ إنّ بأحشائي جنينًا ، أخشى عليه أن يولد في هذا الجو من العراك المستمر .

وأقول لها ، ولمثلها : إن القضية تمثلت في قولك (أرغمني أبي) نعم ، إن بداخلك رفضًا لهذا الزوج وإن ادعيت أنك بعدُ رضيت عما صنع أبوك ، وقد جاءت فتاة إلى النبي - ﷺ - وقالت له : إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ، فلما همّ النبي - ﷺ - بفسخ عقدها قالت : رضيت بما صنع أبي يا رسول الله ، لكني أتيت وقد أردت أن أعلن أن ليس على النساء سبيل للرجال في هذا الشأن يعني أن المرأة لا تكره على الزواج .

لكن هناك فرقًا بين امرأة ترضى بما صنعه أبوها ، ولا تسقط الغضب على الحياة مع زوجها ، ومَنْ ترضى بما صنع أبوها ظاهريًّا ، لكنها في عمق ذاتها وفي داخلها غير راضية، إن مثلها مثل من يقول : « هذا أمر واقع » أو « هذه حياة أي حياة والسلام » أو « تم الحمل ومن أجل الأمل المنتظر نعيش وانتهينا » وهكذا ، والدليل على ذلك أن الذي أعلن الرضا وأبطن السخط يتصرف تصرف الساخطين ، سواء كان يدري أو لا يدري ، وهو دائمًا يعلل لتصرفاته ، ويلقي بالتبعة واللوم والخطأ على الآخر ، فإذا غضب بلا سبب ، أو بسبب لا يُسَبِّبُ الغضب قال هو الذي أغضبني ، وهو يغضب الجبال ، وهكذا ، وإن انحرف عن الجادة ، وسلك البُنَيَّات ، وضاع مع الضائعين قال : فلان هو السبب ، وهو الذي أوردني المهالك ، وهكذا وذلك يفكر بلا شك ، ونكرانه بالنظر إلى ما يترتب عليه

من مآس وعلل ، فالرضا لن يكون رضا حقيقيًّا إلّا إذا عرف الراضي أنه يتصرف تصرف الراضين ، أما الذي يقول : رضيت ويتصرف تصرف الساخطين فهو كالذي قال تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على ما فعلت بلسانه ، لكنه ما زال يعصي الله - عز وجل - سرًّا وجهرًا فهل التوبة باللسان توبة ؟

رحم الله علماءنا الذين قالوا : إن الاستغفار باللسان توبة الكذابين ، وقالوا : لا تكن وليا لله في العلانية وعدوًّا له في السر .

كل ذلك يوضح لنا أن العبرة بالسلوك وما يدل على صحة ما نطق به اللسان ، وعبر عنه ، فإنّ ذلك هو المعوَّل عليه ، ألا ترى أن عمارًا – رضي الله عنه – لما اشتد عليه تعذيب المشركين في مكة جاراهم بلسانه فقال ما لا يليق بلسانه بينما قلبه مطمئن بالإيمان ، فلما قال الناسُ أخذًا بهذا الظاهر ردّ عليهم النبي - ﷺ - بقوله : « عَمَّارُ مُلِئ إِيمانًا مِنْ رَأْسِهِ إلى أخمصِه » وقال لعمار : إن عادوا فعد ، ونزل فيه قول الله – تعالى - : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل : 106] . فإذا قال من أكره : كفرت وقلبه مطمئن بالإيمان فهو مؤمن ، فكيف نصف بهذا المنطق العظيم من يقول بلسانه آمنت وقلبه منكر ، إننا لا نكفِّر أحدًا ، وإنما من رحمة الله -عز وجل - أن جعلنا نحكم بالظاهر ، ولم يأمرنا أن نفتش عما في قلوب الناس كما روى البخاري في صحيحه عن رسول الله - ﷺ - .

ولكن إذا رأينا فساده قد تجسد ، فليس أمامنا إلّا العمل بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : 33] .

فلو أن هذه الشابة التي أعلنت رضاها عما صنع أبوها رضيت بحق ، وطوت صفحة البغض ، وأصلحت من حالها مع زوجها لرضيت عنه ابتداء ، ثم رضيت عن أمه بالتبعية فقد وصفت أم زرع حماتها بأن خيرها كثير وبيتها واسع ؛ لأنها أحبت زوجها حبًّا جمًّا ، حتى بعد أن طلقت منه ، وتزوجت بغيره على ما سوف يأتي بإذن الله وقد تكون أم أبي زرع على أقل مما وصفتها به ، لكنها نظرت إليها بعين الرضا ، كما قال الشاعر :

وَعَينُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيبٍ كَليلةٌ وَلَكِنَّ عَين السُّخْطِ تُبدِي المَسَاويا

وهذه الشابة تنظر إلى حماتها بعين السخط ، فلن ترى فيها كرامة ، ولن تلمح فيها جمالًا ، مع أنها بلا شك لا تخلومن ذلك ، فقط عليها أن ترضى ، وعن زوجها أولًا كي تستطيع أن ترى النور ، ورحم الله الإمام البوصيري إذ يقول :

قَدْ تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشَّمسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنكِرُ الفَمُ طَعمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

فافتحي قلبك يا فتاتي حتى تتفتح عيناك على الخير الذي أمامك وحجبته عنك حجب من ذاتك لا من السماء .

أهم سوأة عند الرجل في نظر المرأة

لله در ابن حجر حين أشار إلى أن أهم سوأة عند الرجل مهما تحلى بمكارم الأخلاق ، وعظيم الصفات ، وبلغ من الإحسان مبلغه أن تكون في حياته امرأة أخرى غير زوجته[1] وطلقها بسبب تلك المرأة ، قال ذلك عقب رواية الزبير « إِلّا أَنهُ طَلَّقها وَإِني لا أُطلقكِ » .

أي إن النبي - ﷺ - قال لعائشة - رضي الله عنها - « كُنتُ لَكِ كَأَبي زَرعٍ لأُمِّ زَرعٍ» ، فلما كانت هذه العبارة موهمة عموم الأحوال قال - عليه الصلاة والسلام - : « إِلّا أَنهُ طَلَّقها وَإِني لا أُطَلِّقُكِ» ، ليفيد أنه ليس على جميع أحوال أبي زرع ، بما في ذلك أنه

(1) فتح الباري 9/ 185.

طلقها ، فأراد النبي - ﷺ - أن يطمئن قلبها ، ومن هنا ننطلق إلى الغاية التي قصدنا وهي البعد عن الزنة والرنة الكذابة التي تتسلط على لسان كثير من الأزدواج في الرواح والغدو ، يقولون : أتزوج عليكِ ... أتزوج عليكِ ، حتى الشاب الذي يخطب فتاة يقول لها :

- ضعي في ذهنك أنك لو فعلت كذا وكذا فسوف أتزوج عليكِ . يهددها بالزواج عليها من قبل أن يتزوجها ، فماذا يفعل بعد زواجه بها ، إذا كان من الآن يزن كالدبور وهو الذي لم ير منها حلوًا ولا مرًّا ، وهذا الذي قد تزوج بامرأة مطيعة يأمنها ويأمن عمره وماله وسره وبدنه في ظلالها ولأدنى ملابسة بلغة النحاة في الإضافة يقول لها ، سوف أتزوج ، فكيف تطمئن إليه؟! إن زوجة أصيلة عاشرت زوجها مدة طويلة من الزمن ، وفي خلال هذه المدة كان يقول لها ذلك القول ، قالت : والله عشت مرعوبة ، لم أشعر بالأمان يومًا ، كان إذا تأخر عن ساعة قدومه إلى البيت أقول : لعله الآن يخطب ، وذات مرة كان في مأمورية عمل وأخبرني ، فلم أصدق أنه في مأمورية ، واتصلت ببيت زميله بحجة تافهة لأطمئن إلى أنه فعلًا في مأمورية ، وتبين لي صدقه ، لكني رحت أقول في نفسي ، لعله متفق معه على ذلك أليس رجلًا مثله ، وما الذي يمنع أن يكون الاتفاق في مأمورية زواج ، لا مأمورية عمل ؟

وإن دق الباب وكان أمامه كشاف الكهرباء قلت : إنه المحضر ، جاء ليخبرني بزواجه الجديد ، أو جاء يحمل لي ورقة طلاقه .

إنه بهذا يا دكتور جعلني أدور حول نفسي حتى في أخص أحوالنا ، على سريرنا ، أقول ، ماله ، ليس الليلة على عادته ، لعله قد تزوج ، وإلى الآن لا أشعر بأمان ، وقد مضى أكثر من سنة لا أسمعه يقول لي ذلك ، فقلت : إذًا تمت الزيجة وقُضي الأمر ، فما دام قد سكت عن هذه العبارة فلا شك في أنه نفذ ما أراد ، لم يعد عندي من ثقة ، أخذت أفتش في أوراقه ، وحافظة نقوده ، وجهاز محموله عن شيء يطمئنني ، إلى درجة أنني انتهيت آخر الأمر إلى شيء رأيته عين الصواب ، وهو المواجهة .. حدثته في ليلة صافية ، وقلت :

- يا أبا فلان .

- قال :

- نعم .

قلت : كم عامًا دامت عشرتنا معًا ؟

فقال : لا أدري ، أعوذ بالله ، لم تسألين هذا السؤال ؟

قلت : أجيب عنك ، عشرين سنة .

قال : اللهم طولك يا روح .

قلت : وحد الله ، وصل على النبي .

قال : لا إله إلا الله ، اللهم صل وسلم عليك أيها النبي .

قلت : بحق لا إله إلا الله . محمد رسول الله ، وبحق كل عزيز عليك ، والعيش والملح ، إن كنت قد تزوجت فأخبرني .

فقال : عندما ترين حلمة أذنك .

قلت : ماذا ؟

قال : ما سمعت ؟

قلت : يعني حصل ؟

قال : لن أقول .

قلت : لم يحصل ؟

قال : لا أعرف .

قلت : أتريد أن تراني مجنونة ؟!

قال : أنت مجنونة منذ عرفتك .

قلتِ : يا شيخ ارحم لوجه الله .

قال : ارحميني أنتِ ، وقومي لتنامي .

لاحق ولا باطل ، لا نور ولا ظلام ، لست أدري لماذا يعاملني هذه المعاملة ، وماذا فيها لو أخبرني إني أريد فقط أن أطمئن .

لذلك أقول للرجال : اتقوا الله في النساء ، كما قال النبي - ﷺ - وقد قال لعائشة : « **وَإِني لا أُطلقُكِ** » ليطمئنها ، فهلّا طمأن كل محب للنبي - ﷺ - زوجته .